﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب رحلة ابن بطوطه ﴾

صحيفه

صحيفه

﴿ فهرست الجزء الاول ﴾

﴿تمت فهرست الجزء الاول﴾

كتاب

﴿رحلة ابن بطوطة﴾

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار

وعجائب الاسفار

الطبعة الاولى
بالمطبعه الخيريه
لمالكها ومديرها السيد (عمر حسين الخشاب)
بسنة ١٣٢٢
هجريه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذي ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر وجعل القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات وقطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه الانعام بتذليل مطايا الأنعام وتسخير المنشآت كالاعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا وطلع نور هدايته وهاجا بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الرمم الباليات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ورضى الله تعالى عن المشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء وظاهروه على اظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله أبي عنان فارس ابن موالينا الائمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا وسعدا يكون لزمانه الزمان علاجا كما

وهبه الله بأساوجود لم يدع طاغيا ولا محتاجا وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا
﴿وبعد﴾ فقد قضت العقول وحكم المعقول والمنقول بأن هذه الخلافة العليه الجامعة المتوكلية الفارسيه هي ظل الله الممدود على الانام وحبله الذى به الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغى عند استقلالها وشادت مبانى الحق على عمد التقوى واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذى جر أذياله على مجرة السماء والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه والعدل الذى مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار والبأس الذي فيض غمامه الدم الموار والنصر الذى نفض كتائبه الاجل والتأييد الذي بعض غنائمه الدول والبطش الذى سبق سيفه العذل والاناة التي لا يمل عندها الامل والحزم الذى يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل نزاع الكتائب والحلم الذى يجني العفو من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل و[illegible] أمن الخائف ومنية السائل توخي الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع [illegible] فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتها الى [illegible] وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجأ الخائفون الي الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذى عليه مدار العالم وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يتسند صحاح الآثار كل مسلم وبا كمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن

وفد على بابها السامى وتعدى أوشال البلاد الى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في بلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذى طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار ايثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التى لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ماشاهده فى رحلته من الامصار وماعلق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار فأملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الي بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزى الكلبي أعانه الله على خدمتهم وأوزعه شكر نعمتهم ان يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبدالله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على انه سلك في اسناد

صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ في فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الاغضاء عن تقصيره المأمول فعوائدهم في السماح جميله ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيله والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين

قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم وشوق الي تلك المعاهد الشريفه كامن في الحيازم فجزمت أمري على هجر الاحباب من الاناث والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزي أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد وتحلت الايام بحلى فضله ورتع الانام في ظل رفقه وعدله الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهتانه وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين

وأبقى الملك في عقبهم الى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضى الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن على بن ابراهيم النفزاوى والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدى (بضم الزاى نسبة الى قرية بساحل المهدية) وهو أحد الفضلاء وفاته عام أربعين وفي يوم وصولى الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار على بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في ابان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدى الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى فتوجهنا جميعا على متيجة الى جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر وكان أمير بجاية اذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتنى الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء منى فأبيت وقلت ان قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لى اما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير

خوف غارة العرب في الطريق ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك أول ما ظهر لي من الالطاف الالهية في تلك الوجهة الحجازية وسرنا الي ان وصلنا الي مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن فنظر الى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهتي ورحلنا الي ان وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لاجل الخوف في الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصابتني الحمى فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف الي ان وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوى فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس مالم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والايناس ومازال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين قال ابن جزى أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي هو ابن الحاج البلفيقي انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة باش من بلاد الاندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكماد وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم علي بعض بالسلام وأنا في ناحية لا يسلم على أحد فقصد الي شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل علي بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

﴿ذكر سلطان تونس﴾

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبو يحيي ابن السلطان أبي زكريا يحيي

ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصارى الخزرجى البلنسى الاصل ثم التونسي هو ابن الغماز ومنهم الخطيب أبو اسحق ابراهيم بن حسين بن على بن عبد الرفيع الربعى وولى أيضا قضاء الجماعة في خمس دول ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على ابن قداح الهوارى وولي أيضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوايده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل فلما أفتي فى أربعين مسئلة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ووافي السلطان أبو يحيي المذكور راكبا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الي منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسى من أهل أقلمن بلاد أفريقية وأكثره المصامدة فقدموني قاضيا بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الي بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزي فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخي (كامل)

سقيا لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محمي القصير الى الخليج * فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة * فاذا رأي الرقباء ولى

وفي عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها * ولاسقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوبا بضاعته * وبات في البحر يشكو الاسر والعطبا
قدعاين البحر من لوم لقاطنها * فكلما هم ان يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرا لتوالى نزول الامطار قال ابن جزى فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفي على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها * جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أويزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحى فى بعض تلك المراحل وفي الرابع بعده وصلنا الي مدينة طرابلس فاقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعي أهلى وفى صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب في طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ماراموه من اذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الي قصر برصيص العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بيني وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا في أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشان الاصيلة البنيان بها ماشئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين

كرمت مبانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهي الفريدة تجلي سناها والخريدة تجلي في حلاها الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا في عجائبها فأغربوا وحسب المشرف الي ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك

﴿ذكر أبوابها ومرساها﴾

وللمدينة الاسكندرية أربعة أبواب باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب وباب رشيد وباب البحر والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الي زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشان ولم أر في مراسي الدنيا مثله الا ما كان من مرسي كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

﴿ذكر المنار﴾

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته انه بناء مربع ذاهب فى الهواء وبابه مرتفع علي الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار فى البر الا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولي عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

﴿ذكر عمود السواري﴾

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمي عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه قال ابن جزي أخبرني بعض أشياخي الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول الى قصده لغرابة ما أتي به وكيفية احتياله في صعوده أنه رمي بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتي توسط الحبل اعلى العمود مكان الخيط فأوسطه من احدى الجهتين في الارض وتعلق به صاعدا من الجهة الاخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيي بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكرياء ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين وبالاسكندرية توفى اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصري بها الى اليوم قال ابن جزي من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

﴿ذكر بعض علماء الاسكند

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى امام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم (حكاية)

يذكر ان جد القاضى فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا فقعد قريبا من بابها الي ان دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل ياقاضي فقال قاض ان شاء الله ودخل الي بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفى قاضى الاسكندرية وبها اذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادى فى الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان فى أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي انه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ماظهر للمنجم وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى من كبار أولياء الله تعالي يذكر انه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات (كرامة له)

خبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال ياخليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب

السلام وحيا المسجد وسلم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقعد مستنداً الي بعض سواري المسجد ووضع رأسه علي ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة التر فيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمراً كل هو وأصحابه وانصرف عائداً الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة *ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامى بالاسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثا

(ذكر كرامة له)

دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم اني أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعي التوجه الي تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما وادعته زودنى دراهم لم تزل عندي محوطة ولم أحتج بعد الي انفاقها الي ان سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لي فى البحر *ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من افراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسي تلميذ ولى الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

(كرامة لأبى الحسن الشاذلي) أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسى ان أبا الحسن كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير الي بلده فلما كان في بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولم ذا ياسيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن

ابن على رضى الله عنه

(ذكر حزب البحر المنسوب اليه) كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا (يا الله يا على يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربي وعلمك حسبي فنعم الرب ربي ونعم الحسب حسبي تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هولك فى الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شيء يامن بيده ملكوت كل شيء كهيعص حم عسق انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هي في علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا في سفرنا وخليفة في أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجيء الينا ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأني يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس الي فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حم الامر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل

الثوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير باسم الله بابنا تبارك حيطانا تايس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولي الصالحين فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(حكاية)

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والي الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى فذهب الي حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين تصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالى فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالي ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا اسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكربك وسواهم وأخذا منهم الاموال الطائلة وجعلت في عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك في يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فأنكر الاميران قوله وقالا انما تريد

الثورة على السلطان وقتلاه وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى فيأتي لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك في غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطة فيولي ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء المثلوة والراء وواو وجيم مفتوحة) وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافني ناظرها زين الدين ابن الواعظ وسألني عن بلدي وعن مجباه فأخبرته ان مجباه نحو اثني عشر ألف من دينار الذهب فعجب وقال لي رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع أملاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيره ومحاسنها أثيره أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الوقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة ان ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيره والفوائد الخطيرة الاثيره (وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو)

بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذى قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينهما خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الي زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولي مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامة تقول فيه الملك فيخطؤن ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاويه ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الي وعانقني وأحضر طعاما فوا كلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماما وكذلك لكل ما حضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لى اصعد الى سطح الزاوية ونم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير باسم الله فقال لي وما منا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

(كرامة لهذا الشيخ) رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياى فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ثم أتاه الامير يلملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هنالك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد ان زودهم كعيكات صغارا ثم سبحت سبحة الضحي ودعاني وكاشفني برؤياى فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخى دلشاد الهندى ويخلصك من شدة تقع فيها ثم زودني كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الا خيرا وظهرت على بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولى سيدى محمد الموله بأرض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها

حسنة الرؤية (وضبطها بفتح النون وحاء مهملة مسكن وراء ين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولي قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين ورحلت منها الى مدينة أبيار وهي قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتي أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشي بين يديه قائلا باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الي موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة ثم توجهت الي مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها ابين ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالى الولاة وكان قاضي قضاتها أيام وصولى اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين بن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين

الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمي ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهي الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب * والريح تثنى ذوائب القصب

كأنها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب

والجو في حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) (والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهمل وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين) وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه ان قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الي النيل فبينما اسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلي اذ سمع قائلا يقول

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لا تبالونا

قال فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فما رأيت احدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالي (رجع) ثم سافرت في أرض رملة الي مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب (والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي وكان شرف الدين

الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده) ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر في المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال في دمياط سورها حلوى وكلابها غنم واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البورى يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكرورى

(حكاية)

يذكر ان السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوى الى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدى أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الى ولدى وأحب أن تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدى ان لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه

فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته اياه فادخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي علي هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولي فقبل القاضي يده وتلمذ له وبنى له الزاوية حسنة وصحبه أيام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الي زيارة الشيخ يطأ قبره وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوى الاحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الي مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف التى فى اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لى ان الامير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الى جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الي مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ولها قنطرة خشب ترسو

المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالى الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهى على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر مابين مداين وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الي استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الي مصر ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد ثم وصلت الي مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذى الاوتاد ذات الاقاليم العريضه والبلاد الاريضه المتناهية في كثرة العماره المتباهية بالحسن والنضاره مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربه مؤنسة لذوى الغربه قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك مامصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض

شاطئ مصر جنة * ما مثلها من بلد
لاسيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد

مسرودة مامسها * داود هـا بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عارى الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وان بها ثلاثين ألف مكار وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

﴿ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا﴾

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب *ومن عوائدهم فى الطعام انه يأتى خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الي عشرين ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون

لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرؤا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم انه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أى البلاد أتي وبأى الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم * ومن عوائدهم انهم اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الي المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرؤا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الي الزاوية ومعهم شيخهم

﴿ذكر قرافة مصر ومزاراتها﴾

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون في كل ليلة جمعة الي المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل * ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة

وصفائحها أيضا كذلك وهو موفي الحق من الاجلال والتعظيم * ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود * ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الامن له بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

(ذكر نيل مصر)

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه مايزدرع على النيل وليس في الارض نهر يسمي بحرا غيره قال الله تعالي فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماه يما وهو البحر وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الي سدرة المنتهي فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا ان النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب الي الشمال خلافا لجميع الانهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة

عشر ذراعاتم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها يحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها ففاضت على المزارع

(ذكر الاهرام والبرابي)

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمى خنوخ وهو أدريس عليه السلام وانه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منوف وهي على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتي الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر في شأنها ان ملكا من ملوك مصر قبل

الطوفان رأى رؤياها هالته وأوجبت عنده انه بني تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه انها تفتح من الجانب الشمالي وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فأمر ان يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة وكتب عليها بنيا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

(ذكر سلطان مصر)

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي وكان قلاوون يعرف بالالفي لان الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده

حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

(ذكر بعض أمراء مصر)

منهم ساقي الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين بينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فأطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجيم ومنهم بدر الدين بن البابه ومنهم جمال الدين نائب الكرك ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد ومنهم بهادور الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي وكان نصرانيا من القبط فأسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة

تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

(ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي اليها)

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك ومنهم قاضي القضاة المالكية الامام الصالح تقي الدين الاخنائي ومنهم قاضي القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لي ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه اني لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريري ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن الا انه كان يدعى بعز الدين

(حكاية)

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه وهو جلوسه بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبي الله أن يحضرها سواه أدام الله أيامه وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية فلما توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي أشار الامراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد فأمر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود

المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك

(ذكر بعض علماء مصر وأعيانها)

فمنهم شمس الدين الاصبهاني امام الدنيا في المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين ابن القويع التونسي من الأئمة في المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ومنهم برهان الدين الصفاقسي ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائي نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

(ذكر يوم المحمل بمصر)

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب قلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل

وامامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤن على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر والحداة يحدون امامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمه وآثار كريمه أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذي كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذي كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين على بن أبي طالب الذى بخط يده رضي الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ماذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهمل وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التي ذكرناقبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد

الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر لخصيب

(حكاية خصيب)

يذكر ان أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الي بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر الي بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب اني كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدي سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فأنشده (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتي على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبي فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها الي سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الي الخليفة فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين

يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى أن توفى وأورثها عقبه الى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها فخر الدين النويرى المالكي ووالياها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فأعلمته بذلك فأمرني أن لا أبرح وأمر باحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل احد الحمام دون مئزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوى وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل بنى أحدهم جامعا انفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة الى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

(حكاية) أخبرني أهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع باسواق مصر

وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط وهي مدينة رفيعة اسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب شهر به واصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ماقدر له فكان هذا القاضي اذا أتاه الفقير يقول له حاصل ماثم أي لم يبق من المال الحاصل شئ فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافني بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربي المعروف باسمها وهو مبنى بالحجارة في داخله نقوش وكتابة للاوائل لاتفهم في هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابي وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده انه استفاد مابيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرؤا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم الي مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ورأيتهم يقرؤن بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرؤن أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين

(كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدي فاخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة فقال لي لا يحصل لك هذا في هذا

الوقت فارجع وانما تحج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت في طريق حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لي السفر فعدت راجعا الى مصر ثم الى الشام وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي حسبما أخبرني الشريف نفع الله به ثم سافرت الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الاسواق (واسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبه والكرامات الشهيره عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهي بضم القاف) مدينة عظيمه لها خيرات عميمه بساتينها مورقه وأسواقها مونقه ولها المساجد الكثيره والمدارس الاثيره وهي منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطي وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الاندلسى له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الاقصرى وعليه زاوية وسافرت منها الى مدينة ارمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء معلوة) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافني قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني وأكرمني وكتب الى نوابه باكرامي وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها الى مدينة أدفو (وضبط اسمها

بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة أسوان مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة ادفو الى مدينة العطواني ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها الا انها آمنة السبل وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي وقد ذكرنا كرامته في أخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهاري ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها للملك البجاة وهو يعرف بالحدربي (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي زعم انه ابن المرتضي ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الي صعيد مصر فوصلنا الي مدينة قوص التي تقدم ذكرها وانحدرنا منها في النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الي مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الي مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل منزل منها

فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ولا الي مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الامير صباحا فينظر الي الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الدار اقماري من خيار الامراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون في جوازهم علي قطيا ثم سرنا حتى وصلنا الي مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الامير المعظم الجاولي وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس ثم سافرت من غزة الي مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا

وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرازى الذى سماه (المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحق ويعقوب) أسند فيه الى أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بى على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتي بى الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبرى أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشتهرين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن في ذلك الا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه ويذكر أن بعض الأئمة دخل الي هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى هذه القبور هو قبر ابراهيم فأشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فأشار له اليه ثم دخل صبي فسأله أيضا فأشار له اليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل الي المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهي على تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط وهى أجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا

ويقال ان ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكر الله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين ابن علي عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات

أسكنت من كان في الاحشاء مسكنه ... بالرغم مني بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة ... بنت الائمة بنت الانجم الزهر
ياقبر ما فيك من دين ومن ورع ... ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينه الى القدس فزرت في طريقى اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه أثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن ايوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استتقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز أمير دمشق

﴿ذكر المسجد المقدس﴾

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث واما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام

والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف فى النهاية من أحكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفى المسجد مواضع سواه مسقفة

﴿ذكر قبة الصخرة﴾

وهى من أعجب المباني واتقنها واغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشي بالذهب فهي تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

﴿ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف﴾

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الي البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهي التي يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

﴿ذكر بعض فضلاء القدس﴾

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسه واطلالا دارسه وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الي القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها في درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء مالا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الي مصر

ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الي دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضاً الي مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن وفي وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها الي مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضي الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل وبتنا هنالك ليلة ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الي مدينة عكة وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام وينزل اليها في درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها الي مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتي بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه في فعله فقال لي ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا مينا مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار ثم سافرت منها الي مدينة

صيدا وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس ثم سافرت منها الي مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبئ على ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهوذا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن وتجلب منها الي ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

﴿حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور﴾

يحكى انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضاً شديداً وأقام مطروحا بالاسواق فلما برئ من مرضه خرج الي ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان الي ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان يأتي برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره ان يأتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضاً حامضاً فقال له الوكيل أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استأجرتني على الحراسة لا على الاكل فأتي الوكيل الي الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قد رأى في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الي مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارا بنفسه في أوان البرد الشديد فأتي قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم في تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتني به فأتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه وأوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبني الزوايا بالطرق ويرضي أصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الي الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضي أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ويكنفها البحر بمرافقه العميمة والبر بخيراته المقيمة ولها الاسواق العجيبة والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منها بالدار

المعروفة بدار السعادة ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الي ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الي منزله ترحل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة علي أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار بأعلي تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الي بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ثم سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة ارجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة ثم سافرت منها الي مدينه حماة احدي أمهات الشام الرفيعه ومدائنها البديعه ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي

اذا كسرت نواته وجدت في داخلها الوزة حلوة قال ابن جزى وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين أبو الحسن على بن موسي بن سعيد العنسي العمارى الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه (طويل)

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مباني تمنع الواصف الوصفا
يلومونى أن أعصي الصون والنهي * (٢) وأطيع الكاس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصي
بكت رحمة لي ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكي على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوي وعن اخلاصي
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجري المدامع طائعاً كالعاصي

(رجع) ثم سافرت الى مدينه المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سمت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع) والمعرة مدينة كثيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين واكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها واهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادي تسعة وواحد فضربه بالدبوس على راسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال ابو الحسين بن جبير في وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس اثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع تنزهت حصانة من ان ترام او تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين امراؤها الحمدانيون وشعراؤها فني جميعهم ولم يبق الا بناؤها فيا عجبا البلاد تبقى وتذهب املاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر باهون شيء ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان انث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالغدر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظماء ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة اياما

ونكص عنها خائباً قال ابن جزى وفي هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامه * ويلبسها عقدا بأنجمه الشهب
اذا ما سرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة * وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضا توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل أن تهمي عزاليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو أنه كان يجرى في مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن أبي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * وجلا فما يمسي لديها حاضرا

(رجع) ويقال في مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهى من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائما في ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسنا وكبرا وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذى لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد في صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والآبنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع واتقان الصنعة

ينسب لأمراء بني حمدان وبالبلد ـ واهاثلاث مدارس وبهامارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطيء نهره وهو النهر الذي يمر بحماة ويسمى العاصي وقيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون في سواها وهي من المدن التي تصلح للخلافة قال ابن جزي أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يابرق أسفر عن قويق مطالي * حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المصفر صبغه * في كل ضاحية ومجنى الآس
أرض اذا استوحشت ثم بتذكر * حشدت علىّ فأكثرت ايناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب * فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطب
اذا نشر الزهر أعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعري (خفيف)

حلب للورادجنة عدن * وهي للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر في عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق في أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن حيوس

ياصاحبي اذا أعياكما سقمي * فلقياني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوى العذري من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي * فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي (خفيف)

حادي العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحي من بعدهم في سياق
حلب انها مقر غرامي * ومرامي وقبلة الأشواق
لا خلا جوشن وبطياس والعـ * ـظم من كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سقى المنى بكأس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح * وتثني غصونها لتعناق
وعلوا الشهباء حيث استدارت * أنجم الأفق حولها كالنطاق

(رجع) وبحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضي كمال الدين ابن الزملكاني شافعي المذهب عالي الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصر بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفي ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموي الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها (كامل)

أسفت لفقدك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقد رحلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنورها لألاء
يا سائرا سبق المكارم والعلى * ممن يخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنعم ثم الفضل والنعماء
قاضي القضاة أجل من أيامه * تغنى بها الايتام والفقراء
قاض زكي أصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والأبناء

من الاله على بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء
كشف المعمي فهمه وبيانه * فكأنما ذاك انذكاء ذكاء
ياحاكم الحكام تدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التي * فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسمعت قال ابن جزى وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو في المقطعات أجود منه في القصائد واليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبي يحيي عبد الرحيم بن نباتة منشيء الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله (كامل)

علقتها غيداء حالية الحلي * تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب (كامل)

تراه اذا ماجئته متهللا * كانك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لاأذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لاأذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم كبراء مدينة حلب ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهي حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها في نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلاني وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها ثم سافرت الى مدينة

انطاكية وهي مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثير العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد الدا ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الي بلاد سيس وهي بلاد كفار الارمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبيزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الاول) ويحفظ الطريق الي بلاد الارمن

حكاية

شكى الارمن مرة الى الملك الناصر بالامير حسام الدين وزوروا عليه امورا لا تليق فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل على الملك الناصر وقال ياخوندان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالاقوش وكان لا يبعث الا في مهم وأمره بالاسراع والجد في السير فسار من مصر الي حلب في خمس وهي مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذي يخنق به الناس فخلصه الله تعالي وعاد الي موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية

وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الي حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين الكردي وقاضيه شهاب الدين الارمنتي من أهل الديار المصرية ثم سافرت الي حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهمل) وهو منيع في رأس شاهق أميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن التيمية ثم سافرت الى مدينة صهيون وهي حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمي وقاضيها محيي الدين الحمصي وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له وان أصيب فهي لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الي قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

(حكاية)

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخي الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت أواخي سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للاخذ بثار أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الي جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم

عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشرين ألفاً وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو في مسيرة يومين من حلب وكان مهنا في قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وأتى بالعمامة في عنق نفسه ونادى الجوار يا أمير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد أجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطلب أولادي ومالي فقالت له لك ما تحب فانزل في جوارنا ففعل ذلك وأتى مهنا فأحسن نزله وحكمه في ماله فقال انما أحب أهلي ومالي الذي تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبني عمه فشاورهم في أمره فمنهم من أجابه الى ما أراد ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الأفرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبداً ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده

الدمرطاش الي الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين ابي سعيد واتفقا على أن يبعث أبوسعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس تمرطاش الى أبي سعيد فلما وصله أمر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبوسعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

﴿حكاية أدهم﴾

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعي لي صاحب المنزل فقالت انه لامرأة فقال استأذني لي عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهي مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها ابناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان الى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتي من بخاري الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك الا أن تتزوج بنتي فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على

صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الي الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتاً رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فأسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم ابن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثاً ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب اله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم ببناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير

(حكاية)

ذكر لي أن رجلاً مجهولاً وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها فيقول له ان الامام المهدي أعطاني هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم انه أمرهم بالتجهز لقتال المسلمين وأن يبدؤا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفاً عند القتال فغدروا بمدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام الي طرابلس

فاتى أمير الامراء بسا كره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء وألقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الارض وانهم ان قتلوا اضعف المسلمون لذلك فأمر بالابقاء عليهم ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الاسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيي السلاوى وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء احد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقية الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكى فاضل كريم تماق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها

﴿حكاية﴾

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضي جلال الدين ان يحيل في قتله بوجه شرعي فدعاه القاضي الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضى وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم أخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضى جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا وأمر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس وأجلس

كل واحد منهم تحت عنقه ونزعت عمائمهم ومن عادة أمراء تلك البلاد انه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث المأمور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث أنفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء في المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا أيها الامير هذه سبة في الاسلام بقتل القاضي والشهود فقبل الامير شفاعتهم وخلى سبيلهم وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهي من أحسن المراسي بالشام ثم سافرت الى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

﴿ حكاية ﴾

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به اني كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه في هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فالقيناه كما وصف لنا فقبضناه وأتينا به أصحابنا وذبحناه وأشوينا لحمه في تلك النار

وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقفنا له علي أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الي مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفه والجنات المنيفه وتخترق ارضها الانهار الجاريه وتضاهي دمشق فى خيراتها المتناهيه وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الي دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها الي دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها الي ان يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة وكان دخولي لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقي الي دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه منها الي ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب

مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بأرض * فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكر شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الأنفس للتطلع على صور تهابها أفاد هذا وان لم تكن له بها اقامه فيعرب عنها بحقيقة علامه ولا وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفولها المنوعات ولا أوقات سرورها المنبهات وقد اختصر من قال الفيتها كما تصف الألسن وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين قال ابن جزي والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والدي رحمه الله كثيرا ما ينشد في وصفها هذه الابيات وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالي من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسهالك جنة لاتنقضي * ومن الشقيق جهنم لاتحرق

وقال أيضا فيها (بسيط)

اما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور
ماصاح فيها على أوتاره قمر * الا يغنيه قمري وشحرور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا انها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الاسدي (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها * في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر في اشراقها
نسيم روضها متي ماقد سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع في ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يابرق هل لك في احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق بمشق اقلام الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا
واجرر بجيرن ذيولك واختصص * مغنى تأزر بالعلا وتسربلا
حيث الحيا الربعي محلول الحبا * والوابل الرفعي مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر

وقد تجلت من اللذات أوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل وادبه موسى يفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال أيضا فيها (بسيط)

خيم بجلق بين الكأس والوتر * في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الي ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا * دعني فانك عندي من سوى البشر

وقال فيها أيضا (كامل)

أما دمشق فجنة * ينسي بها الوطن الغريب
لله أيام السرو * ر بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى * الا محبا أو حبيب
في موطن غنى الحما * م به على رقص القضيب
رغدت ازاهر روضه * تختال في فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الي المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضيرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الي الليل وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع الي كلام الشيخ ابي عبد الله

﴿ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية﴾

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذي تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الي ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثني عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من احدى جهاتها بالسيف فانتهي الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهي الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون

من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً و بقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون ان الذي يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن في سبيل الله واخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم واكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محاريب وسواها وهي تقل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السواري ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبه يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له اسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه وفي هذا الصحن ثلاث من القباب احداها في غربيه وهي أكبرها وتسمي قبة عائشة أم المؤمنين وهي قائمة على ثمان سواري من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لي ان فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا في كل سنة والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الاخرى الا انها أصغر منها قائمة على ثمان من سواري

الرخام وتسمي قبة زين العابدين والقبة الثالثة في وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سواري من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين وهم يسمونه قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد بديع الوضع يسمي مشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال ان عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنالك وفي قبلة المسجد المقصورة العظمي التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الي الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيأ وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر أهل التاريخ انه اول محراب وضع في الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهي من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء هي لطائفة الزيالعة السودان وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيي) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفي الاثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خرابه الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب

عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرؤن سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرؤن فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفي هذا المسجد جماعة كثيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيأ من ذلك وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الي دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط النحاسين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته اعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفى الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون فى

الذكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليه في درج له اعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميصاتية في وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجري فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى كل باب من أبواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة

﴿ذكر الائمة بهذا المسجد﴾

وائمته ثلاثة عشر اماما أولهم امام الشافعية وكان في عهد دخولي اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد علي ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضي الله عنهم اجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم

في عهد دخولي اليها الفقيه أبو عمرو بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاه الخاتونية وله أيضا خانقاه بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

﴿ذكر المدرسين والمعلمين به﴾

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرؤن كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقراء القرآن يقرؤن بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرؤن القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه الى أبي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوي وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين علي السخاوي المالكي رحمة الله عليهم أجمعين

﴿ذكر قضاة دمشق﴾

فقد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني واما قاضي المالكية فهو شرف الدين بن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية واما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني وكان شديد السطوة واليه يحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول اليه وأما قاضي الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما متوجها للحجاز الشريف

﴿حكاية﴾

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون الا ان في عقله شيأ وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بأمر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فأمر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا اله الا الله فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواما وصنف في السجن كتابا في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلدا ثم ان أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فأمر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وانكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدي والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين

تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن

﴿ذكر مدارس دمشق﴾

اعلم ان للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضي ومن نوابه فخر الدين القبطي كان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

﴿حكاية﴾

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضي من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبني بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه انه يرضى بذلك فلا يناله بسوء فأحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط وطيف به على حمار في مدينة دمشق ومناد ينادي عليه فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطا القاضي وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضي قضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها

السلطان نور الدين محمود بن زنكي والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة اعظمها المدرسة النجمية

(ذكر أبواب دمشق)

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد ابن جزى لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله (رجز)

دمشق في أوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها * قد جعلت ثمانيه

(ذكر بعض المشاهد والمزارات بها)

فمنها بالمقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرني وقبر كعب الاحبار رضى الله عنهما ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة الي الشام فتوفي في أثناء الطريق في برية لاعمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزي ويقال ان أويسا قتل بصفين مع علي عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الاشهب

(حكاية في سبب تسميته بذلك)

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بقرية من مدينة واسط وكانت بين ولي الله تعالى ابي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر وكانت

للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان في احدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال رسلان عن أمرك يا سيدي آتيه به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما فأخبر أهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبي الدرداء وزوجته أم الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضي الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة رضي الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقرية قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبي صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كبير وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام وبجامع النيرب من قري دمشق في بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الي الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا والأقدام التي ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له ههنا قبر أخي موسى عليه السلام وبقرية من هذا المسجد على الطريق

موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبقربه من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف أيضاً بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

(حكاية)

شاهدت أيام الطاعون الاعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو أن ملك الامراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهاراً وأكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وأناثاً صغاراً وكباراً وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الأقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم فانتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال انها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم

(ذكر أرباض دمشق)

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها أملح من داخل دمشق لاجل الضيق الذي في سككها بالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

(ذكر قاسيون ومشاهده المباركة)

وقاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت يبلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهي بقرية من بلد ذى الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالقرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا احمر او هو الموضع الذي قتله اخوه به واجتره الى المغارة ويذكر ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسي وعيسى وأيوب ولوط صلي الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج تقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر ان فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من ان يدفن فيها أحد

﴿ذكر الربوة والقرى التي تواليها﴾

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوي المبارك مغارة صغيرة في وسطها

كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأزى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ماليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائف الامام والمؤذن والصادر والوارد وبأسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الي قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف ابن الزكي الكلبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان ينحت فيها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة باعجب نظام وأزين التئام

﴿ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم﴾

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الي أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

﴿حكاية﴾

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الي مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والأهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزري بالمروءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعلم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء

يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليال ثم أصابتني الحمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي احسب داري كانها دارك أو دار أبيك أو أخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني وقد كان ما عندي من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لي جمالا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي تكون لما عسى ان يعتريك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وايثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذذاك بالصاحب * ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرؤن سبعا من القرآن الكريم في كل يوم اثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواهما ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته

بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضاً في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة والقراء يقرؤن القرآن بالاصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرؤن فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون باسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضاً زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالكسي الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل الناس نحوه ويأتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءاً فاذا تمت القراءة من القراء بالاصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائماً ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ويذكر أقاربهم ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعياً له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صباً يبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس أجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولاً بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه

ثم يؤتي بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به فاذا أعطي السلطان أحداً منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول الا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقاً منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

﴿ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها﴾

سمعت بجامع بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقري الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الاصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل بن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي جميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيي بن علي بن المسيح بن عمران الربعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي ومن باب غيرة النساء وجدهن الي آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبي الوقت عبد الاول بن عيسي بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي قراءة عليه وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس

وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أعين السرخسي قراءة عليه وأنا أسمع في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربري قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال أخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين وممن أجازني من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور وسبق الى ذلك وتلفظ لي به ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن ابن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن البحدى ومنهم امام الائمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبي حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي والشيخ الامام الشريف محيي الدين يحيي بن محمد بن علي العلوي ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني اجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فأخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة

أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها اربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بني عليه مسجد عظيم ويجتمع اهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزة (زيزا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وامنعها واشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤن في النوائب وله لجأ الملك الناصر لانه ولي الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة ايلة لجأ الى الحصن واقام به اعواما الى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولي الملك في تلك المدة بيبرس الششنكير وهو امير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن ايوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه واوتي به الى الملك الناصر فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس في جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك اربعة ايام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهي حسيان لا عمارة بها ثم الى وادي بلدح ولا ماء به ثم الى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم تزل الى هذا العهد

ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا اسيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤن الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جملة وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفي وسطها الوادي الاخيضر كانه وادي جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ان في ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة واليها ينتهي تجار

نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجالقي ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

﴿طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم﴾

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الابطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين لله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفه ومشاهده العظيمة المنيفه داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

﴿ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة﴾

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة

فيسلمون و ينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما وفي الجوفي من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ويقال أيضاً هو قبرها والله أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج يفضي الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الى داره ولا شك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ما سواها وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

(ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم)

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بني عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربداً لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في تسقيفه فاقام له

أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والامر أقرب من ذلك قيل وماظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضي الله عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الاساس حجارة الى القامة وجعل الابواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغي ان يترك هذا للنساء فما رئي فيه حتى لقي الله عز وجل وقال لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد عمر ان يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذي الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسي فذهب عمر ليتكلم فقال له أبي دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاي على عاتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها في المسجد فقال أبي ان عندي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا ثم راودهما فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحي الله اليه ان كنت تعطي من شيء هولك فأنت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هولي وقد حرمت عليك بناءه

قال يارب فأعطه ايمان فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبي الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضي الله عنه أما اني لو لم أحد غيرك أخذت قولك ولكني أحببت أن أثبت ثم قال للعباس رضي الله عنه والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ففعل العباس ذلك ثم قال أما اذا أثبتت لي فهي صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها في المسجد ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه وأتقن عمله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الا الجهة الشرقية منها وجعل له سواري حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بني المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم اني أريد ان أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعني فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور مازاده في ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقي منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل عمر للمسجد محرابا ويقال هو أول من أحدث المحراب ثم زاد فيه المهدي ابن أبي جعفر المنصور وكان أبوهم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول انه ان زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه أبو جعفر بانه انما أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه اني قد عرفت الذي أردت فاكفف عن دار عثمان وأمر أبو جعفر ان يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتكن المصلين من الحر وكانه

طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع فبلغه المهدي الى ثلاثمائة ذراع وسوي المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجري اليها الماء واراد ان يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له بناها ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام اشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبني وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهي قبلة قطع وكانت القبلة اول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهراً وقيل بعد سبعة عشر شهراً

﴿ذكر المنبر الكريم﴾

وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم التزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميما الداري رضي الله عنه هو الذي صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضي الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك في الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين في وسطاهن فلما ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن فلما ولي عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقي الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت

الشمس وبدت النجوم نهارا واظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

﴿ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم﴾

وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولي الى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطي نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري ﴿حكاية﴾

يذكر ان سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ثلاث مرات في كل مرة ينهاه عن الخروج منها واخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطي من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

﴿ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به﴾

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة ﴿حكاية﴾

يذكر ان أبا عبد الله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه بأهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته

بمنزله فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال اني أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله فلم تزل تراوده وتمارضه حتى خاف عن نفسه الفتنة وجب نفسه وغشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى بريء وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ورأس الطائفين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

﴿ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة﴾

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابراً محتسباً وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت لم أطف وكنت أجعل بجادي على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي (حكاية) جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا المتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل الصحابة الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا انه

سبقهم فمضوا الي مكة شرفها الله تعالي ومر عيسى على طريقه فافضي به الي جبل آخر وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الي ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فأعلمه بحاله فاركبه واوصله الي مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام علي قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي اذكره ان شاء الله ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر وأم في التراويح بها ومن المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي (حكاية) يذكر ان أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس فانتهي به الكلام الي ان تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مرتكبا صعبا عفا الله عنه فقال ان الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الي أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسني فانكر كلامه ويحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ويذكر انه بعث من اغتاله والي الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

﴿ذكر أمير المدينة الشريفة﴾

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فما راعهم الا وابناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولي بعده أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا انه نفى أبا العباس الفاسي

﴿ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة﴾

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول مايلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله

عنهما وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه وامامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو المعروف بأبي شحمة وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وقبر عبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وبازائهم روضة يذكر ان قبور أمهات المؤمنين بها رضي الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن الى رجلي العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم الا أنها لا يعرف أكثرها وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان ابن عفان رضي الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي ابن أبي طالب رضي الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلي المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما في حدائق النخل وبه المسجد الذي أسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مسطبة هو أول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وفي قبلي المسجد دار كانت لابي أيوب الانصاري رضي الله عنه ويليها دور تنسب لابي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم وبازائه بئر اريس وهي التي عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال ان الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما والى جهة الشمال منه بئر بضاعة وبازائها جبل الشيطان حيث

صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ان أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو بجوفي المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضي الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد رضى الله عنهم وقبورهم قبلي أحد وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس فى تلك الليالي المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان في صحبتي فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل وأضافني بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخاري وكان في صحبتي أيضاً قاضي الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبني أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلي بن حجر الاموي (حكاية) لما وصلنا الي المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة ذكر لي علي بن حجر المذكور انه رأي تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع مني واحفظ عني (طويل)

هنيأ لكم يازائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبى لمن يضحي بطيبة أو يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الي مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند في سنة

ثلاث وأربعين فنزل في جواري وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند فأمر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فأعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بانزاله واعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب دينارا ونصف دينار واعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتبا في كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربي فصحبه علي بن حجر المذكور وواعده على ان يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما أثرا ولا للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه فعرضت قضيته بين يدي الملك فأمر أن يخلف له ذلك فبعث اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما والمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادي العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامي وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفردا ولم أزل ملبيا في كل سهل وجبل وصعود وحدور الى ان أتيت شعب علي عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وانجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل

تمتد ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهي برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلطا بالسكر والامراء يملؤن منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فاعطاهم اياه فشربوه سويقا ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسني النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الي عسفان وهي في بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الي عثمان بن عفان رضي الله عنه والمدرج المنسوب الي عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج أثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الي علي عليه السلام ويقال انه أحدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم ارحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الي مكة شرفها الله تعالي ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ

آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوأ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا من باب بني شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل في برود الجمال محفوفة بوفود الرحمن موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار قريبة من باب ابراهيم والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا في القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فأرضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهي نائية ويمثلها وهي غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف في طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر الاهي وصنع رباني ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز في بصيرة المستبصرين وتبدو في فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت في قصدها تجارته وكتبت في سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

﴿ذكر مدينة مكة المعظمة﴾

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبي قبيس أجياد الاكبر وأجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهي جبل وستذكر والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب الزاهر وباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبي لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق

﴿ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه﴾

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقي وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى في وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ماعدا الجصية التي في دار الندوة

المزيدة في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرؤن والنساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جدارتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة

﴿ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما﴾

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بأبدع الالصاق وأحكمه وأشده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي بينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمي بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضاداته وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلاف ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

﴿ ذكر الميزاب المبارك ﴾

والميزاب في اعلى الصفح الذي على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز

بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسمعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة اشبار

﴿ذكر الحجر الاسود﴾

وأما الحجر فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق في الركن الذي الي جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطي لعنه الله كسره وقيل ان الذي كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فيجتلي منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ان لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيق اليه وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصفحة البهية وترى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو اول الاركان التي يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الي جهة الشرق

﴿ذكر المقام الكريم﴾

اعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو نصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذي هو الآن مصلى وبقي ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلي امام الشافعية في الحطيم الذي هنالك

﴿ذكر الحجر والمطاف﴾

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة اشبار ونصف شبر وسعته ربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنتظم معجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته أيضا ستة أذرع بين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى احاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة

﴿ذكر زمزم المباركة﴾

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن

يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر وعمق البئر أحد عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الي العباس رضي الله عنه وبابها الي جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التى للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأهل مكة اذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضي الله عنه على انحراف القبة المعروفة بقبة اليهودية

﴿ذكر أبواب المسجد الحرام وما داربه من المشاهد الشريفة﴾

وابواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا أكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح علي خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج الي المسعى ويستحب للوافد على مكة ان يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الى الصفا ومنها باب أجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين

مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح على بابين ومنها باب بني شيبة وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال امام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بني شيبة لا اسم له وقيل يسمي باب الرباط نه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمي بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا اليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجمل أبواب الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس مختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح انه منسوب الي ابراهيم الخوزي من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب اجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى اجياد ايضاً مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الي الدقاقين وصوامع المسجد الحرام خمس احداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا والاخرى على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبعقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة الى أن غلبه عن ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الافشهري وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته وعنده يضاد ار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه وبعقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام

مجاورتي بمكة المعظمة وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبدالله الزواوي المغربي وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجراني ودخل يوما الي بيته بعد صلاة العصر فوجده ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شئ سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لي استر على ما رأيت وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودور لها أبواب تفضي الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بمقربة من باب النبي صلى الله عليه وسلم وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما الي دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادي به النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يارسول الله انه ليس بحاضر.

﴿ذكر الصفا والمروة﴾

ومن باب الصفا الذى هو أحد أبواب المسجد الحرام الي الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشر خطوة وله أربع عشرة درجة عاليا هن كأنها مسطبة وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة وللمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقى من الحرم عن يسار الساعي الي المروة والميلان

الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من أبواب الحرم أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والاخرى تقابلها وبين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور والآخر في سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نمي وسنذكره

﴿ذكر الجبانة المباركة﴾

وجبانة مكة خارجة باب المعلى ويعرف ذلك الموضع أيضاً بالحجون واياه عنى الحرث بن مضاض الجرهمي بقوله (طويل)

كان لم يكن بين الحجون الي الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ما عدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين وبتربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذي

بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الي عرفات وطريق الذاهب الي الطائف والي العراق

﴿ذكر بعض المشاهد خارج مكة﴾

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضاً الابطح وهو يلي الجبانة المذكورة وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الي الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالي بيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدي (بضم الكاف) وهي باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه سلم فى حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهى بأسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهى بين جبلين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر ويقال انه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى ويمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحاً عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ٭ ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل الى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوادع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه وأمره أن يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضي الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه فى كل يوم رغبة فى الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشي فيه حافياً وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمي الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين

من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهي بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوي يتصل بالزاهر

﴿ذكر الجبال المطيفة بمكة﴾

فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله وقبالة ركن الحجر الاسود وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال ان قبر آدم عليه السلام به وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر وأجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم يقال انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز وعليها أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب في الهواء عالي القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدء الوحي وهو الذي اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروى أن العشرة كانوا معه وقد روى أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحته أيضاً ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها

الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذي آوي اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضي الله عنه حسبما ورد في الكتاب العزيز وذكر الازرقي في كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الي يا محمد الي الي فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الاثر الي الغار فقالوا ههنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يا رسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الي الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتأتي له ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلي امامه ولا يدخله وأهل تلك البلاد يقولون انه من كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح قال ابن جزي اخبرني بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا معترضاً فمن دخل من ذلك الشق مبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه أن ينطوي الي العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجبذ الي خارج ومن دخل منه مستلقيا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعداً فكان ظهره مستنداً الى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار رجع (حكاية)

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقي التوزري والآخر أبو العباس أحمد الاندلسي الوادي آشي انهما قصدا (الغار) في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا

منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك في أوان اشتداد الحر وحمي القيظ فلما نفذ ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار اخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضي الي جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسي بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتي أفضي به الطريق الي أجياد فدخل الي مكة شرفها الله تعالى وقصدني واعلمني بهذه الحادثة وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه الجبل وكان ذلك في آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادي نخلة وكان اذذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه وكان من أمر عبد الله التوزري انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله واقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتي الليل وجد في نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصد قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الي الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حمارا له وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثاني متغيرا كانه قام من قبر

﴿ ذكر أميري مكة ﴾

وكانت امارة مكة في عهد دخولي اليها الشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الامير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة في هذا العهد وثقبة وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك

ومسعود دار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

﴿ذكر أهل مكة وفضائلهم﴾

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الي الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الي منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ماقسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن أفعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتى الرجل من أهل مكة الى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبي فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر في الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل الي طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتي ان احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

﴿ذكر قاضي مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها﴾

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام العالم محيي الدين الطبري وهو فاضل

كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا و جميع صدقاته وصدقات أمرائه تجري على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام عثمان ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لي انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من بلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببني حيون وهم من كبارها وولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته مستحي كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائبا

﴿حكاية مباركة﴾

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أري الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من يأتي مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذاك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان كان يلبسها في بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته برؤياي فسربها وبكى

وقال لي تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي فانا ألبسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم الدين الطبري فشك في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده أعواما وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها الله عنه وأمراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكي المولد وهو نائب القاضي نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري والناس يهابونه لسطوته

﴿حكاية﴾

كان تقي الدين المصري محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق في بعض السنين ان أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده فقال له تقي الدين ان لم تقطعها بحضرتك والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم من خاصوه فأمر بقطع يده في حضرته فقطعت وحقدها لتقي الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لان له حسبا من الاميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوار المن أعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحب الاقطع وتشكي له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقي الدين وزجره فاستل

خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعي وهو يقول نويت نويت فيصلي مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والاذكار

ذكر المجاورين بمكة

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيأمرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما أنه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرزي المعروف بالصامت كثير الطواف أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام

بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنتهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه الى ان توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح

﴿حكاية في فضله﴾

أتي يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الى مرابطها أصابتها الاوجاع وضربت بأنفسها الارض وبرؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فاتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين المساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة

﴿ حكاية ﴾

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالاً عظيماً قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه بأداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى ابن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكناً ببلاد الهند متزوجاً باخت ملكها وسيذكر أمره فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشلي من ناس الامير غدا ووجه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالاً وتحفاً منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته وهي من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشلي واشتريا سلعاً بما عندهما من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطرى خرج عليهم لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً مات فيه من الفريقين جملة وكان وشلي رامياً فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلي طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفرهم وزادهم فذهبوا الى عدن ومات بها وشلي وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحداً إلا في حين القتال ولا يغرقونه وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند من تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش و (ضبطه بفتح اللام الاولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد فلما توفي وشلي قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس بن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتاباً بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها

ثلاث خلع سوداو ركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الي الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الأمر بيعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسى الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسي وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسى الخلعة الثالثة الامير قبولة الملقب بالملك الكبير وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته ويزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من الملك وبعث له أموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة المفروشة بالقبات والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر وكان

ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعي أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ويبعث لها سواه من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة أبي أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة الف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها الامرائه واتفقوا على أن يكتب الملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة وأشهد على نفسه انه قدمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمهتن بن طوران شاه فأكرم مثواهم وجهز لهم مركباً الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلنكي أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيداً انما جاءكم بالتزوير والخلع التي ساقها انما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بامره ولكني أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضاً صاحب الاخبار فوقع في نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجباً من الدخول عليه وزاد في اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه وكان متى دخل اليه يقوم له وبقي الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظماً مكرماً وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل

خديم الولي الله تعالى نجم الدين الاصبهاني أيام حياته

﴿حكاية﴾ كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقير يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له ياحسن ان أمك تبكي عليك وهي مشتاقة الي رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكني لا قدرة لي على ذلك فقال له نجتمع ههنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالي فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو في أثره الي باب المعلى فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى وأقام عندها نصف شهر وأظن ان بلده مدينة أسفي ثم خرج الي الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدي اني اشتقت الي رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الايام واحب ان تردني اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه به امره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت ياحسن في غيبتك فأبى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل فاتى معه ليلا وأتي الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقي بالحرم موله يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق الذي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتي السوق تطاولوا اليه باعناقهم اليه كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده ما اجر بوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى أحب أن يشرب ولم يزل دأبه كذلك الي سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه الى ديار مصر فانقطع خبره نفعنا الله تعالى به

﴿ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم﴾

فمن عادتهم أن يصلي اول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الامر وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعي صلى بعده امام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الاسود والركن اليماني ثم يصلي امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين ايدي الائمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو

﴿ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة﴾

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة في يده الفرقعة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابس السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان عن جانبي المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة

ثم في الثالث أخرى فاذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبل الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد فاذا فرغ الاذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أثنائها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف ويرضى عن الخلفاء الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الاخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني ابي نمي بن ابي سعد ابن علي بن قتادة وقد دعا للسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

﴿ذكر عادتهم في استهلال الشهور﴾

وعادتهم في ذلك ان يأتي امير مكة في اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعندما يكمل الامير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة اشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل اذا اراد سفرا واذا قدم من سفر ايضا

﴿ذكر عادتهم في شهر رجب﴾

واذا اهل هلال رجب امر امير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم

يخرج في اول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلي وأحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور ابن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويسيرون حتى ينتهون الى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ماذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك

﴿ذكر عمرة رجب﴾

وأهل مكة يحتفلون بعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل امام الهوادج والجبال تجيب بصداها اهلال المهلين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضى شئ من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات في هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من اكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضي الله عنه والاصل في هذه العمرة ان عبدالله بن الزبير

رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبدالله مذكورا أهدى فيه بدنا كثيرة اهدى اشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم واقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغيره فعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش ويذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع الموت في مواشيهم ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات وأهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم

وذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم في عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمان والحكمة يمانية وذكر ان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم عجيب كله وقد جاء في أثر زاحموهم في الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

﴿ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان﴾

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن في كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

﴿ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم﴾

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعة فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفردا والشافعية أكثر الائمة اجتهادا وعادتهم انهم اذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا انها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة كأن ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة أخرى ثم يصلون الشفع والوتر

وينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيأ واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضا على السحور والمؤذنون في سائر الصوامع فاذا تكلم أحدهم أجابه صاحبه وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فأطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشي الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدي قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام في تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

﴿ذكر عادتهم في شوال﴾

وعادتهم في شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد

السرج في الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي باعلى أبي قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه الي أن يأتي أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعاً والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة امامه وهو لابس السواد فيصلي خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الي مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

﴿ذكر احرام الكعبة﴾

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الي نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدي أن تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة

﴿ذكر شعائر الحج واعماله﴾

واذا كان في أول يوم شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبادب في أوقات الصلوات وبكرة وعشية اشعاراً بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الي يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الي منى وامراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في ايقاد الشمع ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائما فاذا كان

اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويهرولون وذلك سنة ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال ولعرفة ثلاثة أسماء وهي عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الاراك وبه أراك أخضر يمتد في الارض امتدادا طويلا واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون

المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الي منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الا وادي محسر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر في ذلك واسع ولما انتهي الناس الي منى بادروا الرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثاني وفى اليوم الثانى رمي الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطي كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

﴿ذكر كسوة الكعبة﴾

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الي البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفي سائر جهاتها طرز مكتوبة بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت اذيالها صونا من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والائمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم

الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري اربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

﴿ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى﴾

وفي الموفي عشرين لذى الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح (بحائين مهملين) وهو من أهل الموصل وكان يلي امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الامير البهلوان المذكور اكترى لي شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلني في جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصى عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزي كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمر

في الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في الندى والفضل
أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين أبي
يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع)
وفي هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الاطعمة والفواكه وهم
يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا
والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا
أربع مراحل ونزلنا وادي السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثنتان في
اليوم احداهما بعد الصبح والاخرى بالعشي ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها
يوما مستريحين ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وأقمنا
بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا في
الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها في الارض فينبطون
ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد
البصر فتنسمنا نسيمه الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم
رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء
يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها
وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في
كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فيحفر عن
الماء في الجفار ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون
وماؤها كثير في آبار الا انه زعاق ويأتي عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون
ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق
وهو في بيداء من الارض وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادي
الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من

الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة
وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى
فاذا عادوا اوجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثنى عشر
يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة
وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا
أميري العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهمالها وياء آخر الحروف) وهما
أبناء الامير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر
منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم
الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالاجفر ويشتهر باسم العاشقين
جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زرود وهي بسيط من الارض
فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك أبار ماء ليست بالعذبة ثم
رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر
ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن
واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو
مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكر ان هذا
المرجوم كان رافضيا سافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السنة من الاتراك
مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب
ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ماؤه
زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذا الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من
كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا اعتناؤها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم
رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس
ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصنع
مملوء بالماء ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر

ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هـذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصـعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنـا موضعا يسمي واقصـة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعـده الي الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضـعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيـه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع محللة بقرون الغزلان ولا عمـارة حولهـا ثم نزلنا موضعا يعرف بالعـذيب وهو واد مخصب عليـه عمـارة وحوله فلاة خصـبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النـار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينـة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذى يزعمون انه قبر علي عليـه السـلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمـارة وحيطانها بالقاشانى وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

﴿ ذكر الروضة والقبور التي بها ﴾

ويدخـل من باب الحضرة الي مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل

وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شئ وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الي مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتبها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها ان في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتي الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم على

شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا في على رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برئ ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به الى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال مالا يضبط لكثرته

﴿ذكر نقيب الاشراف﴾

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب الامراء الكبار في سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحاً واليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب في عهد دخولي اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين ابن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاوس ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهري من عراق العجم وهو الآن بارض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسيني المدني ﴿حكاية﴾

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم أنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاوس فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبي سعيد فامضاه ونفذ له البرليغ وهو الظهير بذلك وبعث له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف في الاموال تصرفا

قبيحا فرفع أمره الي السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر علي بن موسى الرضي بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر علي بن موسي قدم هراة وهي آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه انه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الي السند فلما جاز وادي السند المعروف بنج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا ان التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب في عساكره واستعد للحرب وبعث الطلائع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف في طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فاخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلائع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر انه كان في أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا في السفر وأما في حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره الي ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه ثم خرج الامير الي حضرة الملك وكان الامير كشلي خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسي بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه وقد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الي لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان في موكبه فتقدم الشريف الي السلطان فسلم عليه وسأله

السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره ومضي السلطان حتي لقي الامير كشلي خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الي الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازماً على السفر الى مدينة دولة أباد وتسمي أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المملوة التي بينهما) وتسمي أيضاً بالدويجر (دوكير) وهي على مسيرة أربعين يوماً من مدينة دهلي حضرة الملك فلما شرع في السفر بعث الي الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهي نفقته بالطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتي نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعو بخواجه جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه وبه يدعوه سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمي الملك أحداً باسم مضاف الى الملك من عماد أو ثقة أو قطب أو باسم مضاف الي الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوي ذلك لزمته العقوبة فتأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وأمره أن تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة في الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب في الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم في السراح فاراد الفرار من طريق الساحل فردمنه وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار فأتى بها في بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لحبته في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لاحد من اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره الى أن توفي بعد

عشرين يوما من وصول البدرة اليه وأوصي بذلك المال للشريف حسن الجراني فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء لا يسألون عنه ولو بلغ ما عسي أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من أصحابه حتي يأتي مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكي ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الي ان استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي الشهير ببلاد المغرب بالعراقي وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيراً

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الي بغداد وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الاقطار الا في صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكني النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادي وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتي النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

﴿مدينة واسط﴾

وهي حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدي الخير شاهدهم وتهديه

الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافني وزودني تمراً ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثاً بخارجها للتجارة فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي وهو بقرية تعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني اليها فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة وأركبني فرساً له وخرجت ظهراً فبت تلك الليلة بحوش بني أسد ووصلنا في ظهر اليوم الثاني الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارة قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا احمالاً من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفؤها جميعاً وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه

﴿حكاية﴾

كنت مررت بموضع يقال له أفقانبور من عمالة هزارأمروها وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل في ابان القيظ وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال

فراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم أطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والي تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمار وسيأتي ذكره أن يأتي بالحطب فوجه منه نحو عشرة أحمال فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا وأخذوا في السماع ثم دخلوا في تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قميصاً فأعطيته قميصاً في النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الي بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيأ البتة فطال عجبي منه ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت فلحقتها في الطريق ونزلنا ماء يعرف بالعضيب ثم رحلنا ونزلنا بوادي الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الي مدينة البصرة

﴿ مدينة البصرة ﴾

فنزلنا بها رباط مالك دينار وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسألت عنه فقيل له هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الارجاء المؤنقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والعذب وليس في الدنيا أكثر نخلا منها فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال

منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث الي بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث الي التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكي واهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه الذي ذكرته ثم يسد فلا يأتونه الا في الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهى الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتي بها من وادى السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم)

(حكاية اعتبار)

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين فقال لي ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحانه مغير الاشياء ومقلب الامور هذه البصرة التي الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذى لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دوبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التي تحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعي بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين على رضي الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدى في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد على

أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس هلك فاعله لأنهم رافضة غالية قال ابن جزي قد عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وهي صومعة المسجد الاعظم بها وبناؤها ليس بالقديم وهي كأحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدال وارتفاعا لاميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعي جماعة من الناس فأخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

﴿ ذكر المشاهد المباركة بالبصرة ﴾

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيماً شديداً وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته رضي الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لابناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضي الله عنها والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها قبر أبي بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن بن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضي الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضي الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضي الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضي الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضي الله عنه ومنها قبر حبيب العجمي رضي الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودي عليها يسمى بركن الدين العجمي التوريزي أضافني فأحسن الى

والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ماهو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسقى أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزي وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب اترجة (سريع)

لله اترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذي عبرة
لما كسي الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والباعة في ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التستري فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولي رضي الله عنه والنواتية يجرفون في هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزي عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهي مجدبة لا زرع بها وانما يجلب اليها والماء أيضا بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سريع)

من مبلغ اندلسا انني * حللت عبادان أقصى الثرا
اوحش ما أبصرت لكنني * قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبز فيها يتهادونه * وشربة الماء بها تشتري

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لي أهل هذه الزاوية ان بعبادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهراً ثم لا يرى الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن الا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت طالباً له فجئت مسجداً خرباً فوجدته يصلي فيه فجلست الى جانبه فأوجز في صلاته ولما سلم أخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه وبقيت الاخرى والرجاء قوى في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شأنه وعدنا بالعشي الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها أجمعين وما أكلت قط سمكاً أطيب منها وهجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار علي بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الي عراق العجم ثم الي عراق العرب فعملت بمقتضي اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة

من أكبر الاسواق وأقمت بها يوماً واحـداً ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثاً في صحراء يسكنها الاكراد في بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الي مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عنـد القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجـلا من أهل العلم والدين والورع هندي الاصـل يدعي بهاء الدين ويسمى اسماعيـل وهو من أولاد الشيخ بهـاء الدين أبي زكريا الملتاني وقرأ على مشايخ توريز وغيرها واقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثاً في بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيـق والسمن وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينـة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضيرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والي هـذه المدينة ينسب سهل بن عبـد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولهـا باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم البـاب ولها ابواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزي وفى هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذروان تستر واعتجب * من جمعـه ماء لري بلاده
كمليك قـوم جمعت امواله * فغـدا يفرقه على اجنـاده

وفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصـدها اهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لهـا النذور ولهـا زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن

الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبدالله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور واحدهم موكل بأوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر اعجب من ترتيبه ولا ارغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة واقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتي الفقراء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد ان قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكون ووقار وتصرف فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الي الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

(حكاية)

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها في زمان الحر كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمى أصحابي أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيي الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لي يدعي بهاء الدين الختني فمات بعد سفري وكنت حين

مرضي لا أشتهي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتي به الي فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الي وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام في السوق وهلا أمرت الخدام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم احضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به واطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيرا ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا في جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة ايذج (وضبط اسمها) بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم وتسمى أيضا مال الأمير وهي حضرة السلطان أتابك وعند وصولي اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرماني وله النظر في جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا فأكرمني واضافني وأنزلني بزاوية تعرف باسم الدينوري وأقمت بها أياما وكان وصولي في أيام القيظ وكنا نصلي صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل الي الزاوية ضحوة وكان في صحبتي اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

﴿ ذكر ملك إيذج وتستر ﴾

وملك ايذج في عهد دخولي اليها السلطان اتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولي يوسف بعد أبيه أتابك أحمد وكان أحمد المذكور ملكا صالحا سمعت من الثقاة ببلاده انه عمر اربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة ايذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده اثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثالث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق في كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان أكثرها في جبال شامخة وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث

تصمدها الدواب بأحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فان عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان أتابك أحمد زاهدا صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر

﴿حكاية﴾

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم امراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كانهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الي جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركية أنت أبي وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير ان لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي أخوه أفراسياب ولما دخلت مدينة ايذج أردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتأت لي ذلك بسبب انه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه فرض في تلك الايام ولما كان في احدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته وذهب عني ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرهج الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقدمات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية

وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب في جملتهم فأبيت عن ذلك فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئاً رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التراليس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوندكارما ومعناه مولاي أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله

﴿حكاية﴾

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعد ذلك يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا للجلوس فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوه وعجبوا مني وأنا لا علم عندي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد علي السلام وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان انحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور

الدين الكرماني الذي ذكرناه قبل فقصد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جيء بالجنازة وهي بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملؤا أغصانها بثمارها والاشجار بأيدي الرجال فكان الجنازة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهبت الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الي السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا يدعوني اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة الي ان انتهينا الي موضع لا فرش به لاجل ماهم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألني عن حالي وبلادي وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فأجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لي السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لى ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربي وكان يحسنه تكلم فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك مايقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت الي الآنيتين فخجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فأمرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع أمثالك رحمة ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هناك فأتى الي به فأخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضعه على رأسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له

غيرك والله اني لأرجو أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلي من حضرة ايذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما وبعث الي السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لاصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ماهو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما يحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريوا الرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كأنه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وامامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الاغاني المطربة فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخاري وخوارزم وقشره أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة

بالجرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخرى فطبخوا اطعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته

(كرامة لهذا الشيخ)

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فأعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فأتوا به فكساني اياه فأهويت الى قدميه اقبلهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فألبسني اياها في الرابع عشر لجمادي الاخيرة سنة سبع وعشرين

وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ولبس على من الامام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردى ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ اخي فرج الزنجاني ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينوري ولبس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ولبس علي من أبي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سرى القسطي ولبس سرى القسطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن ابن أبي الحسن البصري ولبس الحسن بن ابي الحسن البصري من أمير المؤمنين على بن ابي طالب قال ابن جزي هكذا اورد الشيخ ابو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطي صحب معروفا الكرخي وصحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي وأخو فرج الزنجاني انما المعروف انه صحب ابا العباس النهاوندي وصحب النهاوندي ابا عبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف ابا محمد رويما وصحب رويم ابا القاسم الجنيد واما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذى صحب الشيخ احمد الدينوري الاسود وليس بينهما أحد والله أعلم والذى صحب اخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا الي بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاث وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه ورأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي وله مال عريض قد اعانه الله على انفاقه فى سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوما وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ثم سرنا منها الى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف

واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم والف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافر عليه باب حديد وهو في النهاية من الحسن والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان ابي اسحق ملك شيراز وفي يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصي ولا نظير له في طيبه ووزن الجبنة منه من اوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاتراك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بياءين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المؤنقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن متلحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن

الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل ابن محمد بن خداداد ومعني خداداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الي صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين أبنا أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الي مصلاه فأرسل يدي وأومأ الي أن أصلي الي جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا وتقدم كبار المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكاً اذن نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الي القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدبا

﴿ حكاية في السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة ﴾

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان علياً ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذي بيده انما هو ارث

عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثني عشر ألفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا اله انه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلوا رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم على ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فاخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أوتى به منهم القاضى مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك فى موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل القاضى أمر أن يرمي به الى الكلاب التى عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لأكل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت اذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين فأكب على رجلى القاضى يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه واعقابه يتوارثونه مادامت تلك الثياب أو شيء منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء

للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما واعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله اربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد ينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تقرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الي فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت ان أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية واربعين ولاحت علي أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله

﴿ذكر سلطان شيراز﴾

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم وبطانته الادنون اليه اهل أصفهان وهو

لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الي الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسألت عن شأنه فأخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان أبوه محمدشاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الي اهلها فلما توفي ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان أمير الامراء وسيأتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل اي شيراز وملكها وضبط مجابيها وهي من أعظم بلاد الله مجبي ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والى المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها الامير حسين مدة ثم اراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحق بن محمدشاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون واراد حملهم الي العراق ليطلبوا باموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان تري في تلك الحال فان عادة نساء الاتراك أن لا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمى پهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيراً من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الي شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الي الامير حسين فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في اجمل ترتيب وزينوا البلد واوقدوا الشمع

الكثير ودخل الامير حسين في ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل امير على ما بيده خافهم الامير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان ابو اسحق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهي مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبي اسحق ليلا ويقتل ما شاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الي قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الي قلعته فامر السلطان ان تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته في مائة من أصحابه فضرب على العسكر واحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الي قلعته ولم يصب من أصحابه الا واحد أتى به الى السلطان أبي اسحق فخلع عليه واطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فأبى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحق لما رأى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر انى عاهدت الله أن لا أنزل اليك حتي تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الي المحلة راكبا فأجلسه السلطان الي جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبي اسحق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الي بلاده وكان السلطان أبو اسحق طمح ذات مرة الي بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه

فأخذوا في ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فاتهوا في المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا نحو ذلك في برادع الدواب وأخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم في منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والي المدينة يقول ان معظم جباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكي التوريزي وهو من الكبار كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبي سعيد المسمي على شاه جيلان ولهذا الامير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودي عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد في شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثرى واعظم ما تعرفناه من عطيات أبي اسحق انه أعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطي اضعاف ذلك لمن لا يحصي كثرة من أهل خراسان وغيرهم ﴿حكاية﴾ ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروي الدار من سكان خوارزم يسمي بالامير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره في ندمائه لما كان ذات يوم قال له ادخل الي الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب فذهب الي داره فأتي بثلاث عشرة خريطة وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمن دهلي والمن الواحد منها خمسة وعشرون

وطلا مصرية فأمر ان يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به ﴿حكاية تناسبها﴾
اشتكي مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراساني وهو الذي تقدم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك وأمر المريض ان يقعد في احدى كفتي الميزان فقال ياخوند عالم لو علمت انك تفعل هذا للبست علي ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد في كفة الميزان ووضع الذهب في الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه ﴿حكاية تناسبها﴾ وفد عليه الفقيه عبد العزيز الاردويلي وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة في ذلك المعني فأعجبه حفظه وحلف له برأسه انه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية ذهب وهي مثل الطيفور الصغير وأمر أن يلقى فيها ألف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هي لك مع الصينية ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايني وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا وسنذكر كثيرا من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا لما قدمناه من ان السلطان أبا اسحق يريد التشبه به في العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء

﴿ذكر بعض المشاهد بشيراز﴾

فمنها مشهد أحمد بن موسي أخي علي الرضا بن موسي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي اسحق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة

الخاتون انها تأتي الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسيني فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف وقرء القراء بالاصوات الحسنة وأتي بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشي والخاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبي عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائرا واستلمه وتأتي الخاتون الى هذا المسجد في كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم في مشهد أحمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعا وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الاولياء شهير الذكر وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند (كرامة لهذا الشيخ) يحكى انه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فاصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار وهي في ذلك المحل كثيرة جدا ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له واخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتي به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا امره فلما قرب منهم امسكه الفيل بخرطومه ووضعه على ظهره الى الارض بحيث يرونه فجاؤا اليه وتمسحوا به

وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما وذالك الموضع على خور يسمي خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص في تلك الايام بحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا وقال للملك اختر مافي احداهما فاختار مافي اليمني فرمي اليه بما فيها وكانت ثلاثة احجار من الياقوت لا مثل لها وهى عند ملوكهم في التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا انهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون في بيوتهم بين اهليهم واولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر الي ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون باوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير وان أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه واطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم * ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان البقلي من كبار الاولياء وقبره في مسجد جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي قال أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي قال اخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور ابن علان العرضي قال أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي عن ابي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الامام ابي عبد الله الشافعي وسمعت أيضاً عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام رضي الدين ابي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام الدين محمود ابن محمد بن عمر الهروي عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب

وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هنالك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان وليس في معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكر لي انهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

﴿حكاية﴾

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألني عن مقدمي فأخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد فأخبرني انه هو الذي عمره ووقف عليه اوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضي الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطي عليه ألواح خشب وأراني صندوقا كان بازائه فقال في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودراهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف علي وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنيتان على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء

الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا أول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون

﴿ كرامة لبعضهم ﴾

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل اثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه فدخل علي في أثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرفعت رأسي اليه فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له فلم يعد الي فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحق نفع الله به وبتنا تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحق فتقضى حاجته باذن الله وهذا الشيخ ابو اسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب واخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون

بالقالب في صبغ حمر ويلصقونه بالامر فيبقى اثر الطابع فيه ويكون مضمنه انه من عنده نذر للشيخ أبي اسحق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما على ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند للشيخ أبي اسحق بعشرة آلاف دينار فوصل خبرها الى فقراء الزاوية فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها قاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج بأخت هذا الملك وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزا بالزاي وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائي شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لاماء بها الا في موضع واحد يسمي الطرفاوي ووردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

﴿ مدينة الكوفة ﴾

وهي أحد أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولي عليها بسبب ايدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة

لطول وبهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهنالك ضربه الشقي بن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر انه موضع فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون انه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون انه متعبد ادريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا انه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض فاخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم وان أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت انها على قبر المختار بن أبي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان

احداهما تعرف بالاكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا وبمقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم انه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الي أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الي مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنتهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد

﴿ مدينة بغداد ﴾

مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء قال أبو الحسين بن جبير رضي الله عنه وهذه المدينة العتيقة

وان لم تزل حضرة الخلافة العباسيه ومثابة الدعوة لامامية القرشيه فقد ذهب رسمها ولم يبق الا اسمها وهي بالاضافة الي ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظمأ وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ قال ابن جزي وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسنا في نواحيها
ترجي لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا وفيها قال الامام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي وأنشدنيه والدي رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضاً رحمه الله تعالي ورضي عنه (طويل)

سلام على بغداد في كل موطن * وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلي لها * واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه * واخلاقه تنأي به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشدنيه والدي رحمه الله غير ما مرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق

ظللت امشي مضاعا في أزقتها * كأنني مصحف في بيت زنديق

وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدراً منيراً * فطوت غيا وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا * د فكادت لولا البرى ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد في ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر في احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما * خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فأي محاسن * في الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جداً وكذلك المدارس الا أنها خربت وحمامات بغداد كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير في حوانيها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الي بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلي بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى

ثلاثا من الفوط أحدها يتزر بها عند دخوله والاخرى يتزر بها عند خروجه والاخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها في ذلك

﴿ ذكر الجانب الغربي من بغداد ﴾

الجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه وهو في محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم ابن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

﴿ ذكر الجانب الشرقي منها ﴾

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور

الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين اباحفص عمر بن على بن عمر القزوينى وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن على بن على بن أبي البدر قالت اخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطيب المارستاني قال اخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السنجرى الصوفي قال اخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن المظفر الداودي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن احمد بن حموية السرخسى عن ابي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى عن ابي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

﴿ ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها ﴾

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدي وقبر الهادى وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفى وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقي وقبر المستكفى وقبر المطيع وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجد وقبر المستضىء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام أبي حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه ولا قبة عليه ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا

فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره ههنا

﴿ ذكر سلطان العراقين وخراسان ﴾

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خدابنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خدابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبدالله لان خدا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناها وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشتان ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخدابنده هو الذي اسلم وقد مناقصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة

لانبات بعارضيه ووزيره اذذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خدابنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الي أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ماهما عليه فاستفهم ما عني مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهي أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغي خاتون وقد بعث الي وقال لي الليلة أبيت عندك وما الرأى الا أن تجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الي القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة معترضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك ابا سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده أمير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خدابنده ومعه عساكر التتر

وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه أياد سابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيروزشاه بعد أن لجأ اليه وقتله فأبى الجوبان الا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الامان ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الى ديار مصر فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الاسكندرية فأبى من قبولها وقال انما أريد العساكر لاقاتل أبا سعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جئ به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من أجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه وللنساء لدى الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا امرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيامه ثم انه تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في

منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتي الرومي خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشادا امرأة السلطان أبي سعيد كمثل ماكان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته

﴿ ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابى سعيد ﴾

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفاً تغلب على عراق العرب جميعاً ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمر طاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والري وورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خرسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خرسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه بن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب أتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ولنعد الي ما كنا بسبيله ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبى سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتى كل أمير من الامراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إما في الميمنة أو الميسرة فاذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الي موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو

مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل أمير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتي به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا او وضيعا لا يحاشون من ذلك أحدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ثم أطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم أثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ثم أمير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام ثم صحبت الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد عشرة أيام الى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الامير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة وفي غد

ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بايدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر الياسمين ومن عادتهم أنهم يقرؤون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر في صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد الى الامير علاء الدين بأن يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكاني وادخلني عليه فسألني عن بلادي وكساني واركبني واعلمه الامير اني أريد السفر الى الحجاز الشريف فامر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل وكتب لي بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لي به السلطان وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لي ان أسافر الى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد في حين سفر الركب فأتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبني على الدجلة وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهي معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها

ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة الاسواق كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون ركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعا وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل

﴿ مدينة الموصل ﴾

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أر في أسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها

الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعوا فكشف الله عنهم العذاب وبقربه منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذه الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى علي الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه في هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس ارجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق

مبنى بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضا وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال ابن جزي والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء

لنصيبين قد عجبت وما في * دارها لي داع الى العلات
يعدم الورد أحمرا في ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور بالبركة يذكران الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويخترقه وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم ممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه انه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعالي وزودني بدراهم لم تزل عندي الى أن سلبني كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها

قلعة مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزي قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عنى شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي بقوله في سمطه (مسردع)

قدع ربوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضا وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة وادرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون

﴿ ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي اليها ﴾

وهو الملك الصالح بن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر اكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الاندلسي المروي الكفيف مادحا فاعطاه عشرين ألف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاري قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه ﴿ حكاية ﴾

ذكر لي ان امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين مجلس القاضي فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بينتا في القسم وقد دعوته الى القاضي فأبى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندي شيء أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيأ ثم قال لها اذهبي الى القرية وانتظريني خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذي معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف ولقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت في جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لي به السلطان فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لي بذلك ووجه عن أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويح فأوصاه بي وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم أزل في جواره وهو يحسن الى ويزيدني على ما أمر لي به وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم والامير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا

والمروة راكباً على فرس الامير الجويج المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيما بالعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الاصيل وابن الخليلي وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفوني وهي أول حجة حجها والاخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر وجماعة غيرهم في منتصف ذي القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسي وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن تافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامة ومن أهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو اسحق ابراهيم بن يحيي وولده ووصل في تلك السنة الامير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج أبو سحق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل أحمد ابن الامير رميثة ومبارك ابن الامير عطيفة من العراق صحبة الامير محمد بن الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين

وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا يعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ولما انقضى الحج اقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين ايدمور أمير جندار الناصري وسبب ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فشكوا الى ايدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة ائت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتي بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه ايدمور وقال له يا قواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب ايدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمي الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب من بالركب من الاتراك واميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضي والائمة والمجاورين وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الي مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الي وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة أحد اولاده يطلب له الامان ولولده فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده الي الامير فخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الي مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا ثم خرجت في تلك الايام من مكة شرفها الله تعالي قاصداً بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصف الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال أنها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل

بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت

﴿حكاية﴾

ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم علي وسماني باسمي واخذ بيدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم أمسك اصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي فلما سألني عنه هذا الاعمى قلت له اعطيته الفقير فقال ارجع في طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار وطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الابنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيرا ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلاب وهم متأهبون للسفر

﴿حكاية﴾

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن يأخذهما من جلاب أهل اليمن فأخذهما وأتى بهما اليه فأتاني التجار باكين وذكروا الي ان في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني أن أكلمه في ردها وان يأخذ سواها فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له ان للتجار في جوف هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرا فلا أردها اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ما ردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة

وكان قد دخل في تلك الايام دار تاجر من أهل دمشق فى قصد اليمن فذهب بمعظم ما كان
فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صلحت حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا
فى هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي
قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في أهوال حتى
خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله
عريش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه
وطبخنا ورأيت بذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس
يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منه قدر
الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا وقصدتنا طائفة من
البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم ملاحف صفر ويشدون على
رؤسهم عصائب حمرا في عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح
والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا
معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه وبعد
يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين
بلسانهم وفى ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء
بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر
وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير
والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبار الحب
يجلب منها أيضاً الى مكة

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي اليها الشريف زيد بن أبي نمى وابوه أمير مكة
وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذين تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة
فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة
سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون

فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبوله الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم ار بها حين لقائي له شيئا الا ابريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وصعتر فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب اخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في اول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى ان تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقي عمري فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

﴿ ذكر سلطان حلى ﴾

وسلطانها عامر بن ذويب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقمت في ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم طائفة

من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يماثلهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم الى مرسى الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهي برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولأهلها اللطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهي وادي الحصيب الذي يذكر في بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته يا معاذ اذا جئت وادي الحصيب فهرول ولاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهن مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الى أن يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا ولو أعطيت احداهن ما عسى ان تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس الابياني والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي ونزلت في جوارهم فاكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم

واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

كرامة

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسئلة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوه وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج اليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسمعيل فأضافني وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت في صحبته الى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

﴿ذكر سلطان اليمن﴾

وهو السلطان مجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود بن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده يسمى برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الي اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي الى قاضي القضاة الامام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه مجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه أن يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل مافعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد أبي سعيد رضي الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامي وانزالي وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم أصحاب القسي وبين يديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدى أحد موضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود يقول السلطان للامير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هنالك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الاجناد ومجلس كل انسان للطعام معين

لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الي وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الي منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فربما منعه العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتي يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهات

﴿حكاية﴾

ذكر لي أن بعضهم بعث غلاما له ليشتري له كبشا وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا فاتفق انه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانتهي ثمنه الى أربع مائة دينار فأخذه أحدهما وقال ان رأس مالي أربعمائة دينار فان أعطاني مولاي ثمنه فحسن والا دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الي سيده

خائباً فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأري فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار له غلمان وخدام أكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم ابن عبد الله الهندي وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت في ضيافته أياما وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت الي مدينة زيلع وهي مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة الا انها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التي يحرونها في الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الي المرسي تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطي فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الي دار نزيله من هؤلاء الشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة أهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه بخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان الي المركب الذي كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابي ليس هذا بتاجر وانما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها

أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث الى أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه وقال لي باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لي ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبوا

﴿ذكر سلطان مقدشو﴾

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر وهو في الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده انه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده انزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضي كذلك وأعطى لأصحابي وطلبة القاضي ما بقي في الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضي وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضي بيدي وجئنا الى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنبا وهي مثل

التفاح ولكن لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل وهم اذا أكلوا القمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لاصحابي بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشياً وهو بالقرب من المسجد ومشي الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والابواق والانفار وأمراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والامراء ووجوه الاجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم ضربت الاطبال والانفار والابواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشياً وقف فلم يتحرك الى خلف ولا

الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا اضيافا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الامراء ثم وجوه الاجناد طائفة بعد طائفة اخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتي بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان اراد تشريف أحد من كبار امرائه بعث اليه فأكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر واربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس واهل الشكايات فما كان متعلقاً بالاحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والامراء وما كان مفتقراً الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائماً ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجهاً الى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها بميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والاترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولها نوى كنواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح

ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والاثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه يتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنادة وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفي من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفي يؤتي بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

﴿ ذكر سلطان كلوا ﴾

وكان سلطانها في عهد دخولي اليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضا أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي ولقيت بمقدشو اتيل بن كيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

﴿ حكاية من مكارمه ﴾

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين

فقال له يا أبا المواهب فقال لبيك يا فقير ما حاجتك قال اعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولي أخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذي كان يعطي ولم يترك من بعده ما يعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل وقد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهي من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها في صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت

والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكراني وهو كاتب المركب ويؤتي اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الي دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط في أوساطهم عوض السراويل وأكثرهم يشد فوطة في وسطه ويجعل فوق ظهره أخري من شدة الحر ويغتسلون مرات في اليوم وهي كثيرة المساجد ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوائدهم الحسنة التصافح في المسجد اثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الاول الي القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الاعاد عليه مكره وحيل بينه وبينها وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة في البر والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر لي ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤنهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى بن علي كبير

القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والاخري زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء في بلد سواها واكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوي القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير وبقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا ذكر لي ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفي الايام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ولا يكل ذلك الي غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها الى أن يعطوا ارزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف هي منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادي السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود بن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا

ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه تشبهها بالهند وقربها منها اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

﴿ ذكر التنبول ﴾

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالي العنب أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيماً شديداً واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لا سيما ان كان أميراً أو كبيراً واعطاؤه عندهم أعظم شأناً وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من نورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته أنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلاً فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد ذكر لي ان جواري السلطان والامراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

﴿ ذكر النارجيل ﴾

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منه حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك

ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدواً وعشياً اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة وصعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر ويجر من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى

لا يبقى فى داخل الجوزة شئ ثم يعرس ذلك الجريش بالماء فيصير كاللبن الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

﴿ ذكر سلطان ظفار ﴾

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ماذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحداً من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه فى المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا الشكاية ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس

المصيري من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا الى جبل لمان (بفتح اللام) وهو في وسط البحر وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

﴿ ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل ﴾

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلي الى العشاء الآخرة ثم أذن وصلينا معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم اني أردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب على الخوف ورجعت الى أصحابي فانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق الا أنها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لي ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل فكان لا يقربني حتى أدعو به وكان

طعامي في تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكا يسمي بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمي عندنا تازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ويأكلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

﴿ كرامة ﴾

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمي بخضر ويدعي بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قالت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل اري الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى أن فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر وأكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه وهي على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الي داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل فخيل لنا انها قريبة وكان وصولنا الى المرسي وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب فسألت عن طريقها فأخبرت أني أصل اليها عند العصر

فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم وأخذت أثوابا كانت لي فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها وحملت في يدي رمحا فاذا ذلك الدليل يحب أن يستولي على أثوابي فأتي بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطي وكنت أهز الرمح فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الي صحراء لاماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشي فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشي أراد الدليل أن يميل بنا الي ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب فقلت له انما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح فخفت ان يتعرض لنا أحد في طريقنا ولم أحقق مقدار ما نمشي اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك فخفت أن يكونوا لصوصا وقلت التستر أولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركني الجهد لكني أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي وأمسكت الرمح بيدي ورقد صاحبي ورقد الدليل وبقيت ساهرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته اني مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبي الثياب وكان بيننا وبين المدينة جبهاو خنادق فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط

اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن في جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معي الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسألني عن حالي وأنزلني وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهي حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله في إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي اليهم في البحر الهندي واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع انهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشي لا تفعل كذا لا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروار الجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضا التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن وواو مفتوح) مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة أهلها انهم يأكلون في صحون المساجد يأتي كل انسان

بها عنده ويجتمعون الاكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبداً وهم أباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهراً اربعاً فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاماً شبه الخطبة يرضي فيه عن أبي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي وهم اذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنوا عنه بالرجل فقالوا ذكر عن الرجل أو قال الرجل ويترضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك

﴿ ذكر سلطان عمان ﴾

وسلطانها عربي من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة كل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحداً من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسي ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكي لم أدخلها وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

﴿ حكاية ﴾

كنت يوماً عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردي الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ما شئت فذكر لي لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها في جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر

وتسمى أيضا موغستان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكنى السلطان والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهي لوت بادشاهي معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك والماء في هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يوسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من احداها ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الاقصرائي وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني وكساني ثوبا وأعطاني كر الصحبة وهو يحتبي به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهم السلام يذكر انهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت لنفسه مغارة فيها زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج المغارة يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل رضي الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين المعلوتين

و بينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابني اخيه نظام الدين فكان في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتى الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له اني أريد السلام على الملك فقال باسم الله وأخذ بيدي فذهب بي الى داره وهي على ساحل البحر والاجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن اخته وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فاشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فاخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ثم قام فودعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه انه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة الا أن راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتى هو الى الجزيرة فدخلها وفر ابنا

أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لي أن الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفي هذه الصحرا وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك ﴿حكاية﴾ كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهرا وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء روايا فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذي قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة

انصرف من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

﴿ ذكر سلطان لار ﴾

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركماني الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الرد وسألني عن مقدمي وبلادي وأنزلني وكان يبعث الي الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجيب وأمر غريب فان نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر في تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس انه ينفق من الكون وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشأن في الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت ان بمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت اليها بالعشي وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان نحاف الجسوم كثير والبكاء غزير والدموع وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا الى ولدي محمدا وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما انهكته

العبادة فسلم وقعد فقال له أبو دياني شارك هؤلاء الواردين في الأكل تتل من بركاتهم وكان صائما فأفطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشراف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر

﴿ ذكر مغاص الجوهر ﴾

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيأ يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا أشكالا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدي فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة

الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمي أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمي الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا الي مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كأنه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحيعلتين حي على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلي خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الي مدينة هجر وتسمي الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصي ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمي أيضاً بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها في صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك في سنة اثنتين وثلاثين فوصلت الي مكة شرفها الله تعالى وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر انه ولده وقتل أيضاً كبير أمرائه بكتمور الساقي

﴿حكاية﴾

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية فلما أراد الدنو منها قالت له اني حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا اسماه بأمير أحمد ونشأ في حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان في هذه الحجة تمالأ على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمي الخبر الى الملك الناصر فبعث الي أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر

بالرحيل في تلك الساعة ليشتغل لوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فأكثرت بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم تناوله اياه وقال له بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال فتحقق مانسب اليه من التمسك بالملك الناصر واما انقضى الحج توجهت الي جدة برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك ولا تأتي لي رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر الي القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لأنظر حاله ثم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد فخرج صاحبه وبعض التجار في العشاري بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح الى مرسي يعرف برأس دوائر وسافرنا منه في البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمني باللسان العربي وأخبرني ان البجاة أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لاصحابي ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دوائر وصلنا الي عيذاب وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الحنيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا في جواره ثم وصلنا الي قرية العطواني وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل الي مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الأقصر وزرنا الشيخ أبا

الحجاج الاقصرى ثانية ثم الى مدينــة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبــد الرحيم القناوي ثانية ثم الى مدينــة هو ثم الي مدينة اخيم ثم الى مدينة أسـيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الي مدينة الاشمونين ثم الي مدينة منية ابن الخصيب ثم الي مدينة البهنسة ثم الي مدينة بوش ثم الي مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التوزري ولم يزل في صحبتي سنين الى ان خرجنا من بلاد الهنــد فتوفي بسندابور وسـنذكر ذلك فوصلنا الى مدينــة غزة ثم الي مدينة الخليل عليــه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الي بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الي مدينة عكا ثم الي مدينة طرابلس ثم الي مدينة جبـلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ثم الى مدينــة اللاذقية وقد تقدم لنــا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقيــة ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها مرتلمين وقصــدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانمــا نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم في القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانيــة ثم استفتحها المسلمون وبهــا الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولا وفي العاشر وصلنا الي مدينــة العلايا وهي أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجمــل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال فى البركة في الشام والشفقة فى الروم وانما عنى به أهل هــذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهــم بتلك البلادان يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار فى يوم خــبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنــا ان النساء بعــثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هــذه البلاد على مذهب الامام أبى حنيفة رضي الله عنــه مقيمين على السـنة

لاقدري فيهم ولا رافضي ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل الي اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة باعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجاني وصعد معي الي القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافني وأكرمني وأضافني أيضا بها شمس الدين بن الرجيحاني الذى توفي أبوه علاء الدين بمالي من بلاد السودان

﴿ ذكر سلطان العلايا ﴾

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألني عن مقدمي فاخبرته عما سأل وانصرفت عنه وبعث الي احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي انطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهي من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والضخامة أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود في موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة

وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمي عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل الي ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفى المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم

﴿ ذكر الاخية الفتيان ﴾

واحد الاخية أخى على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الي اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضاً ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الاخى ولم أر فى الدنيا أجمل افعالا منهم ويشبههم في افعالهم أهل شيراز وأصفهان الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراماً له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتي أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى وتكلم معه باللسان التركى ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ أتعلم مايقول هذا الرجل فقلت لا أعلم

ماقال فقال لي انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضيفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قدقدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمى عندهم الجراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين فاذا استقربهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواها حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقربنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

﴿ ذكر سلطان انطالية ﴾

وسلطانها خضر بك ابن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلمنا بألطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب فصنعوا لنا

ضيافة في بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا واقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار لها قلعة في جبل شامخ وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة أكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مدود دال مهمل مضموم وواو مدود راء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الى أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان أكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا أحسن قيام

﴿ذكر سلطان أكريدور﴾

وسلطانها أبو اسحق بك ابن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره واظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه وأجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ثم يؤتى بالطعام فيكون أول ما يفطر عليه ثريد في صحفة صغيرة عليه العدس مسقي بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان

وتوفي بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشياً على رجلي فبعث لي بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الي بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارساً واحداً والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية بها

﴿ ذكر سلطان قل حصار ﴾

وسلطانها محمد جلبي وجلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي اسحق ملك أكريدور ولما وصلنا مدينته كان غائباً عنها فأقمنا بها أياما ثم قدم فأكرمنا واركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضاً دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها وأكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء

الروم لمن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لى أن القاضي بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ونازعهم في ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون فخفنا منهم وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون أصحاب الفتي أخي طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك فأتى الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتي بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الي الزاوية فألفينا الاخي طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الي زاويتهم ففعلوا لنا في الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الي الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

﴿ ذكر سلطان لاذق ﴾

وهو السلطان ينتج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نون ين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخي سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطموني واستصحب معه خيلا بعددنا وذلك في شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا في بستان خارج المدينة وذلك في إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان في عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكر ان صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الى بابه فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضه في زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء

لفضلاء يكثر الدخول عليه بزاويته ولا يدخل الا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فأكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال واقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمي بابي الششترى ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعى لنا وحصلت لنا بركته

﴿ذكر سلطان ميلاس﴾

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام لقائي له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة اياسلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسألني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره فأثنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتي أخي على ثم انصرفنا بعدما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمي بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضاً الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جداً وأسواقها

بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الاوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاد وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله واجمل وبعث ولده عوضا منه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

﴿حكاية﴾

يذكر انه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطوعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلواني ولم يطعم أحدا سوى الشيخ فخرج الشيخ في اتباعه وترك التدريس فابطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقرا ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوي وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم في ليالي الجمعات وفي هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذي يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا الى مدينة اللارندة وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

﴿ذكر سلطان اللارندة﴾

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتي فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل علي ومن عادة ملوك هذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألني عن حالي وعن مقدمي ودخلت معه المدينة فأمر بانزالي أحسن نزل وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكسا وأركب وأحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الامير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا كرامة تامة وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتي أخي جاروق وهو الامير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهي احدى

المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدى خواتين الامير علاء الدين ارتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغى خاتون وقصدنا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وأمرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخى أمير على وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون في كرامة الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخى هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره ويزودون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الي لقائنا أصحاب الفتى أخى أحمد بجقجي وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيم منه معقود دال بينهما قاف وياؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخى جلبي وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخي بجقجى فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لي ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة في أحسن ضيافة ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا

الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألني عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركمان وكان مراده أن أشكر الكريم منهم واذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فأكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد ان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة اماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها لصاحب العراق وبقرب منها بلد سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو ونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضاً وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيي أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الي مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثاً في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا الى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني

والبساسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي حسام الدين وهي
من أحسن الزوايا وهو أيضاً من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا الى
مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت
بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار
والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة
وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئاً على عصا ثابت الذهن مواظباً للصلاة في
أوقاتها لم ينكر من نفسه شيئاً الا انه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا
أولاده في الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان
فعلتم نقصتم حرمتي وانما أقل الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثاً ثم انصرفنا الى مدينة بركي
(وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا
اليها بعد العصر فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية الاخي بها فقال أنا أدلكم عليها
فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه في بستان له فأنزلنا بأعلى سطح بيته والأشجار مظللة
وذلك أوان الحر الشديد وأتى الينا بأنواع الطعام وأحسن في ضيافته وعاف دوابنا
وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرساً فاضلا يسمى بمحيي الدين فأتى
بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرس قد أقبل راكباً
على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان
مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا وأحسن السلام والكلام وأمسك بيدي وأجلسني
الى جانبه ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي ومعنى فرشتي الملك لقب بذلك لدينه وعفافه
وفضله فقعد عن يمين المدرس وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية ثم لما فرغ من
ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها وأنزلني فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد
المغرب فمضينا اليه فوجدناه في مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من
حوض رخام أبيض يدور به القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف

عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة خلته لما شاهدته ملكا من
الملوك فقام الي واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني الى جانبه على مرتبته وأتي بالطعام فأكلنا
وانصرفنا الى المدرسة وذكر لي بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند
المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الي السلطان بخبرنا وأثنى في
كتابه والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته ان
يصيف فيه

﴿ ذكر سلطان بركي ﴾

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس
يعلمه بخبري وجه نائبه الي لآتيه فأشار على المدرس ان أقيم حتي يبعث عني ثانية وكان
المدرس اذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة
ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال انا لا أستطيع الركوب ومن
غرضي التوجه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا
وركب ولم يضع رجله في الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل في طريق قد
نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال
شجر الجوز وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الي
صهره السلطان أرخان بك فلما بلغه خبرنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما
على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث
الي بيت يسمي عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل
عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متي احتيج الى سده
وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت
ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما
كان من الغد ركب المدرس الي السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ثم عاد الي

عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه فسألني عن حالي ومقدمي وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن في كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث الينا في كل يوم فتحضر طعامه وأتي يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فأمره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار ولا خضر فأمر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت اقامتنا بذلك الجبل فادركني الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضاً قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ماقال قال ان السلطان بعث الي ليسألني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يأمر ان تقيما هنا اليوم وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ماهذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج الماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة بالحلل

الفقيه عن يمينه والقاضي عما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقعد القراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاؤا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت في ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره

﴿حكاية﴾

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له القاضي والفقيه وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لي هذا يهودي طبيب وكلنا محتاج إليه فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فأخذني ما حدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودي يا ملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي وشتمته ورفعت صوتي فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي فأخبره الفقيه به وغضب اليهودي وخرج عن المجلس في أسوأ حال ولما انصرفنا قال لي الفقيه أحسنت بارك الله فيك إن أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

﴿حكاية أخرى﴾

وسألني السلطان في هذا المجلس فقال لي هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لي إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوا عليه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيأ فعجبت من أمره وأمر برده إلى حيث كان وفي ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان صنع أمينا عامة الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ

الحلواء والشمع في كل ليلة ثم بعث الي مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم كل هذا بإشارة المدرس محيي الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعناه وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخي محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فأضافنا ودعا لنا وسرنا الي مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما افتتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وانا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الي الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الي مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الامير الاخبية وصنع

لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفاً وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الى بالزاوية فسلم على واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤم به ان الامير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضاً للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقدسي والكمخا وجواري وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى فيسبي ويغنم ويفنى ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم الى البابا فأمر نصارى جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا في عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصاري بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مدوسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مفتوحة وتاء) نزلنا بها عشي يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهي مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

﴿ذكر سلطان مغنيسية﴾

ولما وصلنا الي هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل في تابوت خشب مغشى بالقصدير وعلق في قبة لاسقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ يسقف عليها ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره من الملوك فعلوا وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية

فأخذ الغلام الذي كان لي افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشي لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معي الي السلطان وأعلمناه بذلك فبعث في طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس في عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمي فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار في بلد حصين وهم يبعثون هدية في كل سنة لي سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتي بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم ولم نجد عندهم ما تعلف دوابنا تلك الليلة وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فأعلمني لانظر من يحترس ثم نمت فما أيقظني الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بايا سلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة باعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الي الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الي داره وأكرمنا اكراما كثيراً

﴿ذكر سلطان برغمة﴾

وسلطانها يسمي يخشي خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشي (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه في مصيف له فأعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ثم اكترينا من يدلنا على الطريق وصرنا في جبال شامخة وعرة الي أن وصلنا الي مدينة بلي كسري (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة

كثيرة العمارات مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ونجلوا له سقفا وما وإيصلون ويجمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى

﴿ذكر سلطان يلي كسري﴾

ويسمى دمورخان ولا خير فيه وأبوه هو الذي بني هذه المدينة وكثرت عمارتها عن لا خير في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورأيته وبعث الي ثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة ثم سرنا الي مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بني عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ووعظ وذكر وأحسن ثم أخذوا في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يده ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس طلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

﴿حكاية﴾

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق

واختلفت الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمي الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فمتى علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلي ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا في الليلة وسمى الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لاقدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

﴿ ذكر سلطان برصي ﴾

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤنه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالده هو الذي استفتح مدينة برصي من أيدي الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه ثنتي عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث الى بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعى كرلة بزاوية فتى من الاخية ثم سافرنا من هذه القرية يوما كاملا في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان

الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيلون خاتون وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قريبة وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جداً رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذاري لم أر مثله في سواها متناهي الحلاوة عظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي وهو من الفضلاء الكرماء ما جئت قط الى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه بي الى الخاتون المذكورة فاكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بأيام وصل الى هذه المدينة السلطان أورخان بك الذي ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لي فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهي قاصدة مدينة ينجا ونحن في اتباع أثرها فوصلت إلى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادي فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها فذهب الوادي بهما معا وكان في عدوة الوادي قوم رموا بأنفسهم في أثرها سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع فتوجهنا اليها

وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكي نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفتى ايشان عربي كهنا ميتوان (ميكويند) ومن عربي نو ميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونو جديد وميدانم تعرف وانما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا انه يعرف اللسان العربي وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم وأنا لا أعرف الا العربي الجديد فظن الفتى ان الامر على ماقاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ في اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربي القديم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه إذاك لكنني حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الى ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخى فوجدنا أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الاخى فقال لى نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربى فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربى الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخى حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربى لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارسا من أصحابه وتوجه معنا الي كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الياء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهي من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك إبان الثلج والشتاء فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالى العنب ولا يزرع بها الى الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت أننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا

الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد
وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فتبعنا أثره الى أن وصلنا في
نصف النهار الى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم
وسلك بنا أوعاراً وجبالاً ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا
من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئاً من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك
ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم
رجع فرد الينا القوس فأعطيته شيئاً من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين
نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى أن بلغنا عند
غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسي وعلى من
معي وتوقعت نزول الثلج ليلاً ولا عمارة هنالك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا
ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت في نفسي اذا
سلمت لعلي أحتال في سلامة أصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل
تلك البلاد يبنون على القبور بيوتاً من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبوراً فظهر
لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها
عامرة ووفقني الله تعالى الى باب دار فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمني بالتركي
وأشار الي بالدخول فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني وكان من لطف الله أن تلك الدار
زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي
مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم علي وأخبرته خبر أصحابي وأشرت
اليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معي الى أصحابي
وجئنا جميعاً الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية
وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا
عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء
المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية وبها جماعة

من المسافرين ولم نجد مربطاً للدواب فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربي فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مربط للدواب بالكراء فقال أما ربطها في منزل فلا يتأتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل عليها الدواب ولكني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب

﴿حكاية﴾

وكان من غريب ما اتفق لنا اني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب وبعثت أحداً يشتري السمن فأتي أحدهما بالتبن والآخر دون شيء وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار الينا بالوقوف وكلم ولداً له فدفعنا له الدراهم فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمى عندهم روغن ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قصطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابي وأعطيته نفقة تركها لأهله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيء الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لي انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى أن فضحناه وكنا نقول له في آخر النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه مات لنا فرس في بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا أن نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوا

[illegible]

ووصلنا الى مدينة بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر في رأى العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرا من أفراسهم فاردفتها وأخذت في جواز الوادي فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة في زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقدا للنار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذي الزاوية ويسمونها البخارى واحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى في قوله في التورية وتذكرته بذكر البخيري

ان البخيري مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب
لو شئتم انه يسمي أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابي ولبست ثيابا سواها طليت بالنار وأتي الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد ايثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال رضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولي (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة في بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد بردا وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو السلطان شاه بك من متوسطي سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة حسن

الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فاخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قسطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسألني عن اسفاري وحالي فأجبته عن ذلك وأجلسني الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية وألحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الارض بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشتري خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ونحن عشرة ونشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشتري جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشتري حمل الحطب بدرهم واحد وذلك أوان البرد الشديد ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ

المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي من أهل فنيكة من بلاد الروم وأضافني بمدرسته التي بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح داداأمير علي دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره فأجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة وعمري الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لي وانصرفت

﴿ ذكر سلطان قصطمونية ﴾

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بياء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بإنزالي على قرب منه وأعطاني ذلك اليوم فرساً قرطاسي اللون وكسوة وعين لي نفقة وعلفاً وأمر لي بعد ذلك بقمح وشعير يتفدلي في قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الأسعار فأعطيته للحاج الذي كان في صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتي بالطعام فتفتح الأبواب ولا يمنع أحد من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل ويجلس في أول النهار جلوساً خاصاً ويأتي ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ويأتي أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته في يوم الجمعة ان يركب إلى المسجد وهو بعيد من داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلي السلطان وأرباب دولته والقاضي والفقهاء ووجوه الأجناد في الطبقة السفلى ويصلي الأفندي وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة في الطبقة الوسطى ويصلي ابن السلطان ولي عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس في الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة أمام المحراب يقعد معهم الخطيب والقاضي ويكون السلطان بإزاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف

بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدي السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدي أخي السلطان فاذا تم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدي ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركي ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتي ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه في طريقه وعمه واقف في انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتي ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعاً وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا في الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتي كل يوم غدوة كما ذكرناه ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهي الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الاخية ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهي جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها

ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخي جلبي وهي خارج باب البحر ومن هناك يصعد الى جبل داخل في البحر كيناسبتة فيه البساتين والمزارع والمياه وأكثر فواكهه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلي الجمعة بأعلي تلك القبة وملك بعده ابنه غازي جلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي جلبي المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر فى الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتي يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان للعدو فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون أنه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضاً يأكل ما كان يأكله صاحبه على ان أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لي بما في الشكارة فسألت من كان معي فأخبرني انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق

﴿حكاية﴾

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك فأخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه وأكلناه وانصرف الخديم اليه وأعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا لنا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام اربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر في البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فأمرته ان يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي أستودعكم ودهمنا من الهول مالم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى يسمى الكرش فأردنا دخوله فأشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لا تدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا ان هنالك اجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل ههنا فأنزلني بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يقد فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال

هذه صورة النبي على فعجبت من قوله و بتنا تلك الليلة بالكنيسة و طبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونها التزك (بالزاى المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء الا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الي هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الي من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدمدير ونزلنا منها بمسجد المسلمين

﴿حكاية﴾

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا وما رأينا الا خيرا ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الي مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد

صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الي مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهي الي ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على ان لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمي بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضاً فدخلنا عليه فاكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعلمت على السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

﴿ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد﴾

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها مايجره فرسان ومنها مايجره أكثر من ذلك وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ أو يكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر

عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدها خادم العربة وسرنا في صحبة الامير تلكتمور وأخيه عيسي وولديه قطلودمور وصاربك وسافر أيضاً معه في هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسي والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الامير في مجلسه فاذا أتي القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال باسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام باسم الله واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال باسم الله سيدنا فلان الدين باسم الله فيتهيأ من كان حاضر الدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له فى المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا احلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعي ليلا ونهارا ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الي صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شيء عندهم شبه الآنلي يسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوقي وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخاني وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها

ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فأحضرت لحوم الخيل وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل اصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرني الامير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعا فأبى وقال لو قتلتني ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتمور في موضع يعرف بسجان فبعث الى أن أحضر عنده فركبت اليه وكان لي فرس معدلركوبي يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلي الامير في مجلسه وأنا اليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقي وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوزة (بضم الباء الموحدة وواو مدوزاى مفتوح) وانما قال لي الشيخ مظفر الدين ماء الدهن ولسانه فيه اللكنة الاعجمية فظننت انه يقول ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لي كتابا الى أمير أزاق يعلمه أني أريد القدوم على الملك ويحضه على اكرامي وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخي بجقجي وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب الامير تلكتمور الى أمير ازاق وهو محمد خواجه الخوارزمي خرج الى استقبالي ومعه القاضي

والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمى برجب النهر ملكي نسبة الى قرية بالعراق فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافات وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشى عليها فكان من مكارمه وفضله ان قدمني أمامه ليرى ذلك الامير منزلتي عنده ثم وصلنا الى الخباء الاولى وهي المعدة لجلوسه وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعاً على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد وأولاده في الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك الى العشي وكلما أردت الخروج منعني الامير ثم جاؤا بكسوة للامير وكسى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولاخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جداً وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها ومن عادة

الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أنهم يصنعون في العربات التي يركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة الى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشي ويركب أحدها وبيده عصي طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمي الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك وأمر ان يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لانهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم والألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج

والعزب وعيشهم من الفتوح ولاهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصاً النساء فانهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخاري وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطي فرسا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتي عن طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأنا من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها ولاثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الي جانبه ودار بها جواريها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه في قدح وجلست علي ركبتيها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاها كسوة وانصرفت وعلي هذا الترتيب نساء الامراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها وبين يديها

الثلاث والاربع من الجواري يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفي أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان نساء الاتراك لا يحتجبن وتأتي احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الي الموضع الذي رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهي خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهي بنت الامير عيسي بك وسنذكرها رأت البيت بأعلى التل والعلم امامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علي وبلغوا سلامها الي وهي واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل في جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل في محلته على حدة

﴿ ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان ﴾

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمزة وواو وزاي مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشان رفيع

المكان قام لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها فاذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثانى جان بك وتجلس بين يديه ابنته ايت كججك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا اصعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتى بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بنى عمه واخوته وأقاربه ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها الى محلتها فاذا دخلت اليها

انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكان نزولى من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولى دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير وأشاروا على السلطان باكرامي وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل اصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

﴿ ذكر الخواتين وترتيبهن ﴾

وكل خاتون منهن تركب في عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو الخشب المرصع وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمي أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعني ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها اثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر

شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفي أعلى دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمي النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والاربع من الجواري الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجواري من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

﴿ ذكر الخاتون الكبرى ﴾

والخاتون الكبرى هي الملكة أم ولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته إيت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الاولي واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي أحظي نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والا فهي أبخل الخواتين وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكر لي غيره انها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرني ان بالصين صنفا من نسائها

على هذه الصورة ولم يقع بيدى ذلك ولا عرفت له حقيقة وفى غد اجتماعي بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهى قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغاراً يسمون البنات وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتى بالقمز فأتي به فى أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتني اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك

﴿ ذكر الخاتون الثانية التي تلي الملكة ﴾

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهى بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضر وناولتني القدح بيدها كمثل مافعلته الملكة وانصرفنا عنها

﴿ ذكر الخاتون الثالثة ﴾

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مد ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان

بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الي القسطنطينية العظمي كما نذكره بعد

﴿ ذكر الخاتون الرابعة ﴾

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الألوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إيت كججك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا أيضاً الى أختها زوجة الامير علي بن أرزق

﴿ ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك ﴾

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وياء مدوناء مثناة) وكججك (بضم الكاف وضم الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل كما تفعل العرب وتوجهنا الي هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الامير عيسي الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه الي المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نقطي وهو

أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيراً

﴿ ذكر ولدي السلطان ﴾

وهما شقيقان وأمهما جميعاً الملكة طيطغلي التي قدمنا ذكرها والأكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مد ونون مفتوح) وبك معناه الأمير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جاني بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولي يسيرا ثم قتل لأمور قبيحة جرت له وولي أخوه جاني بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جاني بك وأشار علي هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرئ حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جاني بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

﴿ ذكر سفري إلى مدينة بلغار ﴾

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً وأقمت بها ثلاثاً

﴿ ذكر أرض الظلمة ﴾

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوماً ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار

تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهي قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضي صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

﴿ ذكر ترتيبهم في العيد ﴾

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هي الملكة على الحقيقة ورثته

الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين الساوي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ونصبت الكراسي للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفاً وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعندما يلبسها يأتي الى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته ان يمس الارض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الى كرسيه وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولي العهد وتليه بنته الملكة إيت كججك وعن يسارها ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الاربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم الى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو أفراج وقد نصبت هنالك بارگة (باركاه) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها

سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط البارگة
السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة
مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش معظم وفي وسط هذا السرير
الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها ابنته إيت
كججك ومعها الخاتون اردوجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها
الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن
شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ووضعت كراسي عن اليمين والشمال جلس
فوقها أبناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين
يقودون ألفا ثم أتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال
وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدي كل أمير مائدة
ويأتي الباورجي وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفي
حزامه جملة سكاكين في أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فاذا قدمت المائدة قعد بين
يدي أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي
اللحم قطعاً صغاراً ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا
ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم
حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها
وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى
فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم
ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم لجميعهن ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ
القدح ويسقي أخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد
ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له ثم يقوم
الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة
كبيرة أيضاً إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا

معهم فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراده من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا الى بعربة منها فأعطيتها لجيراني من الأتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل انه لا يأتي لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى الباركة فبقي على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح التاء المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر اتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي فلاطفته وقلت له انما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فأذن لي وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني

كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها الصوم (بفتح الصاد المهمل) وأحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني وأركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

﴿ ذكر سفري الى القسطنطينية ﴾

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين أكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة أكك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواق ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرداق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك

أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة الي الآن وكانت الضيافة تحمل الي الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم والسفر في هذه البلاد ضحى ومعشي وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الا أنهم يفخمون الباء وساطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها في أيام البرد فلم نحتج الي كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتي أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لا أذبحها وكان من معي من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وأمرت لي الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الي أول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما ضحي ومعشي وما رأينا الا خيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الي حصن مهتولي وهو أول عمالة الروم (وضبط أسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو مد ولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلها الى هذا الحصن كفالي نقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج

وستة منه إلى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماني مع العربات والأثقال فأمر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها ولم يبق معها من يصلي الا بعض الاتراك كان يصلي معنا وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالي باكرامي ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبدالملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلي ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائية ويابسة اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا في القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح) وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون في قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين في السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضا وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضاً وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس

من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح في طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضاً النسيج مرصعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهباً مكلل جوهراً وكان التقاؤهما في بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سناً منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعاً ركابها وانصرفت مع أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولى العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه أخته في مثل زيها الاول وترجلا جميعاً وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركباناً ومشاة في أحسن زى وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصي طوال في أعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان

اختلطت المساكر وكسر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافرى فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الاول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة وسمعتهم يقولون سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا بالاذن فأقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا وعين لنا دارا بقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودي بذلك في الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان

﴿ ذكر سلطان القسطنطينية ﴾

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الى الخاتون الفتى سنبل الهندي فأخذ بيدي وأدخلني الى القصر فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل ثم أتي ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فاخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي فدخلوا بي الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من

الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الاربعة اليهم فأمسكوا بثيابي كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلي من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون وأخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فاشار الي قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الى ان أجلس فلم أفعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه فأعجبه كلامي وقال لاولاده اكرموا هذا الرجل وآمنوه ثم خلع علي خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان وطلبت منه ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتي أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادي فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

﴿ ذكر المدينة ﴾

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادى سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمي (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمي أصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة

الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لأحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربه من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابة وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيها

﴿ ذكر الكنيسة العظمى ﴾

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وألف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي

العنب وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحداً يدخلها حتى يسجد للصليب الاعظم عندهم الذي يزعمون انه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليباً وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لي ان عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأتي اليها البابة مرة في السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحاً ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

﴿ ذكر المانستارات بقسطنطينية ﴾

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت

للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناها أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف بهما بيوت وأحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضاً الى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

﴿ ذكر الملك المترهب جرجيس ﴾

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماشياً على قدميه وعليه

المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفى عنقه سبحة فلما رآه الرومي نزل وقال لى انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومى سأله عنى ثم وقف وبعث عنى فجئت اليه فأخذ يدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السراكنو يعني المسلم أنا اصافح اليد التى دخلت بيت المقدس والرجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الي حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم أرسل يدي فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

﴿ذكر قاضى القسطنطينية﴾

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآني القاضي فبعث الي أحد اعوانه فسأل الرومي الذي معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الي أحد أصحابه وهم يسمون القاضي النجشي كفالي فقال لي النجشي كفالي يدعوك فصعدت اليه الى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الي وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لى لا بد لك أن تأتي الي داري فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

﴿ذكر الانصراف عن القسطنطينية﴾

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الاتراك أنها على دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا

منها الاذن في العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميرا يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت الي فأعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البربرة وليس بالطيب والفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامي عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الي آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا وركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الي مدينة باباسلطوق وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف الى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحين) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر باجراء النفقة علينا وأنزلنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تغص بأهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما

مرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور ولا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمي ألطون طاش والطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفس شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم وأكرمني جزاه الله خيراً وبعث الي بغلام تركي وشاهدت له بركة

كرامة له

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لي أقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الاقامة فعزمت على السفر فأبق لي غلام أقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الي فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين

حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة وهي على شاطئ نهر كبير زخار يقال له ألوصو (بضم الهمزة واللام وواو ومد وضم الساد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجر العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل) ومعناه الوالد أضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا ننزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو يأكل في عربته حال السير وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى بعد ان يسمن والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه ووصلنا الى خوارزم وهي أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجلها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشور (بفتح الشين المعجم واسكان الواو) لم أستطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لي بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة من

طاعة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلوة وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفي كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا ويسافر فيه في أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخها المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي الى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم علي ثم عاد اليه ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم علي وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء وهو الشديد في أحكامه القوي في ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتأتى وسيأتي اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك

ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسي ومولانا رضي الدين يحيي ومولانا فضل الله الرضوى ومولانا جلال الدين العمادى ومولانا شمس الدين السنجرى امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الي داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الي مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفي كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلودمور متزوج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم

﴿ وأمير خوارزم ﴾

هو الامير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مدوراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر امرائه وهو واليه على خراسان وولده هرون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما على كما ذكرته قال لي ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا أصغر منه فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه

لما بهما من النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيها وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوا ثم أتي بموائد اخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الامير ان يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجي) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشا

﴿حكاية ومكرمة لهذا القاضي والامير﴾

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي ان الامير أمر لك بخمسمائة درهم وأمر ان يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها اللقمة أو اللقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال أفعل ذلك وقد أمرلك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة امامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته في ذهابي الى المسجد فما أعطيت ثمنه الا من تلك

الالف وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندي خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقي عندي الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت الي الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم وصنعت لي أختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الي بفروة سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

﴿ حكاية ﴾

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت علي فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا ألتفت اليها فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لي ان المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها

﴿ ذكر بطيخ خوارزم ﴾

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ أصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد وييبس في الشمس ويجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أتي اليه بشيء منه بعث الي به لما يعلم من محبتي فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

﴿ حكاية ﴾

كان قد صحبني من مدينة السرا الي خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبني بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله

وأنا لا علم لي بفعله الى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما وصل الى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده اليه مكافأة لافعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا نفعل وأردت أن أحسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي الى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين فأخذ في السفر معهم فقلت له في ذلك فقال هؤلاء أهل بلدي يعودون الى أهلي وأقاربي ويذكرون اني سافرت الى الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا أفعل ذلك وسافر معهم الى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ الى مدينة المالق وهي آخر البلاد التي من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئا بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فاني أنا فعلت ذلك بنفسي ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى لي عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان في أجله تأخير فتذكر صاحبا له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلي بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى وهي مسيرة ثمانية عشر يوما في رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة فودعت الامير قطلودمور وخلع على خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها

بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهي صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومي قاضي الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء الي مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقي ثم عرض علي القاضي الوصول الي أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغي له أن يزار وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتي به ففعلوا ذلك وأتي الامير بعد ساعة في أصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطاني كسوة وفرساً جيداً وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الياء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الي سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الالو بالعين المهملة وتشديد اللام) فييبسونه ويجلبه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا ووصلنا الي مدينة بخارى التي ينسب اليها امام المحدثين أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخارى وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكيز التترى جد ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئاً من العلم ولا من له عناية به

﴿ ذكر أولية التتر وتخريبهم بخاري وسواها ﴾

كان تنكيز خان حداداً بأرض الخطا وكان له كرم ونفس وقوة وبسطة في الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت

شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهي آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستأذنه مايفعل في أمرهم فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا فائلا وتدبيرا سيئاً مشؤوما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لاتحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر ان أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيئاً فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى أطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمد ملكه جلال الدين فأمده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة اطرار بالسيف فقتل الرجال وسبي الذراري وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لايعلم في الاسلام مثلها وآل الامر الى أن تملك تنكيز ماوراء النهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى الباميان (الباميان) فتملكها وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ماوراء النهر فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك في ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمى اليوم ترمذ وقتل أهل الباميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله

(قال ابن جزي) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لي هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك وأشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزي وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيى الباخرزي وأضافني هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركي والفارسي على طريقة حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالي ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هرات وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت بخارى قبر الامام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضي الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسمعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيراً وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التي ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبي وهي صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لاميرها وكان عندي جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها فاتفق انها كانت في المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي وأقمت أنا حتى ارتحل نهاراً مع بعض من معي فسلكوا طريقاً وسلكت طريقاً سواها فوصلنا عشية النهار على محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان

السلطان غائباً عن المحلة في الصيد فاجتمعت بنائبه الأمير تقبغا فأنزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خركاه) وهي شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداً وأخبروني أنه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبرني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرني ويرضيني منذ ولدت وتوفيت بعد وصولي الى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ حسن صهر السلطان

﴿ ذكر سلطان ماوراء النهر ﴾

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مدود وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجكطي (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطي هذا كافراً وولي بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافراً أيضاً لكنه كان عادل الحكم منصفاً للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

﴿ حكاية ﴾

يذكر ان هذا الملك كبك تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول ان الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال اين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في اى صورة ما شاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشي ومعناه بالتركية جيد فأكرمه اكراماً كثيراً وزاد في تعظيم المسلمين

﴿ حكاية ﴾

ومن احكام كبك ما ذكر ان امرأة شكت له بأحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات اولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها انا اوسطه فان خرج اللبن

من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بسده فقالت المرأة قد حللته ولا أطلبه بشيء فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما القت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي واعلماه بحالي وقدومي منذ أيام فقال لي بالتركية خش ميسن يخشي يسن قطلوايوسن ومعنى خش ميسن في عافية انت ومعنى يخشي ميسن جيد أنت ومعنى قطلوايوسن مبارك قدومك وكان عليه في ذلك الحين قباقدسي أخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا او كبيرا ذكرا أو أنثى ثم بعث عني فوصلت اليه وهو في خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسي وأصحابهم وقوف على رؤسهم وبين ايديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم اهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتي آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسي شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغي وال (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغي (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الي أربعتهم حين دخولي ودخلوا معي فسلمت عليه وسألني وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم اذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك ايام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ويقعد للذكر بالتركيا

بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتي اليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد يده على يده وكذلك يفعلون في صلاة العصر وكان اذا أتي بهدية من زبيب أو تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطي منها بيده لكل من في المسجد

﴿حكاية﴾

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلي وقال الامام حسام الدين الياغي ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة براى خدا أو براى طر مشيرين أي الصلاة لله او لطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الآخرتين حيث انتهى به القيام وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لي اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلي وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له في بعض الايام يا سيدي ما هذا القباء الذي أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لي يا ولدي ليس هذا القباء لي وانما هو لابنتي فرغبت منه ان يأخذ بعض ثيابي فقال لي عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيئاً ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطاني فرسين وجملين ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه الي متصيده وكان اليوم شديد البرد

جداً فوالله ماقدرت على ان أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطاني يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولي الى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاى) وكان مسلماً الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا في أحكامه يسمي عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه انهم يجتمعون يوما في السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكيز والامراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيئاً من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا في بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه فانكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضاً كونه أقام أربع سنين فيما يلي خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التي توالى الصين والعادة ان الملك يقصد تلك الجهة في كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هي مدينة المالق فلما بايعوا ابوزن أتى في عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ولم يأمنهم فركب في خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهي من عمالته وواليها كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر في عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض الاتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك وكان السلطان

طرمشيرين المذكور وقتل أخاه بَيك المذكور وبقي ابنه بنتي ببلخ فلما أعلمه التركي بخبره قال مافر الالأمر حدث عليه فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه بنتي بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الى نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مدود دال مهمل) معناه المقطوع ويسمي بذلك لضربة كانت في عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيروز الى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادعي انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالي بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذي تعرض بين يديه عساكر الهند واليه أمرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فأمر له بالسراجة وهي افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى في خدمته الى السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو وبعث الى ملك الهند بخبره فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان في خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فاني كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فأتي اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الأثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدمل الذي عالجته ها هو ذا وأراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له يا خوند عالم هذا السلطان طرمشيرين

قدوصل وصح انه هو وههنا من قومه نحو اربعين ألفا وولده وصهره أرأيت ان اجتمعوا عليه مايكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان يامادركاني وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة اقتلتك ولكن اعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الي دار بشاى اغلي واخته ولدى طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران واهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها ابو اسحق واجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولى من الهند الي مدينة شيراز ذكر لى انه باق بها واردت لقاءه ولم افعل لانه كان في دار لايدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابي اسحق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع الحديث الي بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية وابتح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى فأعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هراة والترمذ تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسيني النسب فأتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه أمره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بوزن فمالت العساكر الي خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقا باوتار القسي وتلك عادتهم انهم لايقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض

عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفاعليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذي جاء به من هراة وقصد بلاد المالق فقدم الترعلى أنفسهم واحداً منهم والتقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمي القتال وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره في عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها الترفانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثاً وخرج الى استئصال من بقي من الترفاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف الى سمرقند وبخاري ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول هو أحق بالملك لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث والياً الى المالق عوضاً عنه وامره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغي على صاحب هراة الذي أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب في بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسيناً وانف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغياً عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأوتي به الى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله في دار وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند ولنعد الى ما كنا بسبيله ولما وادعت السلطان طرمشيرين سافرت الى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين وعنده يجتمع اهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه

قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر يأتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك على حافتيه الاشجار ودوالي العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر في كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتي ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوي المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفري اليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

﴿ حكاية ﴾

لما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك أمر ان يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطي لاصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة ولملك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أتى الوارد كتبوا من أي البلاد ورد وكتبوا

سمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شؤنه وتصرفاته ومايظهر منه من فضيلة أوضدها فلايصل الوارد الي الملك الاوهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار مايستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا بلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضي الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهي الطيب واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام باللبن عوضاً عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي الي هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوندزاده وكتب لي اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم ولقيت أيضاً قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك ولاخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعاً الي الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان وماجرى في ذلك كله ان شاء الله تعالي ثم اجزنا نهر جيحون الي بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادي يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لاعمارة بها الي مدينة بلخ وهي

خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التى ينسب اليها الياقوت البدخشي والعامة يقولون البلخش وسيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من احسن مساجد الدنيا وافسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك

﴿ حكاية ﴾

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبنى العباس يسمى داود بن على فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الي بلخ أتي نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذى قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط فى مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فأخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيئا فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذى يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز

عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذي يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مختزناً بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوهاستان (قهستان) سبعة ايام وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هرات وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هرات ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هرات كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

﴿ ذكر سلطان هرات ﴾

وهو السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغوري صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين ما يقضي منه العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذي بغي عليه وكان منتهي أمره حصوله أسيراً في يديه والموطن الثاني عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهي أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولي السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولي أخوه بعد أبيه غياث الدين

﴿ حكاية الرافضة ﴾

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرابداران (سربداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعاً بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضاً

مدينة سبزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشي فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فاظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها احد حتى يأتي ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموها ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوة وطوس وهي من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد علي بن موسى الرضي وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هرات وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر واهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى يأتي القوم او يمضون اليهم فيناجزونهم فوقع اجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون الي غور الشام وان اصلهم منه فتجهزوا اجمعون واجتمعوا من اطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهي مسيرة أربع لا يزال عشبها أخضر ترعي منه ماشيتهم وخيلهم واكثر شجرها الفستق ومنها يحمل الي أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا جميعاً الي الرافضة وهم مائة وعشرون ألفا من رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على

الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل وقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتي بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق الأسرى وعاد الى حضرته بهذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهرات رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هرات يحبونه ويرجعون الى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متي علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

﴿ حكاية ﴾

ذكر لى انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فاقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

﴿ حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور ﴾

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هرات الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذى مر ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد الى مدينة هرات وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك أهل نجدة وبأس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بارض الهند ما بين الكفار فاذا خرجوا بهن الي خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن منقوبات

فاتفق مرة ان أميرا من أمراء الترك يسمي تمور الطى سبى امرأة وكانف بها كلفا شديدا فذكرت انها مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هرات وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا الاهل هرات مايركبون ولا مايحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذى بينهم فاجابوا بانهم لا يردون ذلك حتي يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لاسبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستى له بخراسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي الي الترك ليرضوا بذلك ثم أرده فكان الناس مالوا الي قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطى وقال له أنت أخذت امرأتي مني وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخر ميتا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ورد الترك ماكانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركى الذي قتل الفقيه على مدينة هرات فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفر أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفى طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكى الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هرات المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون ألف من

دنانير الذهب في كل سنة (ولنعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هرات الى مدينة الجام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار وأكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهي تنسب الى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامي وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده التي قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لي من أثق به ان السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ فاضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق في المحلة حيوان الا وصلته ضيافة

﴿ حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تنسب اليه مدينة الجام ﴾

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما في منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال في نفسه ان قلت لاصحابي اني قد تبت قبل اجتماعهم عندي ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر في الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ في ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذي كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها للعبادة لله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهي من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبي حامد الغزالي رضي الله عنه وبها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضى وهو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهي أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة

الفواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضاً بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف علي وولداه أمير هندو ودولة شاه وصحبوني من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهي مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضي للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلم على الرضي ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهى احدى المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤن القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهى التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخا وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب

العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى. وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

﴿ كرامة له ﴾

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه وسافرت من نيسابور الي مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير رضي الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني وكان نزولي من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه ومعنى ذلك الاسد الاسود وأضافنا بها والي تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه ببستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها مراعي طيبة واعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة أحكام الامير برنطيه وقد قدمنا ان أحكام الترك في من سرق فرسا أن يعطي معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد ان يسم كل واحد دوابه في افخاذها وكذلك فعلنا في هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الي منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط في كل ليلة ازاء اخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا في أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش.

و معناه قاتل الهنود لان العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل واقمنا حتى تمكن دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال تطأ عليها لئلا تغرق في الثلج ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لاحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروي ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان صعدنا جبل هندوكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي وهو معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناها بالتركية الأب واولياء باللسان العربي فمعناه أبو الاولياء ويسمي أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله (سأله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطين والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزلنا على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقني وجسمه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لي انه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والاسنان وانه رأى أبا رهم الذى قبره بملتان من السند وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات وشككت في حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الي برون (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطيه (وضبط اسمه بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء

المهمل ويا، آخر الحروف مسكن وهاء) وأحسن الي وأكرمني وكتب الي نوابه بمدينة غزنة في اكرامي وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطى من البسطة في الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم) وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا الي مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الي بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الي كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمي كوه سليمان ويذكران نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الي كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعي جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا احمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادت اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس

عشرة لا تدخل الا فى فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك في أوائل شهر يوليه وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تتفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا ان هذه الريح تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوندزاده قاضي ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الي بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فمعنى ذلك الاودية الخمسة وهى تصب في النهر الاعظم وتسقى تلك النواحى وسنذكرها ان شاء الله تعالي وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا الي أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وههنا ينتهي بنا الكلام في هذا السفر والحمد لله رب العالمين

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ﴾

العالم الهندي

(تذييل) يقول مصححه وحيث انهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى فى ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلد رأينا من المفيد ان نورد هنا عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالي مما يتعلق بهذا القصد تتميماً للفائدة وتقييداً للشاردة ونصها بفصها * وورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الي المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه فى ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت أيامئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث فى السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم البقر والابل اذ لم يعاين في محبسه الا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند

قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فاذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل ربي زدني علما (اه بحروفه)

الجزء الثاني

كتاب

رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار في غرائب الامصار
وعجائب الاسفار

الطبعة الاولى
بالمطبعة الخيرية
لمالكها ومديرها السيد (عمر حسين الخشاب)
سنة ١٣٢٢
هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا الى وادي السند المعروف ببنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا الى هذا النهر جاء الينا أصحاب الاخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز وهو عرض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الرأس لان سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) هو الرأس وتيز (بتاء معلوة وياء مد وزاى) معناه الحاد وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي مسيرة خمسين يوما واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه في خمسة أيام بسبب البريد

﴿ ذكر البريد ﴾

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو) الداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك ان يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال

مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين باعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى وخرج يشتد بمنتهي جهده فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الي الداوة الاخري ولا يزالون كذلك حتي يصل الكتاب الي حيث يراد منه وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الاطباق ويشتدون بها حتي تصل الى السلطان وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات يجعلون الرجل منهم على سرير ويرفعونه فوق رؤسهم ويسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة أباد يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها واذا كتب المخبرون الي السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا في ذلك وعرفوه انه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيأ فاذا وصل الوارد الي مدينة ملتان وهي قاعدة بلاد السند أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة وانما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته اذ لا يعرف هنالك حسبه ولا آباؤه ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء ونفذ أمره بان يسمى الغرباء في بلاده بالاعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء اليه كثير ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يسلفون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة ويخدمونه بأموالهم ...

بين يديه كالحشم فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضي ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً وجملا عليه حمل من النشاب فانه مما يهدى الى السلطان وذهب التاجر المذكور الى خراسان ثم عاد الى الهند وهنالك تقاضي مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبني الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيراً

﴿ ذكر الكركدن ﴾

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لانه في وسطها فخرج علينا الكركدن وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصرعه وعاد الى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعي نبات الارض فلما قصدناه هرب منا ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا الي مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الاولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديماً واستقر بها اسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند وأخبرني الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين الفقيه الصالح شمس الدين بن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين

زكرياء القرشي وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية اني سألقاهم في رحلتي فلقيتهم والحمد لله ان جده الاعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام امارته على العراق وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر اليهم أحد حين يأكلون ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ولا يصاهر اليهم أحد وكان لهم في هذا العهد أمير يسمي ونار (بضم الواو وفتح النون) وسنذكر خبره ثم سافرنا من مدينة جناني الى أن وصلنا الى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها الا شجر أم غيلان ولا يزدرع على نهرها شئ ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والالبان الجاموسية وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بأم حبين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة الا انها لاذنب لها ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الاصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى هكذا أبداً ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الاعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد الى الآن

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده

على ما أخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها أيضاً الشيخ المعمر

التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي وذكر ان عمره يزيد على مائة وأربعين سنة وانه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون بن تنكيز التترى وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه (حكاية)

كان يسكن بهذه المدينة الامير ونار السامري الذي تقدم ذكره والامير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المثناة والنون) وهو من الحذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الامراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الاطبال والعلامات كما يعطي كبار الامراء فلما وصل الى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فاجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج الى احواز المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وزعموا ان السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا الى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنى عشر لكا واللك مائة ألف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموا على أنفسهم ونار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الاموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام وخرج اليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة وتحصنوا بالمدينة فحصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الامان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم فاعطاهم الامان فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ... ويعلق ... فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر اليها وجميع

رؤسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزلت بتلك المدينة أثر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فاذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هرات في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري واعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه الى مدينة لاهري وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت

﴿ ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك ﴾

وكان للفقيه علاء الملك في جملة مراكبه مركب يعرف بالأهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء) وهي نوع من الطريدة عندنا الا انها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الامير ويجلس أصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو أربعين ويكون مع هذه الأهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الامير وهي العلامات والطبول والابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات والآخران فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والابواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار الى وقت الغداء فاذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ووضعت بينهما الاصقالات وأتى أهل الطرب الى أهورة الامير فيغنون الى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون واذا انقضى الاكل عادوا الى مركبهم وشرعوا أيضا في المسير على ترتيبهم الى الليل فاذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الامير الى مضاربه ومد السماط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الاخيرة سمر السمار بالليل نوبا فاذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال ياخوند ملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الاخرى فاذا أتموها نادى مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الابواق والطبول وصليت صلاة الصبح

فاذا فرغ الاكل أخذوا في المسير فان أراد الامير ركوب النهر ركب على ماذكرناه من الترتيب وان أراد المسير في البر ضربت الاطبال والابواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فاذا أقبلوا على قرية أو ماهو من الارض مرتفع ضربوا تلك الاطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا فاذا كان وقت الغداء نزلوا وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا الى موضع ولايته وهو مدينة لاهرى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلتقي بها بحران ولها مرسى عظيم يأتي اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرني الامير علاء الملك المذكور ان مجبى هذه المدينة ستون لكا في السنة وقد ذكرنا مقدار اللك وللامير من ذلك نيم (نيم) ده يك ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطي السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لانفسهم نصف العشر

﴿ ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة ﴾

وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا الى بسيط من الارض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله فبقي منه صورة رأس أو رجل أو سواهما ومن الحجارة أيضا على صور الحبوب من البر والحمص والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدرات دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي الا ان رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدرات بالهندي وأخبرني علاء الملك ان أهل التاريخ يزعمون ان هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة وان ملكهم هو الذي على الدكانة في الدار التي ذكرناها وهي تسمى دار الملك وان الكتابة التي في بعض الحيطان هنالك بالهندي هي تاريخ

أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ثم أحسن في الزاد وانصرفت عنه الى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلوخان أيام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الامام صدر الدين الحنفي ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي وهو من المعمرين ذكر لي ان سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت الى مدينة أوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة وكان الامير بها اذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه

﴿ مكرمة لهذا الملك ﴾

ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي فلما سافر السلطان الى دولة أباد كما سنذكره وأمرني بالاقامة بالحضرة قال لي جلال الدين انك تحتاج الى نفقة كثيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن جزائه ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى وألبسني الخرقة وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معي الى أن سلبني الكفار الهنود في البحر ثم سافرت من أوجه الى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة) وهي قاعدة بلاد السند ومسكن أمير أمرائه وفي الطريق اليها على مسافة عشرة أميال منها الوادي المعروف بخسرو آباد وهو من الاودية الكبار لا يجاز الا في المركب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عادتهم في حين وصولنا اليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وأمر ان لا يؤخذ من الناس الا الزكاة

بايع للخليفة أبي العباس العباسي ولما أخذنا في اجازة هذا الوادي وفتشت الرحال عظم على تفتيش رحلى لانه لم يكن فيه طائل وكان يظهر فى أعين الناس كبيرا فكنت اكره ان يطلع عليه ومن لطف الله تعالى ان وصل أحد كبار الاجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فأمر ان لا يعرض لي بحث ولا تفتيش فكان كذلك فحمدت الله على ما هيأ لي من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان وهو سمرقندي الاصل وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل اليها فتعرفت به ودخلت فى صحبته الى أمير ملتان

﴿ ذكر أمير ملتان وترتيب حاله ﴾

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الامراء وفضلائهم لما دخلت اليه قام الى وصافحني وأجلسني الى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيأ من الزبيب واللوز وهو من أعظم ما يهدي اليهم لانه ليس ببلادهم وانما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الامير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه وعن يمينه ويساره أمراء الاجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهنالك قسي كثيرة فاذا أتى من يريد ان يثبت في العسكر راميا أعطي قوسا من تلك القسي ينزع فيها وهي متفاوتة في الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجري فرسه ويرميها برمحه وهنالك أيضا خاتم معلق من حائط صغير فيجرى فرسه حتى يحاذيه فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة في الارض فيجري فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر من الانسان في ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الامير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بانزالنا في دار خارج المدينة هي لاصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا أحدا حتى يأتي أمر السلطان بتضييفه

﴿ ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند ﴾

فمنهم خذاوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ قدم بأهله وولده ثم ورد عليه بها اخوته عماد

الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند ومنهم أرن بغا أحد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ومنهم بدر الدين انفصال وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه ولما مضى الي وصولنا الى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروى الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان وهى أم السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور وأتوا بالخلع لهما ولاولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود وأتوا جميعا الي وسألوني لماذا قدمت فأخبرتهم انى قدمت للاقامة في خدمة خوندعالم وهو السلطان وبهذا يدعى في بلاده وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند الا ان كان برسم الاقامة فلما أعلمتهم اني قدمت للاقامة استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الاقامة من أصحابي. وأبى بعضهم من ذلك وتجهزنا للسفر الى الحضرة وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما في عمارة متصلة واخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يحتاج اليه في ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا وكان الحاجب يتقدم ليلا الى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خداوندزاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه واصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع خداوندزاده ولم أحضره انا الامرة واحدة وترتيب ذلك الطعام انهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة أربع قطع أوستا ويجعلون امام كل رجل قطعة ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشرك ببلادنا ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي ومعناه الاجرى مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الاخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيأ يسمونه سموسك وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والابازير موضوع فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون امام كل انسان

ذلك أو أربعا ثم يجعلون الارز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على السماط قبل الاكل ويخدم الى الجهة التي فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع فاذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولا في الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب باسم الله فعند ذلك يشرعون في الاكل فاذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فاذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل وقد تقدم ذكرهما فاذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب باسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون وسافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ماسطرناه الى ان وصلنا الى بلاد الهند وكان أول بلد دخلناه مدينة أبوهر (بفتح الهاء) وهي أول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار وليس هنالك من أشجار بلادنا شيء ماعدا النبق لكنه عندهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص شديد الحلاوة ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها

﴿ ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها ﴾

فمنها العنبة (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهي شجرة تشبه أشجار النارنج الا أنها أعظم اجراما وأكثر أوراقا وظلها أكثر الظلال غير انه ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ماسقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضاً الزنجبيل الاخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فاذا نضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصاً وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الاشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها ومنها الشكى (بـ..الشين المعجم وكسر الكاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف أيضاً) وهي

أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه
بالارض فهو البركي وحلاوته أشد ومطعمه أطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره
يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فاذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه
فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة
وحبة صفاق أصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير واذا شويت تلك النواة أو
طبخت يكون طعمها كطعم الفول اذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب
الاحمر فتبقى الى سنة أخرى وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند ومنها التندو
(بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الابنوس وحباته في قدر
حبات المشمش ولونها شديد الحلاوة ومنها الجمون (بضم الجيم المعقودة) وأشجاره
عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ومنها النارنج الحلو
وهو عندهم كثير وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو
والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جدا وكنت يعجبني أكله ومنها المهوا (بفتح
الميم والواو) وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز الا أن فيها حمرة وصفرة وثمره مثل
الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة
وطعمها كطعم العنب الا أن الاكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعا ومن العجب أن
هذه الحبوب اذا يبست في الشمس كان مطعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضا من التين
اذ لا يوجد ببلاد الهند وهم يسمون هذه الحبة الأنكور (بفتح الهمزة وسكون النون
وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بأرض الهند عزيز
جدا ولا يكون بها الا في مواضع بحضرة دهلي وببلاد أخر ويثمر مرتين في السنة ونوى هذا
الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح
الكاف وكسر السين المهمل وياء مد وراء) يحفرون عليها الارض وهي شديدة الحلاوة
تشبه القسطل وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ويثمر مرتين في السنة ورأيته
بجزائر ذيبة المهمل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار (بفتح الهـ

ذلك هو الاصل في تسمية الجلنار فان جل بالفارسية الزهر ونار الرمان

﴿ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها﴾

وأهل الهند يزدرعون مرتين في السنة فاذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو) وهو نوع من الدخن وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف) وهو شبه انلى ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمين) وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جدا واذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهاريس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منها عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهي أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبني ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش الا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ويطبخون المنج مع الارز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو الا أن حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وانما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب في تلك الايام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية واذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها الحب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها في

الارض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الأرز فانهم يزدرعونه ثلاث مرات في السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها * ولنعد الى ما كنا بسبيله فاقول سافرنا من مدينة أبوهر في صحراء مسيرة يوم في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في اقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق

﴿ ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند ﴾

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرج الناس منها أول النهار وأقمت بها الى نصف النهار في لمة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان وكان أصحابي ذوي نجدة وغناء فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا وأصابتني نشابة وأصابت فرسي نشابة ثانية ومن الله بالسلامة منها لان نشابهم لاقوة لها وجرح لاحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس الى حصن أبي بكهر فعلقناها على سوره وكان وصولنا في نصف الليل الى حصن أبي بكهر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الاعرج بالاسكندرية اني سألقاه فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه واذا الصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين

وهوأكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده وعلم الدين وزرت تربة جده القطب الصالح فريد الدين البذاوني منسوبا الى مدينة بذاون بلد السنبل (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لي علم الدين لا بدلك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة الى جانب ودعالي وبعث الي بسكر ونبات

﴿ ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار ﴾

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر فأخبروني ان كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا انها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والاطبال والابواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في احراقها فيأذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة اني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابجرى وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الامير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على احراق أنفسهن واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها احرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على احراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتي اليهن النساء من كل جهة وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها وبين

يديها الاطبال والابواق والانفار وكل انسان من الكفار يقول لها ابلغي السلام الى أبي أو أخي او أمي أو صاحبي وهي تقول نعم وتضحك اليهم وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار متكاثف الظلال وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار فلا تتخللها الشمس فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها ولما وصلنا الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحلي فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار وأهل الاطبال والابواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر اليها فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم مارا ميترساني از آطش (آتش) من ميدانم أو آطش است رها كني مارا وهي تضحك ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفونني أنا أعلم انها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً في الغرق يغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك وهو الذي اليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون انه من الجنة واذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا اني أغرق نفسي لاجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال انما قصدي التقرب الى كساي وكساي

(بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فاذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور * ولنعد الى كلامنا الاول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها الى مدينة سرستي (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الارز وأرزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلي ولها مجبى كثير جداً أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته ثم سافرنا منها الى مدينة حانسي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكن وسين مهمل مكسور وياء) وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا ان بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تورة (بضم التاء المعلوة وفتح الراء) وله عندهم حكايات وأخبار ومن هذه المدينة هو كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند وأخوه قطلوخان معلم السلطان واخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع الي الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين الى مسعود آباد وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسي ومسعود آباد هما للملك المعظم هوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كرك وكرك (بكافين معقودين أولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسيأتي ذكره وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائباً عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها أيضاً وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن اياس الرومي الاصل فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتاني المعروف بقنره (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب الى السلطان بخبرنا وبعث الكتاب مع الداوة وهي بريد الرجالة حسبما ذكرناه فوصل الى السلطان وأتاه الجواب في تلك الايام الثلاثة التي أقمناها بمسعود د تلك الايام خرج الي لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الامراء وهم يسمون

الامراء ملوكا لخيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الامير يقولون هم الملك وخرج الي لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود آباد فنزلنا بقرية من قرية تسمي بالم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهي المدينة العظيمة الشان الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير وهي أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالمشرق

﴿ ذكر وصفها ﴾

ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهي الآن اربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة والثانية تسمي سيرى (بكسر السين المهمل والراء وبينهما ياء مد) وتسمي أيضاً دار الخلافة وهي التي أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه وكان سبب بنائه لها انه وقف يوما بين يدي السلطان قطب الدين فقال له ياخوند عالم كان ينبغي أن تبنى هنا مدينة فقال له السلطان متهكما اذا كنت سلطانا فابنها فكان من قدر الله ان كان سلطانا فبناها وسماها باسمه والرابعة تسمى جهان بناه وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه وهو الذي بناها وكان أراد ان يضم هذه المدن الاربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه

﴿ ذكر سور دهلي وأبوابها ﴾

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير عرض حائطه احدى عشرة ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الابواب وفيها مخازن الطعام ويسمونها الانبارات ومخازنه

ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب ورأيت أيضاً الكذر ويخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة ويمشي في داخل السور الفرسان والرجل من أول المدينة الى آخرها وفيه طيقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بداون وهي الكبرى ودروازة مندوي وبهار حبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهي موضع البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة الى مدينة غزنة التي في طرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ودروازة البجالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل) وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وان كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل قل شنبه (كل شنبو) ورييول (راي بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول

﴿ ذكر جامع دهلي ﴾

وجامع دهلي كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ولا خشبة به أصلاً وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره أيضاً من الحجر وله أربعة من الصحون وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعادن هو وذكر لي بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعاً وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثمانية أذرع وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس

مطروحان بالارض قد ألصقا بالحجارة ويطأ عليهما كل داخل الى المسجد أو خارج منه وكان موضع هذا المسجد بدخانة وهو بيت الاصنام فلما افتتحت جعل مسجداً وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الاسلام وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافاً لحجارة سائر المسجد فانها بيض وحجارة الصومعة منقوشة وهي سامية الارتفاع وخلها من الرخام الابيض الناصع وتفافيحها من الذهب الخالص وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة حدثني من أثق به انه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة الى أعلاها وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها وأراد السلطان محمد اتمامها ثم ترك ذلك تشاؤماً وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة وهذا الثلث المبني منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا انها بالصحن الشمالي وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الاسوار على ارتفاعها وسموها منحطة وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار ويظهر للناظر اليها من أسفلها ان ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جامعاً بسيري المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد وأراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق في اتمامه خمسة وثلاثون لكا فترك ذلك استكثاراً له وأخبرني بعض خواصه انه لم يتركه استكثاراً لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

﴿ ذكر الحوضين العظيمين بخارجها ﴾

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب الى السلطان شمس الدين للمش ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤه يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال

الدكاكين بعضها أعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها الى الماء وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة محمولة طبقتين فاذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل اليها الا في القوارب فاذا قل الماء دخل اليها الناس وداخلها مسجد وفي أكثر الاوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون الى الله المتوكلون عليه واذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الاخضر والاصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمي طرب آباد ولهم سوق هنالك من أعظم الاسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة وأخبرت ان النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الائمة وعددهن كثير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الامير سيف الدين غدا بن مهنى وكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فاذا سمع الاذان قام فتوضأ وصلى

﴿ ذكر بعض مزاراتها ﴾

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي وهو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي انه كان اذا أتاه الذين عليهم الدين شاكين من الفقر أو القلة أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به الى أزواجهن يعطي من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة حتي عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلاني (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرماني نسبة الي كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

﴿ ذكر بعض علمائها وصلحائها ﴾

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة) وهو من كبار الصالحين والناس

يزعمون انه ينفق من الكون لانه لا مال له ظاهراً وهو يطعم الوارد والصادر ويعطي الذهب والدراهم والاثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها رأيته مرات كثيرة وحصلت لي بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كأنه منسوب الى نيل مصر والله أعلم كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البذوني وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم (حكاية) شاهدته في بعض الايام وهو يعظ فقرأ القارئ بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فاعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعاً ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرغب السلطان منه ان يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فأبى ذلك وزاره يوما وأتى اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا انه لا يفطر الا بعد ثلاث وانه قيل له في ذلك فقال لا أفطر حتى أضطر فتحل لي الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلي بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني زرته بهذا الغار ثلاث مرات

﴿كرامة له﴾

كان لي غلام فأبق مني وألفيته بيد رجل من الترك فذهبت الى انتزاعه من يده فقال لي الشيخ ان هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه وكان التركي راغبا في المصالحة فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده وأتي به السلطان فامر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته

وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوما ويقوم أكثر الليل ولم أزل معه حتى بعث عني السلطان ونشبت في الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وسأذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعي الى الدنيا

﴿ ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك ﴾

حدثني الفقيه الامام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي الملقب بصدر الجهان ان مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار في سنة اربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت انا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الاعظم بها وأخبرني أيضاً انها افتتحت على يد الامير قطب الدين ايبك واسمه (بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة) وكان يلقب (سياه) سالار ومعناه مقدم الجيوش وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغوري ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك ابراهيم بن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الامير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها وعظم شأنه وسعي به الى السلطان وألقى اليه جلساؤه انه يريد الانفراد بملك الهند وانه قد عصى وخالف وبلغ هذا الخبر الى قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ودخل على السلطان ولا علم عند الذين وشوا به اليه فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد ايبك تحت السرير بحيث لا يظهر وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن ايبك فذكروا له انه عصى وخالف وقالوا قد صح عندنا انه ادعى الملك لنفسه فضرب السلطان سريره برجله فصفق بيديه وقال يا ايبك قال لبيك وخرج عليهم فسقط في أيديهم وفزعوا الى تقبيل الارض فقال لهم السلطان قد غفرت لكم هذه الزلة واياكم والعودة الى الكلام في ايبك وأمره ان يعود الى بلاد الهند فعاد اليها وفتح مدينة دهلي وسواها واستقر بها الاسلام الى هذا العهد وأقام قطب الدين بها الى أن توفي

﴿ ذكر السلطان شمس الدين للمش ﴾

وضبط اسمه (بفتح اللام الاولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره ونائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة اذ ذاك وجيه الدين الكاساني فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه وقعد القاضي الى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقرأه القاضي والفقهاء وبايعوه جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره انه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وانصافه ممن ظلمه ثم انه أعيى في ذلك فقال ان بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل انصافهم فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم يأتي ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الاولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتا تسمى رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه

﴿ ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين ﴾

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين الى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الاعظم وهو يسمى دولة خانة ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه اليهم فثاروا واعند

ذلك الي السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به اليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا باخيه وكان أخوهما ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية

﴿ ذكر السلطانة رضية ﴾

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقرباز كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين

﴿ ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين ﴾

ولما خلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها الاصغر واستقل بالملك مدة ثم ان رضية وزوجها خالفا عليه وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيأ لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولي الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الارض فطلبت منه ما تأكله فأعطاها كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم وكانت في زي الرجال فلما نامت نظر اليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً فعلم انها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب الي السوق يبيعها فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبني عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الامر عشرين سنة وكان ملكاً صالحاً ينسخ نسخاً من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ثم ان نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره

﴿ ذكر السلطان غياث الدين بلبن ﴾

وضبط اسمه (بباءين موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخره نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين عادلاً حليماً فاضلاً ومن مكارمه انه بنى داراً وسماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضي دينه ومن دخلها خائفاً أمن ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضي أيضاً من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره ﴿ حكايته الغريبة ﴾ يذكر ان أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيراً حقيراً ذميماً فقال له يا ترككك وهي لفظة تعرب عن الاحتقار فقال له لبيك يا خوند فأعجبه كلامه فقال له اشتر لي من هذا الرمان وأشار الى رمان يباع بالسوق فقال نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال له وهبناك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك في ضميره واتفق ان بعث السلطان شمس الدين للمش تاجراً يشتري له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم الا بلبن لما ذكرناه من دمامته فقال لا أقبل هذا فقال له بلبن يا خوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسي فقال له اشترني أنا لله عز وجل فقال نعم وقبله وجعله في جملة المماليك فاحتقر شأنه وجعل في السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين ان أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولي عليه ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت الى أقوالهم لصلاحه وعدله الى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك وأثر في نفسه وبعث على المنجمين فقال أتعرفون المملوك الذي يأخذ الملك من ابني اذا رأيتموه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فأمر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون اليهم ويقولون لم نره بعد وحان وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض انا قد جعنا فلنجمع شيئاً من الدراهم ونبعث أحدنا الى السوق ليشتري لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن اذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد بالسوق

ملأ اراده فتوجه الى سوق أخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين في العرض وهو لم يأت بعد فأخذ وازقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبي وعرضوه على انه بلبن فلما نودي باسمه جاز الصبي بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التي تطلبوها وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انفاذ قضائه ثم انه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الاجناد ثم من الامراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل ان يلي الملك فلما ولي الملك جعله نائباً عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده وكان واليا لابيه ببلاد السند ساكنا بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر وترك ولدين كي قباد وكي خسرو وولد السلطان بلبن الثاني فسمي ناصر الدين وكان واليا لابيه ببلاد اللكنوتي وبنجالة فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد الى ولده كي خسرو وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين أيضاً ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين وهو الذي تولى الملك بعد جده في خبر عجيب نذكره وأبوه اذ ذاك حي كما ذكرناه

﴿ ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ﴾

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلا وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو حسبما قصصناه كان ملك الامراء نائب السلطان غياث الدين عدو الكي خسرو فأدار عليه حيلة تمت له وهي انه كتب بيمة دلس فيها على خطوط الامراء الكبار بانهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له فقال له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال له كي خسرو فما الحيلة قال انج بنفسك هاربا الى بلاد السند فقال وكيف الخروج والابواب مسدودة فقال له ان المفاتيح بيدي وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبل يده فقال اركب الآن فركب في خاصته ومماليكه وفتح له الباب وأخرجه وسد في أثره واستأذن على معز الدين فبايعه فقال كيف لي بذلك وولاية العهد لابن عمي فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه فشكره

على ذلك ومضي بها الى دار الملك وبعث عن الامراء والخواص فبايعوا ليلا فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتي فاتصل به الخبر فقال أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز في جيوشه قاصدا حضرة دهلي وتجهز ولده في جيوشه أيضاً قاصدا المدافعة عنها فتوافيا بمدينة كرا وهي على ساحل نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كرا ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلي الجهة الاخرى والنهر بينهما وعزما على القتال ثم ان الله تعالي أراد حقن دماء المسلمين فالقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال اذا ملك ولدي فذلك شرف وأنا أحق ان أرغب في ذلك وألقى في قلب السلطان معز الدين الضراعة لابيه فركب كل واحد منهما في مركب منفردا عن جيوشه والتقيا في وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكي ووليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له ابنه لا بد لك من الوصول الي بلادي فمضي معه الى دهلي ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمي ذلك اللقاء الذي كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجافي عن المنازعة وأكثرت الشعراء في ذلك وعاد ناصر الدين الى بلاده فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذي أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد موته واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك كانت كالأعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيرأيامها ورخص أسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذي بنى الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي ولا نظير لها في البلاد وحكى لي بعض أهل الهند ان معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعترته علة أعجز الاطباء دواؤها ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجي (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

﴿ ذكر السلطان جلال الدين ﴾

ولما اعتري السلطان معز الدين ماذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج الى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشاني

فبعث معز الدين الامراء لقتاله فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل في جملته ثم دخل المدينة وحصره في القصر ثلاثة ايام وحدثني من شاهد ذلك ان السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الايام فلم يجد ما يأكله فبعث اليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولي بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحلمه أداه الى القتل كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه وهو الذي أعطاه السلطان محمد لصهره الامير غدا بن مهنى لما زوجه باخته وسيذكر ذلك فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها وهي من اخصب بلاد الهند كثيرة القمح والارز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ومنها تجلب الى دهلي وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا يزال يشكوها الى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت في نفسه الا انه لم يكن له مال الا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار فاتفق انه ذهب مرة الى الغزو ببلاد الدويقير وتسمى بلاد الكتكة أيضاً وسنذكرها وهي كرسي بلاد المالوة والمرهتة وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينا فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيماً ففرقه في اصحابه ووصل الى الدويقير فأذعن له سلطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع الى مدينة كرا ولم يبعث الى عمه شيئاً من الغنائم فاغرى الناس عمه به فبعث عنه فامتنع من الوصول اليه فقال السلطان جلال الدين أنا اذهب اليه وآتي به فانه محل ولدي فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج الى لقاء أبيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول الى ابن أخيه وركب ابن أخيه أيضاً في مركب ثان عازما على الفتك به وقال لاصحابه اذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره

﴿ ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي ﴾

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر اليه أكثر عساكر عمه وعاد بعضهم الى دهلي واجتمعوا على ركن الدين وخرج الى دفاعه فهربوا جميعاً الى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين الى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الامر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيراً وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ويسأل عن أسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك ويذكر انه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر في الرتب فأمر برفع ذلك وأمر باحضار التجار وأعطاهم الاموال وقال لهم اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ويرتفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا في الاثواب التي يؤتى بها من دولة أباد وكان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكر ان السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فأمر أن لا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الاولى التي امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما وسبب ذلك انه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوماً الى الصيد وهو معه وأضمر في نفسه ان يفعل به مافعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل للافطار رماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد انه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به اليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الاولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذي ولي الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مهتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطي جميع اخوته المراتب وهي الاعلام والاطبال ولم يعطه شيئاً وقال له يوماً لابد ان اعطيك مثل ما اعطيت اخوتك فقال له الله هو الذي يعطيني فهاله ابادهذا الكلام وفزع منه ثم ان

السلطان أصابه المرض الذي مات منه وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماء القمر بلسانهم لها أخ يسمى سنجر فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان وكان يسمى الالفى لان السلطان اشتراه بألف تنكة وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشي الى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه اذا دخل على سنجر فانى معطيه ثوبا فاذا لبسه فامسكوا بأكمامه واضربوا به الارض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت على مسيرة يوم من دهلى توجه لزيارة شهداء مدفونين به ائتذر كان عليه أن يمشى تلك المسافة راجلا ويدعو لوالده بالراحة فلما بلغه ان أباه قتل خاله حزن عليه حزنا شديداً ومزق جيبه وتلك عادة لاهل الهند يفعلونها اذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده ما فعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنفه ولامه وأمر به فقيدت يداه ورجلاه وسلمه لملك نائب المذكور وأمره أن يذهب به الى حصن كليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كيالير بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيرة عشر من دهلى وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله الى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن وللمفردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه انما هو اعدى عدو له فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم ان المرض اشتد بالسلطان فقال لملك نائب ابعث من يأتي بابنى خضر خان لاوليه العهد فقال له نعم وماطله بذلك فتى سأله عنه قال هو ذا يصل الى أن توفي السلطان رحمه الله

﴿ ذكر ابنه السلطان شهاب الدين ﴾

ولما توفي السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الاصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل أعين أبي بكر خان وشادي خان وبعث بهما الى كليور وأمر بسمل عيني أخيهما خضر خان المسجون هنالك وسجنوا وسجن قطب الدين لكنه لم يسمل عينيه وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه يسمى أحدهما بشيرا والآخر مبشرا فبعثت عنهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهي بنت

السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاهما وقالت ان هذا الفتى نائب ملك قد فعل في أولادي ما تعلمانه وانه يريد أن يقتل قطب الدين فقالا لها سترين ما نفعل وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فاتفق انه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده اليه فضربه به المملوك وثني عليه صاحبه واحتزا رأسه وأتيا به الى محبس قطب الدين فرمياه بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له ثم عزم على خلعه فخلعه

﴿ ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين ﴾

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع اصبعه وبعث به الى كاليور فحبس مع اخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي الى دولة اباد وهي على مسيرة أربعين يوما منها والطريق بينهما تكتنفه الاشجار من الصفصاف وسواه فكأن الماشي به في بستان وفي كل ميل منه ثلاث داوات وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفي كل داوة جميع ما يحتاج المسافر اليه فكأنه يمشي في سوق مسيرة الاربعين يوما وكذلك يتصل الطريق الى بلاد تلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير الى حمل زاد في ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض الامراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فأخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه وضرب برأسه الى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الامراء ويسمى ملك شاه الى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعاً فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان بمحبسه فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه ودخل عليه الامير فقال له فيما جئت قال في حاجة خوندعالم فقال له نفسي سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب

الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعثني وعن العدول واستظهر بأمر السلطان فقرؤه وأتوا الى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه وهو متثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعاً في حفرة دون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئراً عليها الاسوار مضافة الى حصن منصوباً عليها المجانيق والرعادات ويصعد الى الحصن في طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال واذا رآه الانسان على البعد لم يشك انه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ما عدا الابواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفار وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهاد لانها بين الكفار ولما قتل قطب الدين اخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه خاصته الحظي لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسرو خان ففتك به وقتله واستقل بملكه الا ان مدته لم تطل في الملك فبعث الله عليه أيضاً من قتله بعد خلعه وهو السلطان تغلق حسبما يشرح ذلك كله مستوفي ان شاء الله تعالى اثر هذا ونسطره

﴿ ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين ﴾

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديري وبلاد المعبر وهي من أخصب بلاد الهند وبينهما وبين دهلي مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حباً شديداً ويؤثره فجر ذلك حتفه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصر وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم ألف رجل

يبيتون مناوبة بين أربع ليال ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحد الا فيما بين سماطيهم واذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار ولاهل النوبة امراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان ويسوءه ما يراه من ايثاره لكفار الهنود وميله اليهم وأصله منهم ولا يزال يلقي ذلك الى السلطان فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد لما اراد الله من قتله على يديه فلما كان في بعض الايام قال خسرو خان للسلطان ان جماعة من الهنود يريدون ان يسلموا ومن عادتهم بتلك البلاد ان الهندي اذا أراد الاسلام أدخل الى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان ائتني بهم فقال انهم يستحيون ان يدخلوا اليك نهارا لاجل اقربائهم وأهل ملتهم فقال له ائتني بهم ليلا فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده في ذلك الوقت الا بعض الفتيان فلما دخلوا الابواب الاربعة وهم شاكون في السلاح ووصلوا الى الباب الخامس وعليه قاضي خان أنكر شأنهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول وقال لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسي الاذن في دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ما هذا فقال خسرو خان هم الهنود الذين أتوا ليسلموا فمنعهم قاضي خان من الدخول وزاد الضجيج فخاف السلطان وقام يريد الدخول الى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان هوذا فوقي فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر الى صحنه وبعث خسرو خان من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره وكتب المراسم وهي الاوامر الى جميع البلاد وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعا وأذعنوا الا تغلق شاه والد السلطان محمد شاه وكان اذ ذاك أميرا بديبالبور من بلاد السند فلما وصلته خلعة خسرو خان طرحها

بالارض وجلس فوقها وبعث اليه أخاه خان خانان فهزمه ثم آل أمره الى ان قتله كما سنشرحه في أخبار تغلق ولما ملك خسرو خان آثر الهنود وأظهر أمورا منكرة منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فانهم لا يجيزون ذبحها وجزاء من ذبحها عندهم ان يخاط في جلدها ويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة والاستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها وكان ذلك مما بغض خسرو خان الى المسلمين وأمالهم عنه الى تغلق فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سنذكره

﴿ ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه ﴾

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين بن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله ابن الولي الامام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشي الملتاني بزاويته منها ان السلطان تغلق كان من الاتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار وكان كلوانيا له والكلواني (بضم الكاف المعقودة) هو راعي الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند اذ ذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) فخدمه تغلق وتعلق بجانبه فرتبه في البيادة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجالة ثم ظهرت نجابته فأثبت في الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله ثم كان بعد من الامراء الكبار وسمي بالملك الغازي ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان وهو الذي أمر بعملها اني قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازي ولما ولي قطب الدين ولاه مدينة ديبالبور وعمالتها (وهي بكسر الدال المهمل وفتح الباء الموحدة) وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمي محمد شاه ثم لما قتل قطب الدين وولي خسرو خان أبقاه على امارة الخيل فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال وكتب

الي كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينها وبين دبالبور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره وكان ولد كشلوخان بدهلي فكتب الى تغلق انه لو كان ولدي عندي لاعنتك علي ماتريد فكتب تغلق الى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ويأمره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان فادار ولده الحيلة على خسرو خان وتمت له كما أراد فقال له ان الخيل قد سمنت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضمير فأذن له في تضميرها فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر الي أربع ساعات الى أن غاب يوما الى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فأمر السلطان بالركوب في طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان في أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزماه شر هزيمة وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان الى أخيه وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي وخرج اليه خسروخان في عساكره ونزل بخارج دهلي بموضع يعرف باصيا أباد (آسياباد) ومعنى ذلك رحي الريح وأمر بالخزائن ففتحت وأعطي الاموال بالبدر لا بوزن ولا عدد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهنود أشد قتال وانهزمت عساكر تغلق ونهبت محلته وانفرد في أصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم الي أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الاقليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمي بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حمى القتال بينهم وبين الهنود وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورمي بثيابه وسلاحه وبقي في قميص واحد وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ودخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فأتاه الكتوال بالمفاتيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلوخان أنت تكون السلطان فقال كشلوخان بل

أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له كشلوخان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسرو خان وهو مختف بالبستان فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما فلم يكن عنده فأعطاه خاتمه وقال اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم الي السوق أنكر الناس أمره ورفعوه الي الشحنة وهو الحاكم فأدخله على السلطان تغلق فاعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعث ولده محمدا اليأتي به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تتو (بتائين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له اني جائع فأتى بالطعام فأمر له بالشربة ثم بالطعام ثم بالفقاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائما وقال يا تغلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحني فقال له لك ذلك وأمر به فضربت رقبته وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين ورمي برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن في مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عادلا فاضلا

﴿ ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك ﴾

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده محمدا يفتتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقود) وهي على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلى وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور المهر دار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ الى أرض التلنك أراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعبيد فأمره أن يلقي الى الناس ان السلطان تغلق توفي وظنه ان الناس يبايعونه مسرعين اذا سمعوا ذاك فلما ألقى ذلك الى الناس أنكره الامراء وضرب كل واحد منهم طبله وخالف فلم يبق معه من أحد وأرادوا قتله فنعهم منه ملك تمور وقام دونه نفر الي أبيه في عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق معناه الاصحاب الموافقون فأعطاه أبوه الاموال

والمساكر وأمره بالعود الى التلنك فعاد اليها وعلم أبوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيدا وأمر بملك كافور المهردار فضرب له عمود في الارض محدود الطرف وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى أسفل وترك على تلك الحال وفر من بقي من الامراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده

﴿ذكر مسير تغلق الى بلاد اللكنوتى وما اتصل بذلك الى وفاته﴾

وأقام الامراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفي وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه ثم غلب عليه أخوه الاصغر غياث الدين بهادور بوره ومعناه بالهندية الاسود واستولى على الملك وقتل أخاه قطلوخان وسائر اخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم الى تغلق فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما وخلف ولده محمداً نائبا عنه في ملكه وجد السير الى بلاد اللكنوتى فتغلب عليها وأسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيراً الى حضرته وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البذاونى ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسأله الدعاء وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه فقال ابن السلطان لخدامه اذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فاعلموني بذلك فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهبنا لك الملك ثم توفى الشيخ في أيام غيبة السلطان فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك أباه فانكره وتوعده وكان قد رابته منه أمور ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلي بعد سفره ذلك فتوعدهم ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة أمر ولده أن يبني له قصرا وهم يسمونه الكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمى أفغان بور فبناه في ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعا على الارض قائما على سوارى خشب وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجة جهان واسمه أحمد ابن اياس كبير وزراء السلطان محمد وكان اذذاك شحنة العمارة وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه انه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان

بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا واستأذنه ولده في أن يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فأذن له وحدثني الشيخ ركن الدين انه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ باخوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لي الشيخ فنزلت وأتي بالافيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضجة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فأمر ابنه أن يؤتي بالفؤوس والمساحي للحفر عنه وأشار بالابطاء فلم يؤت بهما الا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيه الموت فزعم بعضهم انه أخرج ميتا وزعم بعضهم انه أخرج حيا فأجهز عليه وحمل ليلا الى مقبرته التى بناها بخارج البلدة المسماة باسمه تغلق أباد فدفن بها وقد ذكرنا السبب في بنائه هذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الاعظم الذي جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من ادامة النظر اليها واختزن بها الاموال الكثيرة ويذكر انه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولي وبسبب ماذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان في بناء الكشك الذى سقط على تغلق كان حظوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه فلم يكن أحد يدانيه في المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم

﴿ ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه ﴾

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه وقد قدمنا انه كان اسمه جونة فلما ملك تسمي بمحمد واكتنى بأبي المجاهد وكل ماذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضي القضاة وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده

﴿ ذكر وصفه ﴾

وهذا الملك أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي

يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش بذوي الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم اظهاراً للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتادين نقيتهم ولكن الاغلب عليه الكرم وسنذكر من أخباره في عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً واعلم ان بعض ما آثره من ذلك لا يسع فى عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ولكنه شيئاً عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه لا يسعني الا قول الحق فيه وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق

﴿ ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك ﴾

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سرا (بفتح السين المهمل والراء) ولها أبواب كثيرة فأما الباب الاول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والابواق والصرنايات فاذا جاء أمير أو كبير ضربوها ويقولون في ضربهم جاء فلان جاء فلان وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث وبخارج الباب الاول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فان العادة عندهم انه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنالك ثلاثا وبين البابين الاول والثاني دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الابواب وأما الباب الثاني فيقعد عليه البوابون الموكلون به وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة فى أعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة وفي وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة ويفضى هذا الباب الثاني الى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد الا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل انسان عدد من أصحابه وناسه يدخلون

معه وكل من يأتي الى هذا الباب يكتب الكتاب ان فلانا جاء في الساعة الاولى أو الثانية أو ما بعدها من الساعات الى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبون أيضاً بكل ما يحدث بالباب من الامور وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل ما يكتبونه الى السلطان ومن عوائدهم أيضاً انه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر فلا يدخل هذا الباب بعدها الا باذن من السلطان فان كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسب اهداؤها الى السلطان وكذلك أيضاً القادمون من الاسفار فالفقيه يهدي المصحف والكتاب وشبهه والفقير يهدي المصلى والسبحة والمسواك ونحوها والامراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضي الى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمي هزار اسطون (بفتح الهاء والزاى وألف وراء) ومعنى ذلك ألف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس الناس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام

﴿ ذكر ترتيب جلوسه للناس ﴾

وأكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس أول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكا وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الانسان للتشهد في الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فاذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت أيديهم ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم باسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبوله وبيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره بأيديهم الدرق والسيوف والقسي ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي

القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء ثم المشايخ ثم اخوة السلطان واصهاره ثم الامراء الكبار ثم كبار الاعزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فنها ماهو بشعار الخلافة وهي التي لجمها ودوائرها من الحرير الاسود المذهب ومنها مايكون ذلك من الحرير الابيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتي بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة أنيابها بالحديد اعدادا لقتل أهل الجرائم وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به ويقومه لما يراد منه وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه ويكون في اركان ذلك الصندوق أربعة أعلام من كوزة وتلك الفيلة معلمة ان تخدم السلطان وتحط رؤسها فاذا خدمت قال الحجاب باسم الله باصوات عالية ويوقف ايضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب ويقول الحجاب باسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم فاذا خدم انصرف الى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه أبدا ومن كان من كفار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم الترسة والسيوف فلا يمكن أحد الدخول بينهم الا بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان

﴿ ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه ﴾

وان كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب الى السلطان على ترتيبهم يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون في ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن في الباب فاذا أمرهم ان يأتوا به جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها امام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعي صاحبها فيخدم قبل الوصول الى السلطان

ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فان كان رجلا كبيرا وقف في صف أمير حاجب والا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ويرحب به وان كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبرا لخاطر مهديها وايناساله ورفقا به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم في ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى

﴿ ذكر دخول هدايا عماله اليه ﴾

واذا أتي العمال بالهدايا والاموال المجتمعة من مجابي البلاد صنعوا الاواني من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) ويقف الفراشون وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم كل واحد منهم يمسك قطعة ثم يقدم الفيلة ان كان في الهدية شيء منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم البغال ثم الجمال عليها الاموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة آباد ولقيه بها في ظاهر مدينة بيانة فأدخلت الهدية اليه على هذا الترتيب ورأيت في جملتها صينية مملوءة باحجار الياقوت وصينيه مملوءه باحجار الزمرد وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك فأعطاه حظا منها وسيذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك ﴾

واذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الاخبار الخلع التي تعمهم جميعا فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد انما هي مختصة بركوب السلطان ويرفع عليها ستة عشر شطرا (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ويركب السلطان فيلا منها وترفع امامه الغاشية وهي ستارة سرجه

وتكون مرصعة بأنفس الجواهر ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر ويمشي بين يديه أيضاً النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم اقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر جهان كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الاعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فرس وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون أيضاً على الفيلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله واعلامه فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة وامامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الاعلام والطبول والابواق والانفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخي السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير بن ذي الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين علي المصري المعروف بابن الشرابشي ان نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكاً في السنة ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الامراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الامراء دون مراتب وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعاً هو وفرسه وأكثرهم مماليك السلطان فاذا وصل السلطان الى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الامراء وكبار الاعزة ثم نزل السلطان ويصلي الامام ويخطب فان كان عيد الاضحي أتي السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح

الزاي) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود الى قصره

﴿ ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الاعظم والمبخرة العظمى ﴾

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب البارگة على المشور كله وهى شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة وتحفها القباب من كل ناحية ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الازهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة وينصب السرير الاعظم في صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جماعة رجال لثقل الذهب وتجعل فوقه المرتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعندما يصعد على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصوات عالية باسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ واخوة السلطان وأقاربه واصهاره ثم الاعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الاجناد يسلم واحد اثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم في يوم العيد ان كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتى بدنانير ذهب مصرورة في خرقة مكتوبا عليها اسمه فيلقيها في طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء فاذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة فاذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جماعة من الرجال وفي داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القماري والقاقلي والعنبر الاشهب والجاوي حتى يعم دخانها المشور كله ويكون بأيدي الفتيان رامیل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان الا في العيدين خاصة ويجلس السلطان في بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب بارگة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ويقف على الباب الاول منها

عماد الملك سرتيز وعلى الباب الثاني الملك نكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين امراء المماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة البارگاه ملك طغي بيده عصي ذهب وبيد نائبه عصى فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم يأتي أهل الطرب فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للامراء والاعزة ثم يأتي بعد ذلك سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لاخوانه وأقاربه واصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس في اليوم الذي بعده بعد العصر أيضاً على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لامراء المماليك وفي اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفي اليوم الرابع يعتق العبيد وفي اليوم الخامس يعتق الجواري وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجواري وفي اليوم السابع يعطي الصدقات ويكثر منها

﴿ ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره ﴾

واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنها مرصع وحملت امامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجوهر النفيس وتصنع قباب من الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات عليهن أجمل لباس وأحسن حلية ومنهن رواقص ويجعل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولا بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدي أو غريب وكل من يشرب منه يعطي التنبول والفوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطأ عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشي امامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الافواج والعساكر خلفه ورأيته في بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمي بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتى وصل الى قصره

﴿ ذكر ترتيب الطعام الخاص ﴾

والطعام بدار السلطان على صنفين طعام الخاص وطعام العام فأما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه وعادته ان يأكل في مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الامراء الخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الاعزة أو كبار الامراء دعاه فأكل معهم وربما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين فأخذ احدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ويعطيه اياها فيأخذها المعطي ويجعلها على كفه اليسرى ويخدم بيده اليمنى الى الارض وربما بعث من ذلك الطعام الى من هو غائب عن المجلس فيخدم كما يصنع الحاضر ويأكله مع من حضر وقد حضرت مرات لهذا الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا

﴿ ذكر ترتيب الطعام العام ﴾

وأما الطعام العام فيؤتي به من المطبخ وامامه النقباء يصيحون باسم الله ونقيب النقباء امامهم بيده عمود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور أصواتهم قاموا قياما أجمعين ولا يبقى أحد قاعدا الا السلطان وحده فاذا وضع الطعام بالارض اصطف النقباء صفا ووقف أميرهم امامهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثني عليه ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم انه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف ان كان ماشيا ولزم موقفه ان كان واقفا ولا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضاً نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان السلطان قد علم بحضوره ويعطي المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك فيأتي به الى السلطان فاذا قرأه عين من شاء من كبار الامراء لترتيب الناس واطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والاقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والارز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبه وعادتهم أن يكون في صدر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الامراء الكبار

ثم سائر الناس ولا يقعد أحد الا في موضع معين له فلا يكون بينهم تزاحم البتة فاذا جلسوا أتى الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحاجب بسم الله ثم يشرعون في الاكل ويجعل امام كل انسان من جميع ما يحتوي عليه السماط يأكل منه وحده ولا يأكل أحد مع أحد في صحفة واحدة فاذا فرغوا من الاكل أتوا بالفقاع في أكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحاجب باسم الله ثم يؤتي باطباق التنبول والفوفل فيعطي كل انسان غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحاجب باسم الله فيقومون جميعاً ويخدم الامير المعين للاطعام ويخدمون لخدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان في اليوم احداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر

﴿ذكر بعض أخباره في الجود والكرم﴾

وانما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيد مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر والبلاد التي تقرب من أرض الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة بأخباره يعلمونها حقيقة ولا سيما جوده على الغرباء فانه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ويسبغ عليهم الانعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن احسانه اليهم أن سماهم الاعزة ومنع من أن يدعوا الغرباء وقال ان الانسان اذا دعي غريباً انكسر خاطره وتغير حاله وسأذكر بعضاً مما لا يحصي من عطاياه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني التاجر وحكايته﴾

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازروني الملقب بيرويز وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنباية ووعده أن يوليه الوزارة فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه فأتاه وأعد هدية للسلطان وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب

وصيفان مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار وجده آخذا في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابي بلاده وبهدية للسلطان وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق بسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير ولاهلها تعلق بجانبه وانقطاع اليه وتخدم له وأكثرهم كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدس الوزير اليهم ان يضربوا على ملك التجار اذا خرج الى الحضرة فلما خرج بالخزائن والاموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوما عند الضحى على عادتهم وتفرقت العساكر ونام أكثرهم فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم فقتلوا ملك التجار وسلبوا الاموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكتب المخبرون الى السلطان بذلك فأمر ان يعطي شهاب الدين من مجبى بلاد نهر والة ثلاثين ألف دينار ويعود الى بلاده فعرض عليه ذلك فأبى من قبوله وقال ما قصدي الا رؤية السلطان وتقبيل الارض بين يديه فكتبوا الى السلطان بذلك فأعجبه قوله وأمر بوصوله الى الحضرة مكرما وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه فخلع علينا جميعاً وأمر بانزالنا وأعطي شهاب الدين عطاء جزلا فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بستة آلاف تنكة كما سنذكره وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين اين هو فقال له بهاء الدين ابن الفلكي يا خوند عالم نميدانم معناه ما ندري ثم قال له شنيدم زحمت داره (دارد) معناه سمعت ان به مرضا فقال له السلطان برو همين زمان در خزانة يك لك تنكه زر بكري أو بيش أو بيري تا دل أو خش (خوش) شود معناه امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكه من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا ففعل ذلك فأعطاه اياها وأمر السلطان أن يشتري بها ما أحب من السلع الهندية ولا يشتري أحد من الناس شيئاً حتى يتجهز هو وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافر ونزل بجزيرة هرمز وبنى بها دارا عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضاً شهاب الدين وقد فني جميع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدي سلطانها أبا اسحق وهكذا مال هذه البلاد الهندية

فلما يخرج أحد به منها الا النادر واذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفني ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فانه أخذله في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابن أخيه جميع ما عنده وخرج سليباً من ماله

﴿ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين﴾

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبي العباس وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه في الخلافة فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ في اكرامه وأعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة وفي جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له اذا نزلت من البحر فانعل افراسها بها فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها الى بلاد اليمن فوقعت قضية خروج القاضي جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمي فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن الكولمي الى السلطان فلما رآه السلطان قال له ممازحا أمدي كزر (كه زر) برى بادكري (دلرباى) صنم خرى زر نيرى وسر نهي معناه جئت لتحمل الذهب تأكله مع الصور الحسان فلا تحمل ذهبا ورأسك نخليه ههنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها انا سائر الى المخالفين واعطيك اضعاف ما أخذوه لك وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند انه وفي له بما وعده وأخلف له جميع ما ضاع منه وانه وصل بذلك الى ديار مصر

﴿ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين﴾

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت احسانه مدة عام ثم احب الرجوع وطنه فأذن له في ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الابيض المقاصري وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة مثلها ونصب له المنبر بداخل السراجة

وهي افراج وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره وأخذ القضاة والفقهاء والامراء مجالسهم فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ولم يكن فيما قاله طائل لكن سعادته ساعدته فلما نزل عن المنبر قام السلطان اليه وعانقه واركبه على فيل وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت في جملتهم الى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها أيضاً كذلك فجلس وجلسنا معه وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاه السلطان إياها وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وجملتها كوازور كوة وتيسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب خالص ورفع عماد الدين السمناني وتدين من أوتاد السراجة أحدهما نحاس والآخر مقصدريوهم بذلك انهما من ذهب وفضة ولم يكونا الا كما ذكرنا وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومئتين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم

﴿ ذكر عطائه لعبد العزيز الاردويلي ﴾

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقي الدين ابن تيمية وبرهان الدين بن البركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي وغيرهم ثم قدم على السلطان فاحسن اليه وأكرمه واتفق يوما انه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادهما فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس وقبل قدمي الفقيه وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها الفا تنكة نصبها عليه بيده وقال هي لك مع الصينية وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم

﴿ ذكر عطائه لشمس الدين الاندكاني ﴾

وكان الفقيه شمس الدين الاندكاني حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتاً فاعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم وهذا أعظم مما يحكي عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم وهو عشر عطاء السلطان

﴿ ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري ﴾

وكان عضد الدين فقيها اماما فاضلا كبير القدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره فبعث اليه الى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

﴿ ذكر عطائه للقاضي مجد الدين ﴾

ولما بلغه أيضاً خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الأول وسير بعض خبره بعد هذا أيضاً بعث اليه الى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم

﴿ ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي ﴾

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الائمة كثير الايثار باذلا لما يملكه حتى انه كثيراً ما يأخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ خبره الى السلطان فبعث اليه أربعين ألف دينار وطلب منه أن يصل الى حضرته فقبل الدنانير وقضى دينه منها وتوجه الى بلاد الخطا وأبى ان يصل اليه وقال لا أمضي الى سلطان يقف العلماء بين يديه

﴿ ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته ﴾

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق فوفد حاجي كاون على السلطان فأكرم مثواه وأعطاه العطاء الجزل ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته وكان منها ثلاث صينيات أحدها مملوءة يواقيت والاخرى مملوءة زمرداً والاخرى مملوءة جوهراً وكان حاجي كاون حاضراً فأعطاه من ذلك حظا جزيلا ثم انه أعطاه أيضاً مالا عريضاً ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفي وولى مكانه سليمان خان فطلب ارث أخيه وادعى الملك وبايعته العساكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكارة التي بها الامام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفا فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم ما منعكم عن تعجيل الخروج الى مبايعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لاهل سلاحه قلنج (جقار) معناه

جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من يجاور هذه المدينة من الامراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا الى شمس الدين السمناني وهو من الامراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جرى على أهل شونكارة وطلبوا منه الاعانة على قتاله فجرد في عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثأر من قتله حاجي كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلا فهزموه وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به فاختفى في بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به الى سليمان خان وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه

﴿ ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره ﴾

وكان الامير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ما وراء النهر فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضي الله عنهما واستوطن بها أعواما ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرفي الحرباوي والثاني محمد الهمداني الصوفي فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد وشهد له البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه الى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار الى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل اليه فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ثم لما وصل الى سرستي بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء ثم بعث الامراء لاستقباله فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب فأخذ السلطان أحد الاثواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فأخذ

السلطان أحدهما بيده وقدمه له وحلف أن يركب وأمسك ركابه حتى ركب ثم ركب السلطان وسائره والشطر يظلهما معا وأخذ التنبول بيده واعطاه اياه وهذا أعظم ما أكرمه به فانه لا يفعله مع أحد وقال له لولا اني بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك فقال له غياث الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما من أحيي أرضا موتا فهي له وانت أحييتنا فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره ولما وصلا الى السراجة المعدة لنزول السلطان أنزله فيها وضرب للسلطان غيرها وباتا تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا الي دار الملك وأنزله بالمدينة المعروفة بسيري وبدار الخلافة ايضا في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء ان يمضوا معه اليه واعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من الاواني الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب وبعث له اربعمائة الف دينار لغسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عددا من الموائد بالطعام الخاص واعطاه جميع مدينة سيري اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه واعطاه مائة قرية واعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلي واعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن وامره ان لا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا في موضع خاص لا يدخله احد راكبا سوى السلطان وامر الناس جميعا من كبير وصغير ان يخدموا له كما يخدمون للسلطان واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره وان كان على الكرسي قام قائما وخدم كل واحد منهما لصاحبه ويجلس مع السلطان على بساط واحد واذا قام قام السلطان لقيامه وخدم كل واحد منهما لصاحبه واذا انصرف الي خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف يفعل هذا مرتين في اليوم

﴿ حكاية من تعظيمه اياه ﴾

وفي اثناء مقامه بدهلي قدم الوزير من بلاد بنجالة فأمر السلطان كبار الامراء ان يخرجوا الى استقباله ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا وصنعت القباب بالمدينة كما

تصنع للسلطان اذا قدم وخرج ابن الخليفة للقائه ايضا والفقهاء والقضاة والاعيان فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير امض الى دار المخدوم زاده وبذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدوم فسار الوزير اليه واهدي له انى تنكه من الذهب واثوابا كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الامراء وحضرت انا كذلك

﴿ حكاية نحوها ﴾

وقدم على السلطان ملك غزنة المسمى بهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فأمر السلطان بانزاله ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة وأمر أن يبنى له بها دار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى الى دار السلطان فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه وبعث عن الوزير فقال له سلم على خوندعالم وقل له ان جميع ما أعطانيه هو بمنزلي لم أتصرف في شئ منه بل زاد عندي ونما وأنا لا أقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه ان سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري قد خل الوزير على السلطان فاعلمه بذلك فركب من حينه في عشرة من ناسه وأتي منزل ابن الخليفة فاستأذن له ونزل عن فرسه خارج القصر حيث نزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له السلطان والله ما أعلم انك راض عني حتي تضع قدمك على عنقي فقال له هذا ما لا أفعله ولو قتلت فقال له السلطان وحق رأسي لا بدلك من ذلك ثم وضع رأسه في الارض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها على عنق السلطان ثم قام وقال الآن علمت انك راض عني وطاب قلبي وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرجة قد جعل مكان عقدا الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وأقام الملك الكبير ببابه حتي نزل من قصره فكساه اياها والذى أعطاه هو ما لا يحصره العد ولا يحيط به الحد وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله في البخل أخبار عجيبة يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ولنذكر بعض أخباره في ذلك

﴿ حكاية من بخل ابن الخليفة ﴾

وكانت بيني وبينه مودة وكنت كثير التردد الى منزله وعنده تركت ولدا لي سميته أحمد لما

سافرت ولا أدري مافعل الله بهما فقلت له يوما لم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لي لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي فكان يأكل وحده ويعطي صاحبه محمد بن أبي الشرفي من الطعام لمن أحب ويتصرف في باقيه وكنت أتردد اليه فأرى دهليز قصره الذي يسكن به مظلما لا سراج به ورأيته مرارا يجمع الاعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته في ذلك فقال لي يحتاج اليها وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه ويقول لا أرضي ان يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون وكان على مرة دين فطلبت به فقال لي في بعض الايام والله لقد هممت ان أأدي عنك دينك فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه

﴿حكاية﴾

حدثني مرة قال خرجت عن بغداد وانا رابع اربعة أحدهم محمد بن أبي الشرفي صاحبه ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا في العين درهما فقلنا وما نصنع بدرهم فاتفقنا على ان نشتري به خبزا فبعثنا احدنا لشرائه فأبى الخباز بتلك القرية ان يبيع الخبز وحده وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن فطرحنا التبن اذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة وقد انتهي حالي اليوم الى ماتراه فقلت له ينبغي لك أن تحمد الله على ماأولاك وتؤثر على الفقراء والمساكين وتتصدق فقال لا استطيع ذلك ولم أره قط يجود بشئ ولا يفعل معروفا ونعوذ بالله من الشح

﴿حكاية﴾

كنت يوما ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند وانا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه فرأيت شابا ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لي بعض الطلبة هذا الشاب الذي تراه هو ابن الامير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند فدعوته فقلت له اني قدمت من بلاد الهند واني أعرفك بخبر أبيك فقال قد جاءني خبره في هذه الايام ومضي يشتد خلف الرجل فسألت عن الرجل فقيل لي هو الناظر في الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم وهو يطلب اجرته من الرجل فطال عجبي منه والله لو بعث اليه

جوهرة من الجواهر التي في الخاتم الواصلة اليه من السلطان لأغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال

﴿ ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنى أمير عرب الشام ﴾

ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مثواه وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي ويعرف بكشك لعل معناه القصر الاحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جداً ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه الى القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلعب الكرة بين يديه في هذا المشور وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوأ أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فان عادتهم بالهندان يتركوا قصر السلطان اذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له ويبني المتولى بعده قصرا لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت الى أعلاه فكانت لي فيه عبرة نشأت عنها عبرة وكان معي الفقيه الطبيب الاديب جمال الدين المغربي الغرناطي الاصل البجائي المولد مستوطن بلاد الهند قدمها مع أبيه وله بها أولاد فأنشدني عندما عايناه

(خفيف)   وسلاطينهم سل الطين عنهم * فالرؤس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة في العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الامير أجزل له العطاء واحسن اليه احسانا عظيما وأعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية أعظم ملك البايزيدي من بلاد منكبور أحد عشر فرسا من عتاق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خوندة

﴿ ذكر تزوج الامير سيف الدين بأخت السلطان ﴾

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للامير غدا عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله المعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين أولهما مسكن والآخر مكسور بينهما نون وآخره سين مهمل) وعينني لملازمة الامير غدا والكون معه في تلك الايام فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وضرب في كل واحد

منهما قبة ضخمة جداً وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزي أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن مماليك السلطان وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول دارن وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلاً ونهاراً فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً الى هذا القصر فزينه وفرشنه بأحسن الفرش واستحضرن الامير سيف الدين وكان عربياً غريباً لا قرابة له فحففن به واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر ان تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الامير غداً وان تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته حتى يكون كأنه بين أهله ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن الى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص أصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها على زوجها ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون الا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتى اليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر وبشاشية مثل ذلك ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهان البخاري فلم يكن فيها مثل هذه ثم ركب الامير سيف الدين في أصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصى قد أعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين وريبول وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره وأتوا به الامير ليجعله على رأسه فأبى من ذلك وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا

كل من عارضهم فغابوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثياب وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله ودخل الى المشور وقد جملت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن وقوف على قدم إجلالا له وتعظيما فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة حتى صعد فأعطته التنبول بيدها فأخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ والاطبال والابواق والانفار تضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجعلت العروس في محفة وحملها العبيد على أعناقهم الى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات واذا مروا بدار أمير أو كبير خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها الى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس الى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم واعطى السلطان لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما وبدرة دراهم من ألف دينار الى مائتي دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر وكذلك لاهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطي أحد شيئاً لاهل الطرب انما يعطيهم صاحب العرس وأطعم الناس جميعاً ذلك اليوم وانقضى العرس وأمر السلطان أن يعطي للامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهروالة وجعل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها وعظمه تعظيما شديداً وكان عربياً جافياً فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاء البادية فأداه ذلك الى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه

﴿ ذكر سجن الامير غدا ﴾

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق ان وصل الى دار السلطان فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) دارية وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقحم فأمسك البواب بدبوقته وهي الضفيرة ورده فضربه الامير بعصي كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضي غزنة وهو من ذرية السلطان

محمود بن سبكتكين والسلطان يخاطبه بالادب ويخاطب ابنه هذا بالاخ فدخل على السلطان والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الامير غدا ففكر السلطان هنيهة ثم قال له القاضي يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بد من الموت عليها وانما احتمله لغربته وكان القاضي كمال الدين بالمشور فأمر السلطان الملك تتر أن يقف معهما عند القاضي وكان تتر حاجا مجاورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للامير أنت ضربته أو قل لا لقصد ان يعلمه الحجة وكان سيف الدين جاهلا متعنتاً فقال نعم أنا ضربته وأتى والد المضروب فرام الاصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فأمر القاضي بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشاً ينام عليه ولا سألت عنه خوفاً من السلطان وخاف أصحابه فودعوا أموالهم وأردت زيارته بالسجن فلقيني بعض الامراء وفهم عني أني أريد زيارته فقال لي أو نسيت وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك حسبما يقع ذكره فرجعت ولم أزره وتخلص الامير غدا عند الظهر من سجنه فأظهر السلطان اهماله واضرب عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه وكان للسلطان صهر يسمي بمغيث ابن ملك الملوك وكانت أخت السلطان تشكوه لاخيها الى ان ماتت فذكر جواريها انها ماتت بسبب قهرها وكان في نسبه مغمز فكتب السلطان بخطه يجلى اللقيط يعنيه ثم كتب ويجلى موش خوار معناه آكل الفيران يعني بذلك الامير غدا لان عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفأر وأمر باخراجهما فجاء النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله فترادف النقباء في طلبه فخرج باكيا وتوجهت حين ذلك الى دار السلطان فبت بها فسألني عن مبيتي بعض الامراء فقلت له جئت لأتكلم في الامير سيف الدين حتى يردو لا ينفي فقال لا يكون ذلك فقلت له والله لأبيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فأمر برده وأمره ان يكون في خدمة الامير ملك قبولة اللاهوري فأقام أربعة أعوام في خدمته يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى تأدب وتهذب ثم أعاده السلطان الى ما كان اليه أولا وأقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره

﴿ ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوندزاده قوام الدين الذي قدمنا عليه ﴾

ولما قدم خداوندزاده أعطاه السلطان عطاء جزلا وأحسن اليه احسانا عظيما وبالغ في اكرامه ثم زوج ولديه في بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير اذ ذاك غائبا فأتى السلطان الى داره ليلا وحضر عقد النكاح كانه نائب عن الوزير ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق والقضاة والامراء والمشايخ قعود وأخذ السلطان بيده الاثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي وولدي خداوندزاده وقام الامراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه فأمرهم بالجلوس وأمر بعض كبار الامراء ان يقوم مقامه وانصرف

﴿ حكاية في تواضع السلطان وانصافه ﴾

ادعى عليه رجل من كبار الهنود انه قتل أخاه من غير موجب ودعاه الى القاضي فمضى على قدميه ولا سلاح معه الى مجلس القاضي فسلم وخدم وكان قد أمر القاضي قبل ذلك انه اذا جاءه الى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد الى المجلس ووقف بين يدي القاضي فحكم عليه ان يرضي خصمه من دم أخيه فأرضاه

﴿ حكاية مثلها ﴾

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين انه له قبله حقا ماليا فتخاصما في ذلك عند القاضي فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فأعطاه

﴿ حكاية مثلها ﴾

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك انه ضربه من غير موجب ورفعه الى القاضي فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال ان قبل ذلك والا أمكنه من القصاص فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي وأعطاه عصي وقال له وحق رأسي لتضربني كما ضربتك فأخذ الصبي العصي وضربه بها احدى وعشرين ضربة حتى رأيت الكلا (الكلاه) قد طارت عن رأسه

﴿ ذكر اشتداده في اقامة الصلاة ﴾

وكان السلطان شديدا في اقامة الصلاة آمرا بملازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك الى الاسواق فمن وجد بها عند اقامة الصلاة عوقب حتى انتهى الى عقاب الستائريين الذين يمسكون دواب الخدام على باب المشور اذا ضيعوا الصلاة وأمر أن

يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والاسواق ويكتبونه

﴿ ذكر اشتداده في اقامة أحكام الشرع ﴾

وكان شديداً في اقامة الشرع ومما فعل في ذلك ان أمر أخاه مبارك خان ان يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة السلطان ويقعد أخو السلطان عن يمينه فمن كان عليه حق من كبار الامراء وامتنع من ادائه لصاحبه يحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه

(ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين)

ولما كان في سنة احدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل يوم اثنين وخميس برحبة امام المشور ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم الا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الامراء يجلسون في الابواب الاربعة من المشور لاخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز فان أخذ صاحب الباب الاول الرقع من الشاكي فحسن والا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع وان لم يأخذوه منه مضى به الى صدر الجهان قاضي المماليك فان أخذه منه والا اشتكى الى السلطان فان صح عنده انه مضى به الى أحد منهم فلم يأخذه منه أدبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الايام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة

(ذكر اطعامه في الغلاء)

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتى بلغ من القمح الى ستة دنانير أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر من المخزن بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل انسان في اليوم صغيراً أو كبيراً حراً أو عبداً وخرج الفقهاء

والقضاة يكتبون الازمة بأهل الحارات ويحضرون الناس ويعطي لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها

(ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله)

وكان على ماقدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على اراقة الدماء لايخلو بابه عن مقتول الا في النادر وكنت كثيراً ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ولقد جئت يوماً فنفر بي الفرس ونظرت الى قطعة بيضاء في الارض فقلت ماهذه فقال بعض أصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مؤون فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب وعادته أن يؤتي كل يوم بجميع من في سجنه من الناس الي المشور ماعدا يوم الجمعة فانهم لايخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء

(ذكر قتله لاخيه)

وكان له أخ اسمه مسعود خان وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وسأله عن ذلك فأقر خوفاً من العذاب فانه من أنكر مايدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس ان القتل أهون عليهم من العذاب فأمر به فضربت عنقه في وسط السوق وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجمت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا فرجمها القاضي كمال الدين

(ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة)

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة الى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوزة دهلي فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فكتب يوسف الي السلطان يعلمه بذلك فأمر ان يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد

من أولئك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا

﴿ ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله ﴾

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان الى جده حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوما وكان السلطانان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجا ان الصدر الاول رضي الله عنهم لم يكونوا يستعملون الا أهل العلم والصلاح فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام فاظهر الاباية والامتناع فغضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن ينتف لحيته فأبي ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت ونفى ضياء الدين الى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين الى دولة آباد فأقام بها سبعة أعوام ثم بعث عنه فأكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد في تعظيمه وأمر الامراء ان يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان الى السكنى على نهر الكنك وبني هنالك القصر المعروف بسرك دوار معناه شبه الجنة وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الاقامة بالحضرة فأذن له الى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلى فحفر بها كهفا كبيراً صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام وجلب الماء من نهر جون وعمر تلك الارض وجمع مالا كثيراً من مستغلها لانها كانت السنون قاحطة وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان وكان عبيده يخدمون تلك الارض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويسدونه على أنفسهم وانعامهم خوف سراق الكفار لانهم في جبل منيع هنالك ولما عاد السلطان الى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها فعظمه السلطان وعانقه

عند لقائه وعاد الى غاره ثم بعث عنه بعد أيام فامتنع من اتيانه فبعث اليه مخلص الملك النذرباري وكان من كبراء الملوك فتلطف له في القول وحذره بطش السلطان فقال له لا أخدم ظالما أبدا فعاد مخلص الملك الى السلطان فأخبره بذلك فأمر ان يأتي به فأتى به فقال له انت القائل اني ظالم فقال نعم انت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلي واخراجه أهلها فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال يثبت هذا اني ظالم واقطع عنقي بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يريد ان يشهد بذلك فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية رأس الدويدارية فقيده بأربعة قيود وغل يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوما مواصلا لا يأكل ولا يشرب وفي كل يوم منها يؤتى به الى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا أرجع عنه وأريد أن أكون في زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث اليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فأبى ان يأكل وقال قد رفع رزقي من الارض ارجع بطعامك اليه فلما أخبر بذلك السلطان أمر عند ذلك ان يطعم الشيخ خمسة استار (أساتير) من العذرة وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الامور وهم طائفة من كفار الهنود فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفي اليوم بعده أتي به الى دار القاضي صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه وطلبوا منه ان يرجع عن قوله فأبي ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين الكاساني وفقيهين معه﴾

وكان السلطان في سني القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وأن يزرع هنالك زرع وأعطي الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشي به الى السلطان فسجنه وقال له لاي شيء تدخل نفسك في أمور الملك ثم انه سرحه بعد مدة فذهب الى داره ولقيه في طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله

الذى نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا الى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فاضربوا عنقه حمائل وهو ان يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقالا له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا فقال لهما انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

﴿ ذكر قتله أيضا الفقيهين من أهل السند كانا في خدمته ﴾

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين ان يمضيا مع أمير عينه الي بعض البلاد وقال لهما انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الامير معكما يتصرف بما تأمرانه به فقالا له انما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما انما قصدكما أن تأكلا أموالى وتضيعاها وتنسبا ذلك الى هذا التركى الذى لا معرفة له فقالا له حاشا الله ياخوند عالم ماقصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما اليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فأقرا بما قولكما ياه ولا تعذبا أنفسكما فقالا والله ماقصدنا الا ما ذكرنا فقال لزبانيته ذوقوهما بعض شيء يعنى من العذاب فبطحا على أقفائهما وجعل علي صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة ثم قلعت بعد هنية فذهب بلحم صدورهما ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا الا ما قاله السلطان وأنهما مجرمان مستحقان للقتل فلا حق لهما ولا دعوى في دمائهما دنيا ولا أخرى وكتبا خطهما بذلك واعترفا به عند القاضي فسجل على العقد وكتب فيه ان اعترافهما كان من غير اكراه ولا اجبار ولو قالا أكرهنا لعذبا أشد العذاب ورأيا ان تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الاليم فقتلا رحمهما الله تعالي

﴿ ذكر قتله الشيخ هود ﴾

وكان الشيخ زاده المسمي بهود حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين بن أبى زكرياء الملتانى وجده الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين

الذي كان شبيها بالسلطان وقتل يوم وقيعة كشلوخان وسند كره ولما قتل عماد الدين اعطي السلطان لاخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفي الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ونازعه في ذلك ابن أخي الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمي فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوما فاعطي السلطان المشيخة لهود حسبما أوصي له الشيخ وكان كهلا وكان ابن أخي الشيخ فتى وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه في كل منزل يحله وان يخرج الى لقائه أهل كل بلد يمر به الى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الامر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والاعيان للقائه وكنت فيمن خرج اليه فلقيناه وهو راكب في دولة يحملها الرجال وخيله مجنوبة فسلمنا عليه وأنكرت أنا ما كان من فعله في ركوبه الدولة وقلت انما كان ينبغي له ان يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامي فركب الفرس واعتذر بان فعله أولا كان بسبب ألم منعه عن ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه فأعطي قاضي القضاة خمسمائة دينار وأعطيت أنا مائتين وخمسين دينارا وهذه عادة لهم في الدعوة السلطانية ثم انصرف الشيخ هود الى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك واستقر بزاويته وأقام بها أعواما ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند كتب الى السلطان يذكر ان الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الاموال وانفاقها في الشهوات ولا يطعمون أحدا بالزاوية فنفذ الامر بمطالبتهم بالاموال فطلبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضا وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثير من الاموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت بيعا بسبعة آلاف دينار قيل انهما كانا لبنت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الاتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك الى السلطان

فأمر بان يبعثه ويبعث الذي قبض عليه كلاهما فى حكم الثقاف فلما وصلا اليه سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هو داين أردت ان تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان انما أردت ان تذهب الي الاتراك فتقول انا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا وقد فعل السلطان بي كذا وتأتى بهم لقتالنا اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لاولاده ﴾

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكنا بمدينة كول منقطعا للعبادة كبير القدر ودخل السلطان الى مدينة كول فبعث عنه فلم يأته فذهب السلطان اليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك ان أميرا من الامراء خالف على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس فنقل للسلطان انه وقع ذكر هذا الامير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثني عليه وقال انه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الامراء الى الشيخ فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كول ومحتسبها لانه ذكر انهما كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الامير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعاً بعد أن سمل عيني القاضي وعيني المحتسب ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ثم يردان الى السجن وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا الى ما كنتم تفعلون فقالوا له وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور فقال أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم فاملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال له هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ ذكر قتله للشيخ الحيدرى ﴾

وكان الشيخ على الحيدرى ساكنا بمدينة كنباية من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة واذا قدموا بدؤا بالسلام عليه وكان يكاشف باحوالهم وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فاذا أتي الشيخ للسلام عليه

أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الافغاني وقبيلته بتلك الجهات بلغ السلطان ان الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال وأعطاه شاشيته من رأسه وذكر أيضا انه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت أحد الوافدين معنا عليه بكتابة وأمره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقها يحكم بقولهم فأحضر الشيخ على الحيدرى بين يديه وثبت انه أعطي للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله فلما ضربه السياف لم يفعل شيئاً وعجب الناس لذلك وظنوا انه يعفى عنه بسبب ذلك فأمر سيافا آخر بضرب عنقه فضربها رحمه الله تعالى

﴿ ذكر قتله لطوغان وأخيه ﴾

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان فأحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا وأقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع الى بلادهما وحاولا الفرار فوشي بهما أحد أصحابهما الى السلطان فأمر بتوسيطهما فوسطا وأعطي للذي وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد اذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل أعطي ماله

﴿ ذكر قتله لابن ملك التجار ﴾

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا لا نبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سنذكره غلب على ابن ملك التجار هذا فكان في جملته مقهورا فلما انهزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك فأمر بهما فعلقا من أيديهما في خشب وأمر ابناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين ذلك الشاب لم يجب عليه القتل فبلغ ذلك السلطان فقال هلا قلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائتي مقرعة أو نحوها وسجن وأعطى جميع ماله لامير السيافين فرأيته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه فظننت انه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه

وردّه الى ما كان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه الى خراسان فاستقر بهراة وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه اكر باز آمدى باز (أي) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع اليه

﴿ ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات ﴾

وكان قد ولي خطيب الخطباء بدهلي النظر في خزانة الجواهر في السفر فاتفق ان جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشيء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات رحمه الله تعالى

﴿ ذكر تخريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل الاعمى والمقعد ﴾

ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان اجلاؤه لاهل دهلي عنها وسبب ذلك انهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم مايقرؤها غيره ويرمونها بالمشور ليلا فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلي واشترى من أهلها جميع دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها الى دولة آباد فأبوا ذلك فنادى مناديه ان لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور فأمر بالبحث عمن بقي بها فوجد عبيده بازقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى فأتوا بهما فأمر بالمقعد فرمى به في المنجنيق وأمر أن يجر الاعمي من دهلي الى دولة آباد مسيرة أربعين يوما فتمزق في الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثني من أثق به قال صعد السلطان ليلة الى سطح قصره فنظر الي دهلي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب قلبي وتهدن خاطري ثم كتب الى أهل البلاد ان ينتقلوا الى دهلي ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها وضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها الا قليل عمارة وقد ذكرنا كثيراً من مآثر هذا السلطان ومما نقم عليه أيضاً فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث الكائنة

﴿ذكر ماافتتح به أمره أول ولايته من منه علي بهادور بوره﴾

ولما ولي السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس أحضر السلطان غياث الدين بهادور بوره الذي كان أسره السلطان تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزل له العطاء من الاموال والخيل والفيلة وصرفه الى مملكته وبعث معه ابن أخيه ابراهيم خان وعاهده على ان تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتكتب أسماؤهما معا في السكة ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمدا المعروف ببرباط يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين الي مملكته والتزم ماشرط عليه الا انه لم يبعث ابنه وادعي انه امتنع وأساء الادب في كلامه فبعث السلطان العساكر الى ابن أخيه ابراهيم خان وأميرهم دلجي التتري فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشي بالتبن وطيف به على البلاد

﴿ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك﴾

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمي بهاء الدين كشت اسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحي فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث السلطان اليه العساكر فيهم الامراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجه جهان أمير على الجميع فالتقى الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين الى ملك من ملوك الكفار يعرف بالراي كنبيلة والراي عندهم كمثل ماهو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الاقليم الذي هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوح) وهذا الراي له بلاد في جبال منيعة وهو من أكابر سلاطين الكفار فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعته عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الامر على الكافر ونفد ماعنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين ان الحال قد بلغت لما تراه وأنا عازم على هلاك نفسي وعيالي ومن تبعني فاذهب أنت الي السلطان فلان السلطان من الكفار سماه له فأقم عنده فانه سيمنعك وبعث معه من أوصله اليه وأمر راي كنبيلة بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته

اني أريد قتل نفسي فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل المقاصري وتقبل الارض بين يديه وترمي بنفسها في النار حتى هلكن جميعا وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراي وادهن بالصندل ولبس السلاح ماعدا الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا الى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ودخلت المدينة فأسر أهلها وأسر من أولاد راي كنبيلة أحد عشر ولدا فأتي بهم السلطان فأسلموا جميعاً وجعلهم السلطان أمراء وعظمهم لاصالتهم ولفعل أبيهم فرأيت عنده منهم نصرا وبختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ولما قتل راي كنبيلة توجهت عساكر السلطان الى بلد الكفار الذي لجأ اليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك السلطان أنا لا أقدر على أن أفعل مافعله راي كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه الى عسكر السلطان فقيدوه وغلوه وأتوا به اليه فلما أتي به اليه أمر باد خاله الى قراباته من النساء فشتمنه وبصقن في وجهه وأمر بسلخه وهو بقيد الحياة فسلخ وطبخ لحمه مع الارز وبعث لاولاده وأهله وجعل باقيه في صحفة وطرح للفيلة لتأكله فابت أكله وأمر بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا الى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ويخرج لاستقباله اذا وفد من بلاده أمر كشلوخان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به

﴿ ذكر ثورة كشلوخان وقتله ﴾

ولما اتصل بالسلطان ماكان من فعله في دفن الجلدين بعث عنه وعلم كشلوخان انه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الاموال وجمع العساكر وبعث الى الترك والافغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربى عليه كثرة وخرج السلطان بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عوضاً منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ

ركن الدين الملتاني وهو حدثني هذا وكان شبيهاً به فلما حمي القتال انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلو خان قصد الشطر معتقدين أن السلطان تحته فقتلوا عماد الدين وشاع في العسكر ان السلطان قتل فاشتغلت عساكر كشلو خان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا القليل فقصده السلطان بمن معه فقتله وجز رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل السلطان مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين وأمر بسلخه فسلخ وأمر برأس كشلو خان فعلق على بابه وقد رأيته معلقا لما وصلت الى ملتان وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخي عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية انعاما عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكرياء وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب الى مدينة كمال پور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فأخبرني بعض الفقهاء انه حضر دخول الوزير اياها قال واحضر بين يديه القاضي بها والخطيب فأمر بسلخ جلودهما فقالا له اقتلنا بغير ذلك فقال لهما بما استوجبتما القتل فقالا بمخالفتنا أمر السلطان فقال لهما فكيف أخالف أنا أمره وقد أمرني ان أقتلكما بهذه القتلة وقال للمتولين لسلخهما احفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم اذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان الى حضرته

﴿ ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان ﴾

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلي مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية الى حرب هذا الجبل ومعه مائة ألف فارس ورجالة سواهم كثير فملك مدينة جدية (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف) وهي أسفل الجبل وملك ما يليها وسبى وخرب وأحرق وفر الكفار الى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه وادٍ وفوقه الجبل فلا يجوز فيه الا فارس منفرد خلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين

على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التي بأعلى الجبل (وضبطها بفتح الواو والراء وسكون النون وفتح الكاف) واحتووا على ما فيها وكتبوا الى السلطان بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وأمرهم بالاقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسي فكتب الامراء الى السلطان واستأذنوه في الخروج عن الجبل والنزول الى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فأذن لهم في ذلك فأخذ الامير نكبية الاموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها الى أسفل الجبل فعندما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الاشجار العادية قطعا ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر بأحد الا أهلكته فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الاموال والامتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من العسكر الا ثلاثة من الامراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لهما لا أذكره وهذه الوقيعة أثرت في جيش الهند أثرا كبيرا وأضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه اليه لان لهم البلاد أسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها الا باذنه

﴿ ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما

اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير ﴾

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر الشريف جلال الدين أحسن شاه فخالف وادعى الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب في احدى صفحتي الدينار سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفي الصفحة الاخرى الواثق بتأييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زر معناه قصر الذهب وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس وفي تلك الايام أتي بابن أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الامراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور في مقدمته فوصل الى مدينة ظهار وهي على مسيرة أربع وعشرين

من دهلي وأقام بها أياما وكان ابن أخته شجاعا بطلا فاتفق مع الامراء الذين أتي بهم على قتل خاله والهروب بما عنده من الخزائن والاموال الى الشريف القائم ببلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه الى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه في أمرهم الى الوزير وكان يسمى الملك نصرة الحاجب وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم الى السلطان وكنت بين يدى السلطان حين وصولهم فرأيت أحدهم وكان طوالا الحي وهو يرعد ويتلو سورة يس فأمر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس وأمر بابن أخت الوزير فرد الي خاله ليقتله فقتله وسنذكر ذلك وتلك الفيلة التي تقتل الناس تكسى انيابها حدائد مسنونة شبه سكك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيال على الفيل فاذا رمي بالرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمي به الي الهواء ثم يتلقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده على صدره ويفعل به ما يأمره الفيال على حسب ما أمره السلطان فان أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد وان أمر بتركه تركه مطروحا فسلخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيت الكلاب تأكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرني بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ومضى في سفره الى أن بلغ دولة آباد فثار الامير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضاً بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

﴿ ذكر ثورة هلاجون ﴾

ولما بلغ السلطان الى دولة آباد وبعد عن بلاده ثار الامير هلاجون بمدينة الاهور وادعي الملك وساعده الامير قلجند على ذلك وصيره وزيراله واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلي فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيما من الخدام بدهلي أخذ أصحابه وأخذ في الجملة أصحابي لاني كنت بها مقيما وأعانه السلطان بأميرين كبيرين أحدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثاني الملك تمور الشربدار وهو الساقي وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة أحد الاودية الكبار فانهزم

ملاجون وهرب وغرق كثير من عساكره في النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل وكان الذي تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف بأجدر ملك ويسمى أيضا سك (سك) السلطان والصك عندهم الكلب وكان ظالما قاسي القلب ويسميه السلطان أسد الاسواق وكان ربما عض أرباب الجنايات بأسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور فسجن به ورأيت بعضهن هنالك وكان أحد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه في السجن

﴿ ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان ﴾

ولما وصل السلطان الى بلاد التلنك وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة بدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة) وهي قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المثناة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر ووقع الوباء اذ ذاك في عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والمماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعم ومثل أمير عبد الله الهروي وقد تقدمت حكايته في السفر الاول وهو الذي أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد وخالفت البلاد وانتقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته

﴿ ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج ﴾

ولما عاد السلطان الى دولة آباد مرض في طريقه فأرجف الناس بموته وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبدا لا في حياته ولا بعد موته فلما أرجف بموت السلطان هرب الى سلطان كافر يسمى بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة فجد السير الى دولة آباد واقتفى أثر هوشنج وحصره

بالخيل وأرسل الكافر أن يسلمه اليه فأبي وقال لا أسلم دخيلي ولو آل بي الامر لما آل برای كنبيله وخاف هو شنج على نفسه فراسل السلطان وعاهده على ان يرحل السلطان الي دولة آباد ويبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان ليستوثق منه هو شنج وينزل اليه على الامان فرحل السلطان ونزل هو شنج الى قطلوخان وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون في الوفاء عليه ومنزلته عند السلطان علية وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له اجلالا فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتي يكون هو الذي يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب في الصدقات كثير الايثار مولع بالاحسان للفقراء والمساكين

﴿ ذكر ما هم به الشريف ابراهيم من الثورة وما آل حاله ﴾

وكان الشريف ابراهيم المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانسي وسرستي لما تحرك السلطان الى بلاد المعبر وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت السلطان طمع ابراهيم في السلطنة وكان شجاعا كريما أحسن الصورة وكنت متزوجا بأخته حور نسب وكانت صالحة تتهجد بالليل ولها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت مني بنتا ولا أدري ما فعل الله فيهما وكانت تقرأ لكنها لا تكتب فلما هم ابراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الاموال يحملها الى دهلي فقال له ابراهيم ان الطريق مخوف وفيه القطع فأقم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك الى المأمن وكان قصده أن يحقق موت السلطان فيستولي على تلك الاموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الامير وكان يسمي ضياء الملك ابن شمس الملك ولما وصل السلطان الى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف ابراهيم اليه فوشي به بعض غلمانه وأعلم السلطان بما كان هم به فأراد السلطان أن يعجل بقتله ثم تأنى لمحبته فيه فاتفق ان أتى يوما الى السلطان بغزال مذبوح ينظر الى ذبحته فقال ليس بجيد الذكاة اطرحوه فرآه ابراهيم فقال ان ذكاته جيدة وأنا آكله فأخبر السلطان بقوله فأنكر

ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فامر به فقيد وغلل ثم قرره على مارمى به من انه أراد أخذ الاموال التي مر بها ضياء الملك وعلم ابراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأى الموت خيراله فأقر بذلك فامر به فوسط وترك هنالك وعادتهم انه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتي أهل المقتول فيعرفونه وربما أعطي بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل بالشريف ابراهيم رحمه الله تعالى

﴿ ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك ﴾

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بدركوت فبلغ خبره الى السلطان فبعث معلمه قطلوخان في عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس واشتد الحصار على أهل بدركوت وهي منيعة وأخذ قطلوخان في نقبها فخرج اليه نصرة خان على الامان في نفسه فأمنه وبعث به الى السلطان وأمن أهل المدينة والعسكر

﴿ ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك ﴾

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره الى نهر الكنك الذي تحج اليه الهنود على مسيرة عشر من دهلي وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الارض فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذي الناس حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الارض فاذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب ووصلت أنا في تلك الايام لمحلة السلطان وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط والبلاد التي بشرقيه خصبة وأميرها عين الملك بن ماهر ومنها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد ومدينة اللكنو وغيرها وكان الامير عين الملك كل يوم يحضر خمسين ألف من من القمح والأرز والحمص لعلف الدواب فامر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال الى

الجهة الشرقية الخصبة لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة اخوة وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان وهرب اليهم عين الملك بالليل وكاد الامر يتم لهم ومن عادة ملك الهند انه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضاً جوارى فى الدور يكن عيونا له على أمرائه ونسوة يسميهن الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك ملك المخبرين فيخبر بذلك السلطان ويذكرون ان بعض الامراء كان في فراشه مع زوجته فأراد مماستها فحلفته برأس السلطان ان لا يفعل فلم يسمع منها فبعث عنه السلطان صباحا وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فاخبر السلطان بفراره وجوازه النهر فسقط فى يده وظن أنها القاضية عليه لان الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك وعساكر السلطان مفترقة فاراد ان يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتي لقتاله وشاور أرباب الدولة فى ذلك وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم لانه هندى وأهل الهند مبغضون فى الغرباء لاظهار السلطان لهم فكرهوا ما ظهر له وقالوا يا خوند عالم ان فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد أمره ورتب العساكر وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والاولى معاجلته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهرى ووافقه جميعهم فعمل السلطان باشارتهم وكتب تلك الليلة الى من قرب منه من الامراء والعساكر فأتوا من حينهم وأدار في ذلك حيلة حسنة فكان اذا قدم على محلته مثلا مائة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم الى المحلة كان جميعهم مدد له وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذى كان به ثلاثة أيام فرحل أول مرحلة وقد عبأ جيشه للحرب وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه الى جانبه ومعه خباء صغير يأكل به

ويتوضأ ويعود الى مجلسه والمحلة الكبرى على بعد منهم ولم يدخل السلطان في تلك الايام الثلاثة خباء ولا استظل بظل وكنت في يوم منها بخبائي فصاح بي فتى من فتياني اسمه سنبل واستعجلني وكان معي الجوارى فخرجت اليه فقال ان السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته او جاريته فشفع عنده الامراء فأمر ان لا تبقى الساعة بالمحلة امرأة وان يحملن الى حصن هنالك على ثلاثة أميال يقال له كنبيل فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع السلطان وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان في اليوم الثانى رتب السلطان عسكره أفواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الابراج فوقها المقاتلة وتدرع العسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على أهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بان عين الملك الثائر اجاز النهر فخاف السلطان من ذلك وتوقع انه لم يفعله الا بعد مراسلة الامراء الباقين مع السلطان فأمر في الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لى حظاً منها وكان لى صاحب يسمي أمير اميران الكرمانى من الشجعان فأعطيته فرسا منها أشهب اللون فلما حركه جمح به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى وجد السلطان ذلك اليوم في مسيره فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج وكان يخاف ان يسبقه القائم اليها وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن في المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز ومعنا الامير غدا بن مهنى والسيد ناصر الدين مطهر وأمراء خراسان فاضافنا الى خواصه وقال انتم أعزة على ما ينبغي ان تفارقوني وكان في عاقبة ذلك الخير فان القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة في الناس كبيرة فحينئذ أمر السلطان ان لا يبرح أحد من مكانه ولا يقاتل الناس الا بالسيوف فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا الى أصحابهم وحمي القتال وأمر السلطان ان يكون شعار جيشه دهلى وغزنة فاذا لقى أحدهم فارسا قال له دهلى فان أجابه بغزنة علم انه من أصحابه والا قاتله وكان القائم انما قصد ان يضرب على موضع السلطان فأخطأ به الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق الدليل وكان في عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود فصدقوا القتال وكان جيش

فانهم نحوا الحسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التتري قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة وهي قريبة من بلاد عين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله فوافقاه أيضا وجعل داود حاجبه وكان داود هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسب السلطان ويشتمه أقبح شتم والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التتري ماذا ترى يا ملك ابراهيم قد فر أكثر العسكر وذو النجدة منهم فهل لك ان نجو بأنفسنا فقال ابراهيم لاصحابه بلسانهم اذا أراد عين الملك ان يفر فاني سأقبض على دبوقته فاذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط الى الارض فنقبض عليه ونأتي به السلطان ليكون ذلك كفارة لذنبي فى الخلاف معه وسببا لخلاصي فلما أراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم الى أين يا سلطان علاء الدين وكان يسمي بذلك وأمسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه فسقط الى الارض ورمى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال لا أتركه حتى أوصله للوزير أو أموت دون ذلك فتركوه فأوصله الي الوزير وكنت أنظر عند الصبح الى الفيلة والاعلام يؤتى بها الي السلطان ثم جاءني بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك وأتى به الوزير فلم أصدقه فلم يمر الا يسير وجاءني الملك تمور الشربدار فأخذ بيدي وقال أبشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر مافيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الاموال والخيل والامتعة ونزل السلطان علي المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقيه في عنقه فوقف على باب السراجة ودخل الوزير الي السلطان فأعطاه الشربة عناية به وجاء ابناء الملوك الى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون في وجهه ويصفعون أصحابه وبعث اليه السلطان الملك الكبير فقال له ما هذا الذي فعلت فلم يجد جوابا فأمر به السلطان ان يكسي ثوبا من ثياب الزمالة وقيد بأربعة

كبول وغلت يداه الى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عوض فأخذوا أهلهم وأولادهم وماقدروا عليه من المال وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك اخلصي بنفسك وبنيك معنا فقالت أفلا أكون كنساء الكفار اللاتي يحرقن أنفسهن مع ازواجهن فأنا أيضاً أموت لموت زوجي واعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها وأدركته لها رقة وادرك الفتي سهيل نصر الله من أولئك الاخوة فقتله وأتي السلطان برأسه وأتي بأم عين الملك واخوته وامرأته فسلمن الى الوزير وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود الى محبسه ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة أمر السلطان بسراح لفيف الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به وأتي بملك ابراهيم البنجي الذي ذكرناه فقال ملك العسكر الملك نوايا خوند عالم اقتل هذا فانه من المخالفين فقال الوزير امه قد فدى نفسه بالقائم فعفا عنه السلطان وسرحه الى بلاده ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب وأتي باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم وأتي بالفيلة فطرحوا بين أيديها فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة علي أنيابها وترمي ببعضهم الى الهواء وتلقفه والابواق والانفار والطبول تضرب عند ذلك وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ويطرح منهم عليه ثم أعيد الي محبسه وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم وبعث الى بفيل منها أجزت عليه رحلي وقصد السلطان ونحن معه الى مدينة بهرايج (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم) وهي مدينة حسنة في عدوة نهر السرو وهو واد كبير شديد الانحدار واجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذي فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا حتي غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينج منهم الا عربي من أصحاب الامير غدا وكنا ركبنا نحن في مركب صغير فسلمنا الله تعالي وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمي بسالم وذلك اتفاق عجيب وكان أراد أن

بعد معنا في مركبنا فوجدناه قد ركبنا النهر فركب في المركب الذي غرق فلما خرج ظن الناس انه كان معنا فقامت ضجة في أصحابنا وفي سائر الناس وتوهموا انا غرقنا ثم لما رأونا بعد استبشروا بالسلامة وزرنا قبر الصالح المذكور وهو في قبة لم نجد سبيلا الى دخولها لكثرة الزحام وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتل وأتي الناس برأسه وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل باضعاف وقد ذكرناه

﴿ ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة على شاه كر ﴾

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرناه عاد الى حضرته بعد مغيب عامين ونصف وعفا عن عين الملك وعفا أيضا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك وجعلهما معا على عمل واحد وهو النظر على بساتين السلطان وكساهما وأركبهما وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم وبلغ الخبر بعد ذلك ان أحد أصحاب قطلوخان وهو علي كشاه كر ومعنى كر الاطرش خالف على السلطان وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه وخرجت العساكر اليه وأمر السلطان معلمه أن يخرج الى قتاله فخرج في عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ونقبت أبراجها واشتدت به الحال فطلب الامان فأمنه قطلوخان وبعث به الى السلطان مقيدا فعفا عنه ونفاه الى مدينة غزنة من طرف خرسان فأقام بها مدة ثم اشتاق الى وطنه فأراد العودة اليه لما قضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند وأتي به السلطان فقال له انما جئت لتثير الفساد ثانية وأمر به فضربت عنقه

﴿ ذكر فرار أمير بخت وأخذه ﴾

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فحط مرتبه من أربعين ألفا الى ألف واحد وبعثه في خدمة الوزير الى دهلي واتفق ان مات أمير عبد الله الهروي في الوباء في التلنك وكان ماله عند أصحابه بدهلي فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلي الي لقاء السلطان هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا الى أرض السند في سبعة أيام وهو مسيرة أربعين يوما وكانت معهم الخيل مجنوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب أمير بخت وولده ومن

لايحس العوم في معدية قصب يصنعونها وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا الى النهر خافوا من عبوره بالعوم فبعثوا رجلين منهم الى جلال الدين صاحب مدينة أوجة فقالا له ان ههنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا اليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فأنكر الامير ان يعطي التجار مثل ذلك السرج وأمر بالقبض على الرجلين ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر فأخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وأمر جلال الدين بضرب الذي قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فأمر جلال الدين نائبه فركب في العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا أثرهم فأدركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الامير جلال الدين بسهم فاثبته في ذراعه وغلب عليهم فأتى بهم الى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب الى الوزير في شأنهم فأمرهم الوزير ان يبعثهم الى الحضرة فبعثهم اليها وسجنوا بها فمات طاهر في السجن فأمر السلطان ان يضرب شرف الملك مائة مقرعة في كل يوم فبقي على ذلك مدة ثم عفي عنه وبعثه مع الامير نظام الدين أمير نجلة الى بلاد جنديري فانتهت حاله الى ان كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الامير على السلطان وهو معه فجعله السلطان شاشنكيرة (جاشنكير) وهو الذي يقطع اللحم بين يدي السلطان ويمشي مع الطعام ثم انه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره وانتهت حاله الآن مرض فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك وقد قدمنا هذه الحكاية في السفر الاول وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديري التي كان بها البقر في خدمة الامير نظام الدين فسبحان مقلب القلوب ومحول الاحوال

﴿ ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند ﴾

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند وقتل الامير بها وكان يسمى بهزاد وادعى السلطنة لنفسه وتجهز السلطان لقتاله فعلم أنه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه الافغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاظ السلطان مما فعله وكتب الى عماله ان يقبضوا على من وجدوه من الافغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلافه

القاضي جلال

﴿ ذكر خلاف القاضي جلال ﴾

وكان القاضي جلال وجماعة من الافغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة فلما كتب السلطان الى عماله بالقبض على الافغانيين كتب الى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهر والة أن يحتال في القبض على القاضي جلال ومن معه وكانت بلاد بلوذرة اقطاعا للملك الحكماء وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الامير غدا وملك الحكماء اذذاك في صحبة مقبل لان بلاده تحت نظره فلما وصلوا الى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء ان يأتي بالقاضي جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكماء الي بلاده حذرهم في خفية لانهم كانوا من أهل بلاده وقال ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه الا بالسلاح فركبوا في نحو ثلاثمائة درع وأتوه وقالوا لا ندخل الا جملة فظهر له انه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فأمرهم بالرجوع وأظهر تأمينهم فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولمي التاجر وهو الذي عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسنذكره أثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان فهزموهم أيضاً وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فاتوا اليهم وادعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث السلطان اليه العساكر فهزمها وكان بدولة آباد جماعة من الافغان فخالفوا أيضاً

﴿ ذكر خلاف ابن الملك مل ﴾

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد في جماعة من الافغان فكتب السلطان الى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم وبعث اليه باحمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خلعتين في السنة خلعة الشتاء وخلعة الصيف واذا جاءت الخلع يخرج

الامير والعسكر للقائها فاذا وصلوا الى الآتى بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدم لجهة السلطان وكتب السلطان لنظام الدين اذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لاخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتي أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع الى الافغان فأخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب وركب الافغان معه حتى اذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وعلى أصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيراً من أصحابه ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

﴿ ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنباية ﴾

ولما بلغ السلطان ما فعله الافغان بكنباية ودولة آباد خرج بنفسه وعزم على أن يبدأ بكنباية ثم يعود الى دولة آباد وبعث أعظم ملك البايزيدي صهره في أربعة آلاف مقدمة فاستقبلته عساكر القاضي جلال فهزموه وحصروه ببلوذرة وقاتلوه بها وكان في عسكر القاضي جلال شيخ يسمي جلول وهو أحد الشجعان فلا يزال يفتك في العساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يجاسر أحد على مبارزته واتفق يوماً انه دفع فرسه فكبا به في حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى السلطان وصلبوا جسده بسور بلوذرة وبعثوا يديه ورجليه الي البلاد ثم وصل السلطان بعساكره فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ففر في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه وما جرى عليه من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عمن كان في طاعة جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم فأدى ذلك الى قتل الشيخ علي الحيدري حسبما قدمناه ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين بن ملك مل بدولة آباد ودخل في جملته فأتي السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا في نحو أربعين ألفا من الافغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على أن لا يفروا وان يقاتلوا السلطان وأتي السلطان لقتالهم ولم يرفع الشطر الذي هو علامة عليه فلما استحر القتال رفع الشطر فلما

عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة ولجأ ابن ملك مل والقاضي جلال في نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقير وسنذكرها وهي من أمنع قلعة في الدنيا واستقر السلطان بمدينة دولة آباد والدويقير هي قلعتها وبعث لهم ان ينزلوا على حكمه فأبوا ان ينزلوا الا على الامان فأبي السلطان ان يؤمنهم وبعث لهم الاطعمة تهاونا بهم وأقام هنالك وعلى ذلك آخر عهدي بهم

﴿ ذكر قتال مقبل وابن الكولمي ﴾

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه وكان تاج الدين بن الكولمي من كبار التجار فوفد على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثني عشر لكا ويذكر انه لم تكن قيمة هديته الا لكا واحداً وولاه مدينة كنباية وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير فوصل اليها وبعث المراكب الى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا في المراكب وضخمت حاله ولما لم يبعث أموال تلك الجهات الى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن الكولمي أن يبعث ما عنده من الهدايا والاموال مع هدايا تلك الجهات على العادة فامتنع ابن الكولمي من ذلك وقال أنا أحملها بنفسي أو أبعثها مع خدامي ، لا حكم لنائب الوزير علي ولا للوزير واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع الينا فلما بلغه الجواب تجهز في عسكره ومماليكه والتقيا بظاهر كنباية فانهزم ابن الكولمي وقتل جماعة من الفريقين واستخفى ابن الكولمي في دار الناخودة (الناخذا) الياس أحد كبراء التجار ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمي وبعث له الامان على ان يأخذ ماله المختص به ويترك مال السلطان وهديته ومجبى البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه الى السلطان وكتب شاكيا من ابن الكولمي وكتب ابن الكولمي شاكيا منه فبعث السلطان ملك الحكماء لينتصف بينهما وبأثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين فنهب مال ابن الكولمي وفر ابن الكولمي في بعض مماليكه ولحق بالسلطان

﴿ ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند ﴾

وفي مدة مغيب السلطان عن حضرته اذ خرج بقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتد الامر وانتهى المن الى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضاقت الاحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة الى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الاسواق وكان الناس اذا ذبحت البقرة أخذوا دماءها فأكلوها وحدثني بعض طلبة خراسان انهم دخلوا بلدة تسمى اكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا فى بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمى وهو يشويها في النار ويأكل منها والعياذ بالله ولما اشتد الحال أمر السلطان أن يعطي لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والامراء يطوفون بالازقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في اليوم لكل واحد وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسبما يذكر فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه واذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان فى أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية فلنعد الى ما يخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولا الى حضرته وتنقل الحال الى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة الى الصين وعودنا منها الى بلادنا ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر وصولنا الي دار السلطان عند قدومنا وهو غائب ﴾

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الاول ثم الثاني ثم الثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم الى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلاني أخوهم برهان الدين ثم الامير مبارك السمرقندي ثم ارن بغا التركى ثم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ثم بدر الدين الفصال ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمي هزار اسطون

(استون) ومعنى ذلك ألف سارية وبه مجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الارض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا الى الارض وخدمتنا لناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية باسم الله وخرجنا

(ذكر وصولنا الدار أم السلطان وذكر فضائلها)

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر وهي مكفوفة البصر وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والامراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع وولدها أشد الناس برورا بها ومن بروره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين ولنعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهنالك سكنى المخدومة جهان فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله ودخل معنا قاضي قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم الى الوزير فكلموه سرا ثم عادوا الى القصر ثم رجعوا الى الوزير ثم عادوا الى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل القدور ولها مرافع من ذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وبضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب باسم الله ثم أكلنا وأتوا بالفقاع ثم بالتنبول ثم قال

الحجاب باسم الله نخدمنا جميعا ثم دعينا الي موضع هنالك فخلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا الي باب القصر فخدمنا عنده وقال الحجاب باسم الله ووقف الوزير ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تخت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن فاعطي كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة وبطيفور مثله فيه الجلاب وطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم ان الذي يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الأخري الي الارض فأخذ الوزير الطيفور بيده قصدا ان يعلمني كيف أفعل ايناسا منه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا ففعلت كفعله ثم انصرفنا الى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبعقربة من دروازة بالم منها وبعث لنا الضيافة

﴿ ذكر الضيافة ﴾

ولما وصلت الي الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها مايحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى مايرطبه به لانه يعطي الرطوبة من ذاته وجاؤا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (واللحف) وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا فتي توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي مافي داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراس والآخر الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لاوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا الى دار السلطان وسلمنا على الوزير فاعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لي هذه سر ششتي (شستي) ومعناه لغسل رأسك وأعطاني خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابي وخدا

وغلماني فجعلوا أربعة أصناف الصنف الاول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين دينارا وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرمك وثلثاها من الخشكار وهو المدهون وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها والالاف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلا من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر وكانت ضيافة خداوندزاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه

﴿ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك﴾

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوي فدفناها بها وكتب بخبرها الى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا الى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهي زهر أصفر وريبول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتي بالمصاحف فيقرؤن القرآن فاذا ختموا أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبح على العادة واعددت ما تيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذى تلقانا

بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت الا والقوم المذكورون قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً فخدموا ثم جلسوا ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ثم داروا عليهم باقداح شربة انبات ثم فرقوا عليهم التنبول ثم أتى باحدى عشرة خلعة لي ولاصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه الى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت الى منزلي فما وصلت الا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ماملأ الدار ودور أصحابي وأكلوا جميعاً وأكل المساكين وفضلت الاقراص والحلواء والنبات فأقامت بقاياها أياماً وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا وهي شبه السرير سطحها من صفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندي المغلوق ويحملها ثمانية رجال في نوبتين يستريح أربعة ويحمل أربعة وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الاسواق وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكراء وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير وكذلك كانت هذه الدولة التي أتي الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتي التي هي أم البنت المتوفاة وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثاني وقد اعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا أيضا وقميص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب ولما جاءت بذلك كله أعطيته لاصحابي وللتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسي وصون العرض لان المخبرين يكتبون الى السلطان بجميع أحوالي

﴿ذكر احسان السلطان والوزير الي في أيام غيبة السلطان عن الحضرة﴾

وفي أثناء مقامي أمر السلطان أن يعين لي من القرى مايكون فائدة خمسة آلاف دينار في السنه فعينها لي الوزير وأهل الديوان وخرجت اليها فمنها قرية تسمي بدلى (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسهي (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بالرة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدي عندهم مجموع مائة قرية واحواز المدينة مقسومة اصداء كل صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذى يضم مجابيها وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار فبعث الوزير الي عشر جوارمنه فاعطيت للذى جاء بهن واحدة منهن فما رضى بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغارا منهن وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن والسبي هنالك رخيص الثمن لانهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الأثمان فلا يفتقر أحد الى شراء السبي والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وانما يمتنع الكفار بالجبال والاوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضه على بعض ولا تؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهي لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك

﴿ ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان ﴾

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد الى الحضرة فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مهد له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة أعلام في أركانه الاربعة ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون امامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج الى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى ثم صلى بهم الخطيب وخطب وانصرف الناس الي منازلهم وانصرفنا الى دار السلطان وجعل الطعام

لحضره الملوك والامراء والاعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا

﴿ ذكر قدوم السلطان ولقائنا له ﴾

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبت (بكسر التاء المعلوة الاولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالاولى) وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة فأمرنا الوزير بالخروج اليه فخرجنا ومع كل انسان هديته من الخيل والجمل والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الاتراك فوصلنا الي باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون الى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ولما وصلت النوبة الى دخلت فوجدت السلطان قاعداً على كرمي فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروى وكنت عرفته أيام غيبة السلطان فخدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمي بفيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لى ملك الندماء باسم الله مولانا بدر الدين وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب انما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدى وصافحني وأمسك يدى وجعل يخاطبني بأحسن خطاب ويقول لى باللسان الفارسى حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من المراحم وأعطيك من الانعام مايسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سألني عن بلادى فقلت له بلاد المغرب فقال لى بلاد عبد المؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لى كلاما جيداً قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات وخلع على وانصرفت واجتمع الواردون فمد لهم سماط ووقف على رؤسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وكان من كبار الفقهاء وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجي وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خداوندزاده غياث الدين بن عم خداوندزاده قوام الدين قاضى الترمذ الذى قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالاخ وتردد اليه مراراً من بلاده والواردون الذين خلع عليهم في ذلك هم خداوندزاده قوام الدين واخوته ضياء

الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين أمير هندو وزيرا أيضا والامير هبة الله ابن الفلكي التبريزي وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذي بنى المدرسة الفلكية بتبريز وملك كراي من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى وهو من أهل جبل بذخشان الذي منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد والامير مبارك شاه السمرقندي وأرون بغا البخاري وملك زاده الترمذي وشهاب الدين الكازروني التاجر الذي قدم من تبريز بالهدية الى السلطان فسلب في طريقه

﴿ ذكر دخول السلطان الى حضرته وما أمر لنا به من المراكب ﴾

وفي الغد من يوم خروجنا الى السلطان أعطي كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة أمام السلطان وجعلت عليها الاعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة ورفع فوق رأس السلطان شطر منها وحملت امامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار فلما وصل السلطان الى قرب المدينة رمي في تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرونها الى ان وصلوا الى القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الاقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك

﴿ ذكر دخولنا اليه وما أنعم به من الاحسان والولاية ﴾

ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا في سقائف الباب الثالث ولم يكن الاذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي فأمر الكتاب ان يكتبوا أسماءنا وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معي ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضي القضاة والكتاب ودعوا من الباب من الاعزة وهم الغرباء فعين لكل انسان نصيبه من تلك

البدر فحصل لي منها خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام ولقد قال لنا في بعض الايام أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافاتكم فالكبير منكم مقام والدي والكهل مقام أخي والصغير مقام ولدي وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم اياها فشكرناه ودعونا له ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لي اثنى عشر ألف دينار في السنة وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل احداها قرية جوزة والثانية قرية ملك بور وفي بعض الايام بعث الينا خداوند زاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لانهم كانوا يريدون تحصيل الاموال والانصراف الى بلادهم وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال أما الوزارة فميراثي وأما الكتابة فشغلي وغير ذلك لا أعرفه وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك وقال لي خداوندزاده بالعربي ما تقول أنت ياسيدي وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي الا بالتسويد وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي وأما الامارة فتعلمون ان الاعاجم ما أسلمت الا بأسياف العرب فلما بلغ ذلك الى السلطان أعجبه كلامي وكان بهزار اسطون يأكل الطعام فبعث عنا فأكلنا بين يديه وهو يأكل ثم انصرفنا الى خارج هزار اسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يمنعني الجلوس فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي واعتذروا عني وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوند زاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله السلطان أمير داد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضي فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فأمر له

بخمسين ألف تنكة خلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زركش فيها من الذهب وأمر له بفرس من الجنس الاول والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أمير بخت فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة أعطي مجاشر فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعين ألف تنكة وأعطي فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذي قبله ولقب شرف الملك ثم دخل هبة الله بن الفلكي فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة أعطي مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعة وعشرين ألف تنكة وأعطي فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا الى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لي الملك الكبير اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا ان شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمر لك بخلعة محاربين وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي الى السلطان فقال لي السلطان لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الاشغال هو أكبر الاشغال عندنا وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه فقلت له يا مولانا أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف اللسان فقال لي قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخديمكم فقال لي باللسان العربي بل أنت سيدنا ومخدومنا تواضعا منه وفضلا وايناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت ان كان الذي ترتب له لا يكفيه لانه كثير الانفاق فانا أعطيه زاوية ان قدر على اقامة حال الفقراء وقال قل له هذا بالعربي وكان يظن انه يحسن العربي ولم يكن كذلك وفهم

السلطان ذلك فقال له برو و يكجابخسبي (بخسبي) وان حكاية براو بكوي وتفهيم كي (بكي) تا فردا ان شاء الله بيش من بيايي (و) جواب أو بكري (بكوي) معناه امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغد ان شاء الله تجيء الى وتعلمني بكلامه فانصرفنا وذلك في ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لا يخرج أحد فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلي مسدودة فبتنا عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرابور خان وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشتري له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعد ان جعلت عليها الخرق وقدناها بأنفسنا الى باب دار السلطان فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وأمر السلطان لاصحابي بألفي دينار وعشر خلع ولم يعط لأصحابي أحد سواي شيئاً وكان أصحابي لهم رواء ومنظر فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكرهم

﴿ ذكر عطاء ثان امر لي به وتوقفه مدة ﴾

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتي القضاء والاحسان الي وأنا قاعد تحت شجرة هنالك والى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ فأتى بعض الحجاب فدعى مولانا ناصر الدين فدخل الى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ثم أتاني بعض الحجاب فقال اعطني شيئاً وآخذ لك خط خرد باثني عشر ألفا أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة علي وهو مجد في كلامه فقال بعض الاصحاب أنا أعطيه فأعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه أمر خوند عالم ان يعطي من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الامراء وهم الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والاقلام والامير نكبية الدوادار صاحب الدوات فاذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة الى ديوان الوزارة

فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت في ديوان الاشراف ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البروانة وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن في ديوانه ويكتب تلخيصا في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتي وعادتهم اذا أمر السلطان باحسان لاحد يحط منه العشر فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطي تسعين ألفا أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف

﴿ ذكر طلب الغرماء مالهم قبلي ومدحي للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة ﴾

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته في طريقي وما صنعت به الهدية للسلطان وما أنفقته في اقامتي فلما أرادوا السفر الى بلادهم ألحوا علي في طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها (طويل)

اليك أمير المؤمنين المبجلا * أتينا نجد السير نحوك في الفلا

فجئت محلا من علائك زائرا * ومغناك كهف للزيارة أهلا

فلو ان فوق الشمس للمجد رتبة * لكنت لأعلاها اماما مؤهلا

فأنت الامام الماجد الاوحد الذي * سجاياه حتما أن يقول ويفعلا

ولي حاجة من فيض جودك ارتجي * قضاها وقصدي عند مجدك سهلا

أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم * فان حياكم ذكره كان أجملا

فعجل لمن وافي محلك زائرا * قضا دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي فجعلها على ركبته وأمسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدي وكنت اذا أكملت بيتا منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربي فلما بلغت الى قولي فعجل لمن وافي البيت قال مرحمة ومعناه ترحمت عليك فأخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بي الى

موقفهم وأخدم على العادة فقال السلطان اتركوه حتى يكملها فاكملتها وخدمت وهنأني الناس بذلك وأقمت مدة وكتبت رقعة وهم يسمونه عرض داشت فدفعته الى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض الى خواجه جهان فقل له يعطى دينه فمضى اليه وأعلمه فقال نعم وأبطأ ذلك أياما وأمره السلطان فى خلالها بالسفر الى دولة آباد وفي أثناء ذلك خرج السلطان الى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيأ منها الا بعد مدة والسبب الذى توقف به عطاؤها اذكره مستوفي وهو انه لما عزم الذين كان لهم على الدين الى السفر قلت لهم اذا أنا أتيت دار السلطان فدرهوني على العادة في تلك البلاد لعلمي ان السلطان متى يعلم بذلك خلصهم وعادتهم انه متي كان لاحد دين علي رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فاذا أراد الدخول قال له درو هى السلطان وحق رأس السلطان ماتدخل حتى تخلصني فلا يمكنه أن يبرح من مكانه حتى يخلصه أو يرغب اليه فى تأخيره فاتفق يوما ان خرج السلطان الى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما أردت الدخول وقفوا الى بباب القصر فقالوا الى درو هى السلطان ماتدخل حتي تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى السلطان فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسألهم لاى شيء درهتموه فقالوا ان لنا عليه الدين فرجع الي السلطان فاعلمه بذلك فقال له اسألهم كم مبلغ الدين فسألهم فقالوا له خمسة وخمسون ألف دينار فعاد اليه فاعلمه فأمره أن يعود اليهم ويقول لهم ان خوند عالم يقول لكم المال عندي وأنا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وأمر عماد الدين السمنانى وخداوندزاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار اسطون ويأتى أهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويحققوها ففعلا ذلك وأتي الغرماء بعقودهم فدخلا الي السلطان وأعلماه بثبوت العقود فضحك وقال ممازحا أنا أعلم أنه قاض جهز شغله فيها ثم أمر خداوندزاده ان يعطيني ذلك من الخزانة فطمع فى الرشوة على ذلك وامتنع أن يكتب خط خرد فبعث اليه مائتى تنكة فردها ولم يأخذها وقال لى عنه بعض خدامه انه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك فأعلم به أباه وعلمه الوزير وكانت بينه

و بين خداوندزاده عداوة فاعلم السلطان بذلك وذكر له كثيراً من أفعال خداوندزاده فتغير خاطر السلطان عليه فأمر بحبسه في المدينة وقال لاي شيء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطي خداوندزاده شيئاً اذا منعته أو يمنعه اذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء ديني

﴿ ذكر خروج السلطان الى الصيد وخروجي معه وما صنعت في ذلك ﴾

ولما خرج السلطان الي الصيد خرجت معه من غير تربص وكنت قد أعددت ما يحتاج اليه وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراجة وهي أفراج وضربها هنالك مباح ولا بد منها لكبار الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالازرق واشتريت الصيوان وهو الذي يظلل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم اليكوانية والعادة هنالك أن يكتري المسافر اليكوانية وقد ذكرناهم ويكترى من يسوق له العشب لعلف الدواب لانهم لا يطعمونها التبن ويكتري الكهارين وهم الذين يحملون أواني المطبخ ويكتري من يحمله في الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكترى الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الاحمال على الجمال ويكترى الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكتريت أنا جميع من احتجت له منهم وأظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج السلطان وغيري أقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس ويعرف من تسارع الى الخروج ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسي فجئت وسلمت ووقفت في موقفي بالميمنة فبعث الى الملك الكبير قبولة سرجامدار وهو الذي يشرد الذباب عنه فأمرني بالجلوس عناية بي ولم يجلس في ذلك اليوم سوائي ثم أتي بالفيل والصق به سلم فركب عليه ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد الى السراجة وعادته اذا ركب أن يركب الامراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرناياته ويسمون ذلك المراتب ولا يركب أمام السلطان الا الحجاب وأهل الطرب

والطبالة الذين يتقلدون الاطبال الصغار والذين يضربون الصرنايات ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الامراء الكبار وبعض الاعزة وكنت أنا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والادلاء ويكون خلفه علاماته وهي من الحرير المذهب والاطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته وخلفهم الامراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فاذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد في منزله وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر او بين أشجار وتقدم بين يديه لحوم الاغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترون ذلك ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتي بالطعام ويستدعي من شاء فيأ كل معه وكان في بعض تلك الايام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندمائه ثم فلان المغربي وهو متغير فقال لماذا فقال بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يلحون في الطلب وكان خوندعالم قد أمر الوزير باعطائه فسافر قبل ذلك فان أمر مولانا ان يصبر أهل الدين حتي يقدم الوزير أو أمر بانصافهم وحضر لهذا الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال يا خوندعالم كل يوم هو يكلمنى بالعربية ولا أدري ما يقول يا سيدى ناصر الدين ماذا او قصدان يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لاجل الدين الذي عليه فقال السلطان اذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أو مارو معناه يا عم الى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضرا فقال يا خوندعالم انه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين وبعد هذا الكلام استحضرني السلطان للطعام ولا علم عندى بما جرى فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين اشكر للملك دولة شاه وقال لي الملك دولة شاه اشكر لخداوندزاده وفى بعض تلك الايام ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة وكان طريقه على منزلي وأنا معه فى الميمنة وأصحابي فى الساقة وكان لى خباء عند السراجة فوقف أصحابي

عندها وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا من تلك الاخبية والسراجة فقيل لهما الفلان فأخبراه بذلك فتبسم فلما كان بالغد نفذ الامر ان أعود أنا وناصر الدين مطهر الاوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح الى البلد فخلع علينا وعدنا الى الحضرة

﴿ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان﴾

وكان السلطان في تلك الايام سألني عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت له نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير الى مكة من مصر في عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد وأخبرته أن عندي جملا منها فلما عدت الى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من القير وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وأتقنه وكسوته بالملف وصنعت له ركبا وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء الى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال يا خوند عالم رأيت العجب قال وما ذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال ائتوا به فادخل الجمل داخل السراجة وأعجب به السلطان وقال لراجلي اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة وعاد الرجل الي فاعلمني فسرني ذلك وأهديت له جملين بعد عودته الى الحضرة

﴿ذكر الجملين اللذين أهديتهما اليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك﴾

ولما عاد الى راجلي الذي بعثته بالجمل فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة وجعلت لهما جلين من زردخانة مبطنين بالكمخا وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت أحد عشر طيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم

قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال فأمر بها فحركت بين يديه وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين بن الفلكي پايل وردارى معنى ذلك ارفع الخلخال فرفعه ثم نظر الى الطيافير فقال جدارى (جه دارى) درآن طبقها حلوا است معنى ذلك مامعك في تلك الاطباق حلواء هي فقلت له نعم فقال للفقيه ناصر الدين الترمذى الواعظ ماأكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها الينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيافير ان ترفع لموضع جلوسه الخاص فرفعت وقام الى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فأكلت ثم سألني عن نوع من الحلواء الذى بعثت له قبل فقلت له ياخوند عالم تلك الحلواء انواعها كثيرة ولا أدرى عن أي نوع تسألون منها فقال ائتوا بتلك الاطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها فقال عن هذا سألتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقيمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامرى وينتسب الى آل العباس رضى الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له السلطان والدى فحسدني وأراد أن يخجلني فقال ليست هذه لقيمات القاضى بل هي هذه وأخذ قطعة منى التى تسمى جلد الفرس وكان بازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان فقال له ياخواجة أنت تكذب والقاضى يقول الحق فقال له السلطان وكيف ذلك فقال ياخوند عالم هو القاضى وهى لقيماته فانه أتي بها فضحك السلطان وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنيهة وأتاني الخازن فقال ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت الى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين على وصرف الاثنى عشر ألفا التى أمر لي بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب

﴿ ذكر خروج السلطان وأمره لي بالاقامة بالحضرة ﴾

وفي تاسع جمادى الاولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية وقد تقدم ذكرهم فخرج الامر باقامتي في جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الاعزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئاً وأمر لي السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين الذي تقدم ذكره وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديداً لانه كان خديماله ولقد رأيته اذا أتي قبره يؤخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة وكان اذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالاخت وجعلها مع حرمه وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر واعتنى به من أجلها وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال أنا لا أودع ولا أفارق خوندعالم فكان له في ذلك الخير فقال له السلطان امض فتجهز للسفر وقدمت بعده للوداع وكنت أحب الاقامة ولم تكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لي تكلم بلسانك فقلت له إن خوندعالم أمرني بالقضاء وماقعدت لذلك بعد وليس مرادي من القضاء الا حرمته فأمرني بالقعود للقضاء وقعود النائبين معي ثم قال لي إيه فقلت وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل بها فاني رتبت فيها أربعمائة وستين شخصاً ومحصول أوقافها لايفي بمرتباتهم وطعامهم فقال للوزير بنجاه هزار ومعناه خمسون ألفاً ثم قال لابدلك من غلة بدية يعني أعطه مائة ألف من الغلة وهي القمح والارز ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلة الروضة والمن عشرون رطلا مغربية ثم قال لي وماذا أيضا فقلت ان أصحابي سجنوا بسبب القري التي أعطيتموني فاني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ماوصلني منها أو الاستظهار بأمر خوندعالم أن يرفع عني ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هي انعام عليك فقلت له وداري التي أمرتم لي بها مفتقرة الى البناء فقال للوزير

عمارة كنيدأي معناه عمروها ثم قال لي ديكر غاند فقلت له معناه هل بقي لك كلام فقال لي وصية ديكر هست معناه أوصيك أن لا تأخذ الدين لئلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك الى أنفق على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فأردت أن أقبل قدمه فمنعني وأمسك رأسي بيده فقبلتها وانصرفت وعدت الي الحضرة فاشتغلت بعمارة داري وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقي وبنيت بإزائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان السلطان قد أمر ان تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر ان تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها وجعلها بيدي على ان يكون لي العشر من فائدها على العادة

﴿ ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة ﴾

وعادة أهل الهند ترتيب الأموات ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم الختميين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية ورتبت لها مدرسا ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الامام والمؤذنين والقراء بالاصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالارباب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والابدارية وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطرداريه والطشتدارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين وكان السلطان أمر ان يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت ان ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد

بوكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح الى السلطان بدولة آباد فسأله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد فأعجب ذلك السلطان وبعث الي بخلعة من ثيابه وكنت أصنع في المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحمافيأ كل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل امام كل انسان منهم مايخصه ولنذكر عادتهم في ذلك

﴿ذكر عادتهم في اطعام الناس في الولائم﴾

وعادتهم ببلاد الهند وبلاد السرا انه اذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص وجعل عليه الرقاق ورأس غنم مشوى وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة باربع قطع من الحلواء كأنها الآجر وطبقا صغيراً مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضاً جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول مارأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك فامتنعت أن يرفع رجالي ذلك اذ لم يكن لي به عهد وكذلك يبعثون أيضاً لدار كبراء الناس من طعام الولائم

﴿ذكر خروجي الى هزار أمروها﴾

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف من ونفذ لي الباقي في هزار أمروها وكان والى الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين البذخشاني فبعثت رجالي فأخذوا بعض الاحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك أوان نزول المطر فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي واستصحبت معي أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لي في الطريق فوصلنا الي بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح

النون وآخره راء) فوجدت بها أيضاً ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لي نوبة والآخران نوبة ثم وصلنا الى أمروها وهي بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقائي وجاء قاضيها الشريف أمير علي وشيخ زاويتها وأضافاني معاضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أفغانبور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فأخذنا الاثقال في معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا في اليوم الثاني وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه وضرب لنا سراجة ثم جاء أخوه الى الوالي وكان معروفا بالظلم وكانت القرى التي في عمالته ألفا وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكا في السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه انه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد أقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه أحد غرفة ولا كدنا نقرب منه لانه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب ويمر على الحشاش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر وينزل منه الى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل وبهذا الموضع جاء الى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلي فبعث الي الوزير والى الملك شاه أمير المماليك بأمروها وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان والى شهاب الدين الرومي أن تنظر في قضيتهما فمن كان على الباطل بعثناه مثقفا الى الحضرة فاجتمعوا جميعاً بمنزلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى منها أن خديما له يعرف بالرضي الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن فاستفهمت الرضي عن ذلك فقال لي ماشربت الخمر منذ خروجي من ملتان وذلك ثمانية أعوام فقلت له أو شربتها بملتان قال نعم فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث ظهر عليه وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتي نحو شهرين وكنت في كل يوم أذبح لاصحابي بقرة وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ

على عز بز وحمله عليه فوزع على أهل القرى التي لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لا يحملون الا على البقر وعليه يرفعون أثقالهم في الاسفار وركوب الحمير عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة واذا أرادوا اشهار أحد بعد ضربه اركبوه الحمار

﴿ ذكر مكرمة لبعض الاصحاب ﴾

وكان السيد ناصر الدين الاوهرى قد ترك عندى لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها فلما عدت الي دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداوندزاده قوام الدين وكان قدم نائبا عن الوزير فاستقبحت أن أقول له تصرفت في المال فاعطيته نحو ثلثه وأقمت بداري أياما وشاع أني مرضت فأتي ناصر الدين الخوارزمى صدر الجهان لزيارتي فلما رآني قال ما أري بك مرضا فقلت له اني مريض القلب فقال لي عرفني بذلك فقلت له ابعث الي نائبك شيخ الاسلام أعرفه به فبعثه الى فاعلمته فعاد اليه فاعلمه فبعث الى بألف دينار دراهم وكان له عندى قبل ذلك ألفا نائبا ثم طلب مني بقية المال فقلت في نفسي ما يخلصني منه الا صدر الجهان المذكور لانه كثير المال فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة وقلت له انظر قيمة الجميع وابعث الي ذلك فاخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث الى ألفا واقتطع الالفين فتغير خاطري ومرضت بالحمى وقلت في نفسي ان شكوت به الى الوزير افتضحت فاخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني وهو فتي السن فردعلى ذلك وبعث الي مائتي تنكة واغزبو خلصت من ذلك المال فشتان بين فعل محمد ومحمد

﴿ ذكر خروجي الى محلة السلطان ﴾

وكان السلطان لما توجه الى بلاد المعبر وصل الي التلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد الى دولة آباد ثم وصل الى نهر الكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت في تلك الايام الى محلته

واتفق ماسردناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان في تلك الايام وأعطاني من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه وجعلني فيهم وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالارعود (مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه الى حضرة دهلى لما عاد اليها

﴿ ذكر ماهم به السلطان من عقابي وماتداركني من لطف الله تعالى ﴾

وكان سبب ذلك اني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام بالغار الذي احتفره خارج دهلى وكان قصدى رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره فذكروا ناسا أنا من جملتهم فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور وعادته انه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة فالهمني الله تعالى الى تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة وبت بالمشور وواصلت الى خمسة أيام فى كل يوم منها اختم القرآن وافطر على الماء خاصة ثم أفطرت بعد خمس وواصلت أربعا وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى

﴿ ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا ﴾

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغارى وكان من الاولياء وله كرمات كثيرة قد ذكرت منها ماشاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت الى خدمة هذا الشيخ ووهبت ماعندى للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين فكنت أحب ان أواصل فكان ينهانى ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة ويقول لي ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وظهر لى من نفسي تكاسل بسبب شئ بقي معي فخرجت عن جميع ماعندى من قليل وكثير وأعطيت ثياب ظهرى لفقير ولبست ثيابه ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان اذذاك غائب ببلاد السند

﴿ ذكر بعث السلطان عني وآبايتي عن الرجوع الى الخدمة واجتهادى في العبادة ﴾

ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسيوستان فدخلت عليه

في زي الفقراء فكلمني أحسن كلام وألطفه وأرادني الرجوع الى الخدمة فأبيت وطلبت منه الاذن في السفر الى الحجاز فاذن لي فيه وانصرفت عنه ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة الى الملك بشير وذلك في أواخر جمادي الثانية سنة ثنتين وأربعين فاعتكفت بها شهر رجب وعشرا من شعبان وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام وأفطرت بعدها على قليل أرز دون ادام وكنت أقرأ القرآن كل يوم وأتهجد بما شاء الله وكنت اذا أكلت الطعام أذاني فاذا طرحته وجدت الراحة وأقمت كذلك أربعين يوما ثم بعث عني ثانية

﴿ ذكر ما أمرني به من التوجه الى الصين في الرسالة ﴾

ولما كملت لي أربعون يوما بعث الى السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها أيام اعتكافي فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسي وكنت متى نظرت الى تلك الجبة أجد نورا في باطني ولم تزل عندي الي ان سلبني الكفار في البحر ولما وصلت الى السلطان زاد في اكرامي على ما كنت أعهده وقال لي انما بعثت اليك لتتوجه عني رسولا الى ملك الصين فاني أعلم حبك في الاسفار والجولان فجهزني بما احتاج له وعين للسفر معي من يذكر بعد

﴿ ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معي وذكر الهدية ﴾

وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا وخمسة أمنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر وخمسة من التراكش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت الاصنام الذي بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذي هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) " ، يحجه أهل الصين وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوه وسلبوه فلما وصلت لطان كتب اليه بأن هذا المطلب لايجوز في ملة الاسلام اسعافه ولا يباح المسلمين الالمن يعطي الجزية فان رضيت باعطائها أبحنالك بناءه م الهدي وكافأه عن هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد

مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاي) وهي التي يكون حرير احداها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف وخمسمائة ثوب من المرعز مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من الكتان الرومي ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب وأربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه احداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة وأحدها مرصع بالجوهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الغمد بالجوهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان وعين السلطان للسفر مع بهذه الهدية الامير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء أهل العلم والفتى كافور الشربدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الامير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا الى الموضع الذي نركب منه البحر وتوجه صحبتنا ارسال ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي ورحلنا منها الى منزل أوو ورحلنا منه الى منزل هيلو ورحلنا منه الى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الاسواق ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والامير بها مظفر ابن الداية وأمه هي

داية السلطان وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب في قريش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من أهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في أسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فاشتكى الناس من الملك مجير المذكور فأمر السلطان بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير وأهل البلد يكتبون عليه المظالم فأمره السلطان بارضائهم فأرضاهم بالاموال ثم قتله بعد ذلك ومن كبار أهل هذه المدينة الامام العالم عز الدين الزبيرى من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد كبار الفقهاء الصلحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف بأعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الي مدينة كول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه وقد ذكرنا حديثه

﴿ ذكر غزوة شهدناها بكول ﴾

ولما بلغنا الى مدينة كول بلغنا ان بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي وأحاطوا بها وهي على مسافة سبعة من كول فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم في نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقي الذى كانت الهدية مسلمة بيده فكتبنا الي السلطان بخبره وأقمنا في انتظار الجواب وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالي وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم

﴿ ذكر محنتي بالاسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده
على يدولي من أولياء الله تعالى ﴾

وفى بعض تلك الايام ركبت في جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالي فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا فى طلبهم وانفردت فى خمسة من أصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عني الا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدى وتلك الارض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسي بين الحجارة فنزلت عنه واقامت يده وعدت الى ركوبه والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان أحدهما معلق بالسرج ويسمي الركابي والآخر في التركش فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حليته ذهبا فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت وهم فى أثرى ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه فكان آخر عهدى بهم ثم خرجت الى وادفى وسط شعر ملتفة في وسطها طريق فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه فبينا أنا في ذلك خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بايديهم القسى فاحدقوا بى وخفت أن يرمونى رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فالقيت بنفسي الى الارض واستأسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فأخذوني وسلبوني جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بي الى تلك الغابة فانتهوا بي الى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الاشجار وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسألاني عن شأني فاخبرتهما ببعضه وكتمتهما اني من جهة السلطان فقالا لي لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ولكن هذا مقدمهم وأشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بى ثلاثة منهم أحدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمني أولئك الثلاثة ففهمت منهم انهم أمروا بقتلي واحتملوني عشى النهار الي كهف وسلط الله علي الاسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه على ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا الي بالنزول معهم الى الحوض وفهمت انهم يريدون قتلى فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لى وقطعت كمي قميصي وأعطيته اياهما لكى لا يأخذه أصحابه في ان فررت ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا انهم أصحابهم

فأشاروا الى بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فأشاروا عليهم ان يذهبوا في صحبتهم فأبوا وجلسوا ثلاثتهم امامي وأنا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وأنا أنظر اليهم وأقول في نفسي بهذا الحبل يربطونني عند القتل وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لاي شيء ما قتلتموه فأشار الشيخ الى الاسود كأنه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي أتريد أن أسرحك فقلت نعم فقال اذهب فأخذت الجبة التي كانت علي فأعطيته اياها وأعطاني منيرة بالية عنده وأراني الطريق فذهبت وخفت ان يبدو لهم ويدركوني فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها الى ان غابت الشمس ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب فأفضت بي الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل فوصلت الى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجني النبق فآكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها وسنذكر بعد ما رأيناه منها فيما بعد ولما وصلت الى الباين شربت منه ووجدت عليه شيأ من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فأكلت منها وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع فبينما أنا كذلك اذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل بعضهم الى المزرعة ثم ذهبوا وطمس الله أبصارهم دوني ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الى الباين وأتى أحدهم الى شجرة ازاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي ودخلت اذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري وأقاموا على الباين يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت انهم قد مروا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت الى باين آخر عليه قبة فنزلت اليه وشربت من مائه وأكلت من

عساليج الخردل التي كانت عندي ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان في تلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي الى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما وفي بعضها وصلت الي أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره فاردت ان أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الي العمارة ثم اني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل فاذا تلك الطريق تفضي الى قري الكفار فاتبعت طريقا أخرى فافضت بي الى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما وأقمت تحت أشجار هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين وأقمت على تلك الحالة سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت وفي السابع منها وصلت الى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني فوجدت حول بئر بها أوراق فجل فاكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه وقعدت الى الارض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به فلم ألتفت اليه لعظيم ما بي من الجهد ففتشني فلم يجد عندي شيأ فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل بي ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت الي قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القري ان يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة فاتبعت طريقا فافضت بي الي بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الارض وليس فيه آنية يستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني فربطت خفي واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى

رويت ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك فبينا أنا أربطها وأفكر في حالي اذ لاح لي شخص فنظرت اليه فاذا رجل أسود اللون بيده ابريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لي سلام عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لي بالفارسية جيكس (جه كسي) معناه من أنت فقلت له أنا تائه فقال لي وأنا كذلك ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت أن أشرب فقال لي اصبر ثم فتح جرابه فاخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز فاكلت منه وشربت وتوضأ وصلي ركعتين وتوضأت أنا وصليت وسألني عن اسمي فقلت محمد وسألته عن اسمه فقال لي القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به ثم قال لي باسم الله ترافقني فقلت نعم فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا في أعضائي ولم أستطع النهوض فقعدت فقال ما شأنك فقلت له كنت قادرا على المشي قبل ان ألقاك فلما لقيتك عجزت فقال سبحان الله اركب فوق عنقي فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك فقال يقويني الله لا بد لك من ذلك فركبت على عنقه وقال لي أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل فاكثرت من ذلك وغلبتني عيني فلم أفق الا لسقوطي على الارض فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا واذا أنا في قرية عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بي فجاء الي فقلت له ما اسم هذه القرية فقال لي تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحملني ذلك الحاكم الى بيته فاطعمني طعاما سخنا واغتسلت وقال لي عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول فقلت له هاتهما ألبسهما الى أن أصل الى المحلة فأتي بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول فطال تعجبي من ذلك وأفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدى حسبما ذكرناه في السفر الاول اذ قال لي ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد فعلمت انه هو الذي أخبرني بلقائه وانه من الاولياء ولم يحصل لي من صحبته الا المقدار الذي ذكروا اتيت تلك الليلة الى أصحابي بكول فاعلمتهم بسلامتي فجاؤوا الى بفرس

وثياب واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار عوضا من كافور المستشهد وأمرنا ان نتمادي على سفرنا ووجدتهم أيضا قد كتبوا السلطان بما كان من أمرى وتشاءموا بهذه السفرة لما جري فيها علي وعلى كافور وهم يريدون أن يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم وقوي عزمي فقالوا ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنرجع اليه أو نقيم حتي يصل جوابه فقلت لهم لا يمكن المقام وحيث ما تنا أدركنا الجواب فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمي بمحمد العريان لانه لا يلبس عليه الا ثوبا من سرته الى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به

﴿حكاية هذا الشيخ﴾

وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجريد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته الى أسفل ويذكر انه كان اذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق ذلك على المساكين ورمي بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم وكانت عادته ان يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته فيأخذ منهم مقدار مايكفي الفقراء ويقول لمن أخذ منه ذلك اقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا ومن حكاياته انه لما وصل قازان ملك التتر الى الشام بعساكره وملك دمشق ماعدا قلعتها وخرج الملك الناصر الى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر اذذاك حديث السن لم يعهد الوقائع وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه ولم يعد التتر الى قصد بلاد الاسلام بعدها وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ انه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه ثم رحلنا الي مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو

ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دهلي وعليها سور عظيم وقد تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا بها وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الاخلاق يعرفون باولاد شرف جهان وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه

﴿ حكاية له ﴾

يذكر انه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعي أحدهم عند القاضي الذى ولى بعده ان له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده ان يحلفه فبعث القاضي عنه فقال لرسوله بم ادعى على فقال بعشرة آلاف دينار فبعث الى مجلس القاضي عشرة آلاف وسلمت للمدعي وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فاعاده الى القضاء وأعطاه عشرة آلاف وأقنا بهذه المدينة ثلاثا ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه ان لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا منه ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة ثم وصلنا الى مدينة مورى (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمي بحيدر الفرغاني وكان بحال مرض فدعالي وزودني رغيف شعير وأخبرني ان عمره ينيف على مائة وخمسين وذكر لي أصحابه انه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ويكثر الاعتكاف وربما أقام في خلوته أربعين يوما يقتات فيها بأربعين تمرة في كل يوم واحدة وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمى برجب البرقعي دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة ثم رحلنا ووصلنا الى مدينة مره وضبط اسمها (بفتح الميم وسكون الراء وهاء) وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها ومنها يحمل الى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أر قمحا مثله الا بأرض الصين وتنسب هذه المدينة الى المالوة (بفتح اللام) وهي قبيلة من قبائل الهنود

ضخام الاجسام عظام الخلق حسان الصور لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظ من اللذة وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل ثم سافرنا الى مدينة علابور (وضبط اسمها بفتح العين ولام وألف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو سلطان جنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مدولام) الذى حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك

﴿ حكايته ﴾

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابرى وهي على نهر اللجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الافغان وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمي رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور وحاصرا مدينة رابرى فبعث خطابا الى السلطان يطلب منه الاعانة فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الافغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك ونحو أربعمائة من سائر الناس وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند اذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم باذن الله وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما الى السلطان ولم ينج من الكفار الى الشريد

﴿ ذكر أمير علابور واستشهاده ﴾

وكان أمير علابور بدر الحبشى من عبيد السلطان وهو من الابطال الذين تضرب بهم الامثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبى حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طوالا ضخما يأكل الشاة عن آخرها فى أكلة وأخبرت انه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان له ابن يدانيه فى الشجاعة فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية

للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقودة وتاء معلوة) حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقى فقتله بتلك الضربة ومات فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأتوا به ولده فكان من الاتفاق الغريب انه ركب الفرس وتوجه الى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس الى أصحابه فدفعوه الى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا ثم سافرنا الى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضاً كياليرو هي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني أيام اقامتي عنده قبل هذه السفرة ودخلت عليه يوماً وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فاني ما رأيت أحداً قط يقتل بمحضري فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه ثم رحلنا من مدينة كاليور الى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الاصل والسباع بها كثيرة وذكر لي بعض أهلها ان السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيراً وكانوا يعجبون في شأن دخوله وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جاراً لي بها انه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير وأخبرني غيره انه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه وذكروا انه كذلك فعله بالناس ومن العجب ان بعض الناس أخبرني ان الذي يفعل ذلك ليس بسبع وانما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع ولما أخبرت بذلك أنكرته وأخبرني به جماعة ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة

﴿ ذكر السحرة الجوكية ﴾

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها ان أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له الا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور وسمعت ان بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدي والناس يذكرون انهم يركبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو أشهر فلا يحتاج في تلك المدة الى طعام ولا شراب ويخبرون بامور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الاكثرون والظاهر من حالهم انهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة انه اذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجدوه دون قلب ويقولون أكل قلبه وأكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمي كفتار

﴿ حكاية ﴾

لما وقعت المجاعة العظمي ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التلنك نفذ أمره أن يعطي لاهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الامراء والقضاة ليتولوا اطعامهم فكان عندى منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف في داري وأسكنتهم بها وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام في خمسة أيام فلما كان في بعض الايام اتوني بمرأة منهم وقالوا انها كفتار وقد أكلت قلب صبي كان الي جانبها وأتوا بالصبي ميتاً فامرتهم ان يذهبوا بها الى نائب السلطان فامر باختبارها وذلك بأن ملؤا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق فعلم انها كفتار ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار فامر باحراقها بالنار وأتوا أهل البلد رجالا ونساء فاخذوا رمادها وزعموا انه من تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار

﴿ حكاية ﴾

بعث الي السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو في خلوة وعند بعض خواصه

ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم فامرني بالجلوس فجلست فقال لهما ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فارياه مالم يره فقالا نعم فتربع احدهما ثم ارتفع عن الارض حتي صار في الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وادركني الوهم فسقطت الى الارض فامر السلطان ان أسقي دواء عنده فأفقت وقعدت وهو علي حاله متربع فاخذ صاحبه نعلاله من شكارة كانت معه فضرب بها الارض كالمغتاظ فصعدت الى ان علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب في عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتي جلس معنا فقال لي السلطان ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا اني أخاف علي عقلك لامرتهم ان يأتوا بأعظم مما رأيت فانصرفت عنه وأصابني الخفقان ومرضت حتي أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون الى منزل أمواري ثم الى منزل كجرا وبه حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الاصنام قد مثل بها المسلمون وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر علي ثلاث طباق وعلى أركانه الاربعة أربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبدوا شعورهم وطالت حتي صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الالوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ويذكرون ان من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحوا الخمسين حفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة وشأنهم كله عجب ومنهم الرجل الذى صنع للسلطان غياث الدين الدمغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً يأكلها تقوية علي الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فاعجبه فعلها فاكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات وولى ابن أخيه ناصر الدين فاكرم هذا الجوكي ورفع قدره ثم سافرنا الي مدينة جنديري (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مدور راء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتاني (بالباء الموحدة ثم النون

ثم التاء المثناة مفتوحات ثم ألف ونون) وهو المدعو باعظم ملك وكان خير أفاضلا يجالس أهل العلم وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري والفقيه العالم وجيه الدين البياني نسبة الى مدينة بيانة التي تقدم ذكرها والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصة وامامهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور الخزن يسمى قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر الا في يوم الجمعة أو في غيرها نادراً ثم سرنا من جنديري الى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهي مدينة المالوة أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دهلي وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له الى المنزل أو الى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الاعمدة فعرفه ومدينة ظهار اقطاع للشيخ ابراهيم الذي من أهل ذيبة المهل ﴿حكاية﴾ كان هذا الشيخ ابراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فاحيي أرضا مواتا هنالك وصار يزدرع بها بطيخا فتأتي في الغاية من الحلاوة ليس بتلك الارض مثلها ويزرع الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان الى بلاد المعبر أهدى اليه هذا الشيخ بطيخاً فقبله واستطابه واقطعه مدينة ظهار وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا فضل مما كنت أطعمه الناس وبيت المال أحق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في اطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان ان يفتك بخاله ويستولي على أمواله ويسير الى القائم ببلاد المعبر فنما خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الامراء وبعثهم الى السلطان فقتل الامراء ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير

﴿حكاية﴾

ولما رد ابن أخت الوزير اليه أمر به ان يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها

وأطعمها التنبول وأطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملئ تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها في بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فاخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد وسمي ذلك قبور (كور ؛ عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الاصل ثم سافرنا من مدينة أجين الى مدينة دولة آباد وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلى في رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة أقسام أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره والقسم الثاني يسمى الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التي بينهما) والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مدوراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان بها وبلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها الحكمه ونوابه فيها وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الارض قد نحتت وبني بأعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون بأولادهم وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جبوب بها وبها فيران ضخام أعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لانها تغلبها ولا تصاد الا بحيل تدار عليها وقد رأيتها هنالك فعجبت منها

﴿ حكاية ﴾

أخبرني الملك خطاب الافغاني انه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران قال فكانت تجتمع علي ليلا لتأكلني فاقاتلها وألقى من ذلك جهدا ثم اني رأيت في النوم قائلا يقول لي اقرأ سورة الاخلاص مائة ألف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما أتممتها أخرجت وكان سبب خروجي ان ملك مل كان مسجونا في جب يجاورني فمرض وأكلت

الفيران أصابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان فقال اخرجوا خطا بالثلاي يتفق له مثل ذلك والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضي جلال حين هزمهما السلطان وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الانوف والحواجب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه بالهاء والسين وهم مثل الأكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والرمان ويثمران مرتين في السنة وهي من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها وأخبرت ان بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لك واللك مائة ألف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقي عليه بقية وأخذ ماله وسلخ جلده

﴿ ذكر سوق المغنيين ﴾

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الاسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي الى دار صاحبه وللدار باب سوى ذلك والحانوت مزين بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بأنواع الحلي وجواريها يحركن مهدها وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف وفي تلك السوق المساجد للصلاة ويصلي الائمة فيها التراويح في شهر رمضان وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغني المغنيات بين يديه وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً ثم سافرنا الى مدينة نذربار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحتين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الاتقان في الصنائع والاطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكتريون أيضا وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب

الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للاكل كغسل الجنابة ولا ينكحون في أقاربهم الا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد لا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم حد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضاً صاغر كاسمها وعليه النواعير والبساتين فيها العنبا والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لاولاده فان انقرضوا عاد النظر للقضاة والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك باهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف ثم سافرنا من صاغر المذكورة الى مدينة كنباية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فاذا كان المد عامت في الماء وهذه المدينة من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك ان أكثر سكانها التجار الغرباء فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون في ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي اتفقت لي معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة والى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازروني والى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز ومعناه خياط الشواشي

(حكاية)

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الافغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا في حفر خندق عليها اذ لا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة وخافوا ان يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم

فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها واعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنباية حين وصلنا اليها مقبل التلنكي وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان في صحبته الشيخ زاده الاصبهاني نائبا عنه في جميع أموره وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ولا يزال يبعث الاموال الى بلاده ويحيل في الفرار وبلغ خبره الى السلطان وذكر عنه انه يروم الهروب فكتب الى مقبل ان يبعثه فبعثه على البريد واحضر بين يدي السلطان ووكل به والعادة عندهم انه متى وكل بأحد فقلما ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه اياه وهربا جميعاً وذكر لي أحد الثقاة انه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهات وانه وصل بعد ذلك الى بلادهم فحصل على أمواله وآمن مما كان يخافه

﴿ حكاية ﴾

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر ان جلس قاضي المدينة وهو أعور العين اليمنى وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره الا انه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضي ويضحك فزجره القاضي فقال له لا تزجرني فاني أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى فضحك الامير والحاضرون وخجل القاضي ولم يستطع ان يرد عليه لان الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا اليه وأكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنباية حين خلافه انه أتاه وذكر للسلطان انه دعا له فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري وكان بها أيضاً من الصالحين التاجر خواجه اسحق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمي ويزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة الى بلدة كاوي وهي على خور فيه المد والجزر من بلاد الرى جالنسي الكافر وسنذكره وسافرنا منها الى

مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء وألف وراء) وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الاسلام ويعطي لملك الهند هدية كل عام ولما وصلنا الي قندهار خرج الى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فأنزلنا به وجاء الينا من عنده من كبار المسلمين كاولاد خواجه بهره ومنهم الناخودة ابراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبنا البحر

﴿ ذكر ركوبنا البحر ﴾

وركبنا في مركب لابراهيم المذكور تسمي الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لاخي ابراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون وواو مدوراء مسكن وتاء مسلوة) واعطانا جالنسي مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولده في مركب يسمى العكيري (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الغراب الا أنه أوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شئ من السهم ولا الحجارة وكان ركوبي أنا في الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهى خالية وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبني سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثاني الى مدينة قوقة وهي (بضم القاف الاولى وفتح الثانية) وهى مدينة كبيرة عظيمة

الاسواق أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت فى عشارى مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل اليها فوحل العشاري في الطين وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكأ على رجلين من أصحابي وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي اليها وأنا لا أحسن السباحة ثم وصلت اليها وطفت باسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت الى المركب

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطانها كافر يسمي دنكول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو فى الحقيقة عاص ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام الي جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل وألف وباء موحدة وواو مدوراء) وهى جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب واذا كان المد فهو ملح أجاج وفي وسطها مدينتان احداهما قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الاول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنورى وسيأتى ذكره وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني ان شاء الله وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها وارسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا بها أحد الجوكية

(حكاية هذا الجوكى)

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغري وجدنا بها جوكيا مستندا الى حائط بدخانة وهي بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها وأتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى فدفعها

لي وكانت بيدى سبحة زيلع فقلبها في يدى فاعطيته اياها فقر كها بيده وشمها وقبلها وأشار الى السماء ثم الى سمت القبلة فلم يفهم أصحابي اشارته وفهمت انا عنه انه أشار انه مسلم يخفي اسلامه من أهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما اودعناه قبلت يده فأنكر أصحابي ذلك ففهم انكارهم فأخذ يدى وقبلها وتبسم وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي اليه فأعطاني عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي لم جذبك فقلت لهم أعطاني هذه الدنانير وأعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم الا ترون كيف أشار الى السماء يشير الى انه يعرف الله تعالى وأشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام وأخذه السبحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك اليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغد وصلنا الى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وواو وراء) وهى على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفي أيام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه الا للتصيد فيه وفي يوم وصولنا اليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة وأعطاني ستة دنانير وقال لي البرهمن بعثها اليك يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة وأعطاني الدنانير فأخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف وأخبرت أصحابي بالقضية وقلت لهما ان شئتما فخذا نصيبكما منها فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه وقالا لى ان الدنانير الستة التي أعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين حيث وجدناها فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في البحر وقوة وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم السندابور وسنذكر ذلك ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقورى أضافني بزاويته وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضي بها نور الدين عليا والخطيب لا أذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط انما يلبسن ثيابا غير مخيطة

تحتزم احداهن باحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجعل احداهن خرص ذهب في أنفها ومن خصائصهن انهن جميعاً يحفظن القرآن العظيم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ولم أر ذلك في سواها ومعاش أهلها من التجارة في البحر ولا زرع لهم وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيأ معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة

*(ذكر سلطان هنور)

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سنذكره والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة وعادته أن يأتي الى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلي أول الوقت ثم يركب الى خارج المدينة ويأتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل الى قصره وهو يصوم الايام البيض وكان أيام اقامتي عنده يدعوني للافطار معه فأحضر لذلك ويحضر الفقيه علي والفقيه اسمعيل فتوضع أربع كراسي صغار على الارض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسي

(ذكر ترتيب طعامه)

وترتيبه أن يؤتي بمائدة نحاس يسمونها اخونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة وتجعلها في الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح فاذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة فيؤكل بها الأرز أيضاً فاذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فاذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضاً

فاذا فرغت الوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والالبان فيأكلون بها الارز فاذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون طعامهم فاذا وضع علم أنه لم يبق شئ يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء السخن لان الماء البارد يضر بهم في فصل نزول المطر ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهراً لم آكل خبزاً انما طعامهم الارز وبقيت أيضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الا الارز حتى كنت لا استسيغه الا بالماء ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشد في وسطه فوطة ويلتحف ملحفتين احداهما فوق الاخرى ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة واذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال وكانت اقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام وزودنا وسافرنا عنه وبعد ثلاثة أيام وصلنا الى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة وألف وراء) وهي بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور الي كولم والطريق في جميعها بين ظلال الاشجار وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها فمن كان كافراً سقاه في الاواني ومن كان مسلماً سقاه في يديه ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار ان لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في أوانيهم فان طعم فيها كسروها أو أعطوها للمسلمين واذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الادام وما فضل عنه يأكله الكلاب والطير وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون اليه ويطبخون لهم الطعام ولولاهم لما سافر فيه مسلم وهذا الطريق الذي ذكرنا انه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فأفوقه دون عمارة وكل انسان بستانه على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب والطريق يمر في البساتين فاذا انتهي الى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر هكذا

مسيرة الشهرين ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل الا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين ومن لم يركب في دولة مشى على قدميه كائنا من كان ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفي أعلاه مخطاف حديد فاذا أعيي ولم يجد دكانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه فاذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت ان بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره الى الحاكم فأمر بعود فركز في الارض وبرى طرفه الاعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فاذا راونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز والمسلمون أعز الناس بها غير انهم كما ذكرناه لا يواكلونهم ولا يدخلونهم دورهم وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ويسمونه باب أمان فلان واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وان كان القوي صاحب العدد والجيوش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون أولادهم ولم أر من يفعل ذلك الا مسوفة أهل اللثام (اللثام) وسنذكرهم فيما بعد فاذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الاشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الاغصان

﴿ ذكر الفلفل ﴾

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب وهم يغرسونها ازاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي الا انها ليس لها عسلوج وهو الغزل كالدوالي واوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العايق ويثمر عناقيد صغار حبها كحب أبي قنينه اذا كانت خضرا واذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونه حتي يستحكم يبسه ويسود ثم يبيعونه من التجار والعامة ببلادنا يزعمون انهم يقلونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (بفتح السين) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة أحد الكرماء أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين المذكور مسجدا لاقامة الجمعة

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو) وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمي لولا وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده فأقام بالمركب كالرهينة ونزلنا اليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما السلطان الهند وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من ارسائه بها واعطائه هديه لصاحب البلد يسمونها حق البندر ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن

السفر ما شاؤا وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور يسمي خور الدنب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة) وهو أكبر خور ببلاد المليبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رامدو (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو) وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمي بدر الدين المعبري وهو يقرئ العلم صعد الينا الى المركب ورغب منا في النزول الى بلده فقلنا حتي يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب فقال انما فعل ذلك سلطان فاكنور لانه لا قوة للمسلمين في بلده واما نحن فالسلطان يخافنا فابينا عليه الا ان بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر ونزلنا اليهم وأكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عندهم ثلاثة أيام ثم سافرنا الى مدينة هيلي فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسور وياء مد ولام مكسور) وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ولا تدخل الا مرساها ومرسي كولم وقالقوط ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فانه عظيم البركة مشرق النور وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولاطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيت بهذا فقيها صالحا من أهل مقدشوا يسمي سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكر لي انه جاور بمكة أربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الامير بمكة أبا نمي والامير بالمدينة منصور بن جماز وسافر في بلاد الهند والصين

ثم سافرنا من هيلي الى مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المثناة وتشديدها وآخره نون) وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيهاً من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري نسبة الى بلدة على مسافة عشر أميال من بغداد في طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار وصى اليه بهم وتركته آخذاً في حملهم الى بغداد وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف انما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف على لفظ التصغير وهو من أكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن ومن بلاده دهفتن وبدفتن وسنذكرهما وسرنا من جرفتن الى مدينة دهفتن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمناً وفيها الباين الاعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربع مجالس وذكر لي ان والد هذا السلطان كويل هو الذي عمر هذا الباين وبازائه مسجد جامع المسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثني الفقيه حسين ان الذي عمر المسجد والباين أيضاً هو أحد أجداد كويل وانه كان مسلماً ولاسلامه خبر عجيب نذكره

﴿ ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بازاء الجامع ﴾

ورأيت أنا بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين الا انها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت

الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وأخبرت هنالك انه اذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد ان يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد رسول الله وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرؤا المكتوب الذى فيها وأخبرني انه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها فى خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها المرضي وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جد كويل الذى عمر المسجد والباين فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن اسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثني الفقيه حسين ان أحدا أولاده كفر بعد أبيه وطغي وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعا ثم سافرنا الى مدينة بدفتن وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي اليه غرباء المسلمين لانه لا مسلم بهذه المدينة ومرساها من أحسن المراسي وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون فى المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

﴿حكاية﴾

أخبرت ان سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ان أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو واولاده ومتاعه فاحترموا هذا المسجد ولم يعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحين وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات فى كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها الى مدينة

قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثاني وآخره طاء مهمل) وهي احدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطانها كافر يعرف بالسامري شيخ السن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها وسنذكره ان شاء الله وأمير التجار بها ابراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون في سماطه وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني وبه تعطي النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي اسحق الكازروني نفع الله به وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمي بقلاج (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الاطبال والانفار والابواق والاعلام في مراكبهم ودخلنا المرسي في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار وأقمنا ننتظر زمان السفر الي الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها

﴿ ذكر مراكب الصين ﴾

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمي الجنوك واحدها جنك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة تسمي الزو (بفتح الزاي وواو) والصغار يسمي أحدها الككم (بكافين مفتوحين) ويكون في المركب الكبير منها اثناعشر قلعا فما دونها الي ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها ألف

رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة أذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الاسفل ودفعوهما في البحر وأتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب ووكيل المركب كأنه أمير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والاطبال والابواق والانفار أمامه واذا وصل الى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة اقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه الى البلاد وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين

﴿ ذكر أخذنا في السفر الى الصين ومنتهى وذلك ﴾

ولما حان وقت السفر الى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكا من الجنوك الثلاث عشر التي بمرسى قالقوط وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي وبيني وبينه معرفة فقلت له أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لاجل الجواري ومن عادتي أن لا أسافر الا بهن فقال لي ان تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ولصهري مصرية

أعطيكها لكنها لا ستداس فيها وعسى أن تمكن معاوضتها فأمرت أصحابي فاوسقوا ما عندي من المتاع وصعد العبيد والجوارى الى الجنك وذلك في يوم الخميس وأقمت لأصلى الجمعة والحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم ان فتى لى يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال ان المصرية التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك للناخودة فقال ليست فى ذلك حيلة فان أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاوى على اختيارك فقلت نعم وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع الي الككم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندريناو الككم المذكور فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود الى الككم ولا يستطيع من فيه النزول الينا ولم يكن بقى معي الا بساط افترشه وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فندرينا فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في اعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة فى مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فاخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير وقال انما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان الليل رمي البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح الي مصارعهم ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضربه مسمار فى أحد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفناهما ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفى وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته الى ركبته وفى رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه فى الساحل وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمى البحر وعادة بلاد المليبار ان كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا فى هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رأي أهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري وبقيت منفردا على

الساحل ليس معي الافتي كنت أعتقته فلما رأي ماحل بي ذهب عني ولم يبق عندى الا العشرة الدنانير التى أعطانيها الجوكى والبساط التى كنت أفترشه وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بدله أن يدخل مرسي كولم فعزمت على السفر اليها وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك فسافرت فى النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لى البساط وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر ان ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقري التى على حافتيه ثم يعودوا الي المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم الا الذى اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد على فيزيد تغيير خاطرى ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا الى كنجي كري (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهى باعلي جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

﴿ ذكر القرفة والبقم ﴾

وجميع الاشجار التى على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق وفي اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهي من أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصوليين (بضم الصاد) لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجي من أهل آوة من بلاد العراق وهو رافضي ومعه أصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيها فاضل من أهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهذب وهذه المدينة أول مايلى الصين من بلاد المليبار واليها يسافر أكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو كافر يعرف بالتيروري (بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء مفتوحين وراء مكسور

وباء) وهو معظم للمسلمين وله أحكام شديدة على السراق والدعار

﴿ حكاية ﴾

ومما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الأوجي وكان له مال كثير وأراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به وتركوه في تابوته على باب الاوجي حتى أنتن وتغير فمكنهم الاوجي من القاتل ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حياً فابوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول

﴿ حكاية ﴾

أخبرت ان سلطان كولم ركب يوماً الى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع عن كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

﴿ حكاية ﴾

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط ان ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفاً لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك الى عمه فوعده بالنظر في أمره وقعد على باب داره فاذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لأعوانه امسكوه ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قالقوط فلم أتعرف للككم خبراً وفي أثناء مقامي بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا وكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضاً فكساهم تجار الصين وعادوا الى بلادهم ولقيتهم بها بعد واردت أن أعود من كولم الى السلطان لاعلمه بما اتفق على الهدية ثم خفت ان يتعقب فعلي ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة الى السلطان جمال الدين الهنوري وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الككم فعدت الى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميراً من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن وهو من البردارية وهم خواص البوابين بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته في العرب

فتوجهت الى هذا الامير ورأيته عازما على ان يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر الى بلاد العرب فشاورته في العودة الى السلطان فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من قالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الاول ثم نرسوا الى الغد ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية فخفنامنها ثم لم يعرضوا لنا بشر ووصلنا الى مدينة هنور فنزلت الى السلطان وسلمت عليه فانزلني بدار ولم يكن لي خديم وطلب مني ان أصلي معه الصلوات فكان أكثر جلوسي في مسجده وكنت أختم القرآن كل يوم ثم كنت أختم مرتين في اليوم أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت فيها أربعين يوما

﴿ ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور ﴾

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور. وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف فكتب ولده الى السلطان جمال الدين ان يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان أخته فلما تجهزت المراكب ظهر لي ان أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف أنظر فيه فكان في أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك وأتى السلطان الى صلاة العصر فقلت له إني أريد السفر فقال فأنت اذا تكون أميرهم فاخبرته بما خرج لي في أول الصفح فأعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وأنا معه وذلك في يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة فلما أصبح ضربت الطبول والانفار والابواق وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترسة والسيوف ونزل السلطان الي العكيرى وهو شبه الشليرو ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه

فى جوفها ويتدرع ويخرج ففعلوا ذلك وأذن الله في فتحها وأنزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار في قصر سلطانها فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم ثم ان السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر وأعطي الديار بقربة منه لاهل دولته وأعطاني جارية منهن تسمي لمكي فسميتها مباركة وأراد زوجها فداءها فأبيت وكساني فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادي الاولى الى منتصف شعبان وطلبت منه الاذن في السفر فأخذ على العهد فى العودة اليه وسافرت في البحر الى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلي ثم الى جرفتن ودهفتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهي بالشين المعجم وألف ولام وياء آخر الحروف وألف وتاء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها وأقمت بها فطال مقامى فعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لي بالكلم فأخبراني ان الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطري توفيت وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري واستولت الأيدى على المتاع وتفرق أصحابي الى الصين والجاوة وبنجالة فعدت لما تعرفت هذا الى هنور ثم الى سندابور فوصلتها فى آخر المحرم وأقمت بها الى الثاني من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانها الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب اليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة في القري فانقطعوا عنا وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت الى قالقوط وعزمت على السفر الى ذيبة المهل وكنت أسمع بأخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه الجزائر احدي عجائب الدنيا وهي نحو ألفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لاتدخل المراكب الامنه واذا وصل المركب الى احداها فلابد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر وهي من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل

التي باحداها عند الخروج من الاخري فان أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحلته الريح الى المعبر أو سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهي منقسمة الى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوني ومن أقاليمها اقليم بالبور (وهو بيائين معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب (بفتح التاء المعلوة واللام وألف وذال مهمل وياء مدو باء موحدة) ومنها اقليم كرايدو (بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم التيم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة) ومنها اقليم تلدمتي (بفتح التاء المعلوة الاولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخري وياء) ومنها اقليم هلدمتي وهو مثل لفظ الذي قبله الا ان الهاء أوله ومنها اقليم بريدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم كندكل (بفتح الكافين والدال المهمل وواو) ومنها اقليم ملوك (بضم الميم) ومنها اقليم السويد (بالسين المهمل) وهو أقصاها وهذه الجزائر كلها لازرع بها الا ان في اقليم السويد منها زرعا يشبه انلي ويجلب منه الى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا زفر له انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه أكلوه ويحمل منه الى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

﴿ ذكر أشجارها ﴾

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتمر النخل منها اثنى عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا أبدا ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا ذلك في السفر الاول ويصنعون من

عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذي يغتذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك ومن أشجارها الجموح والأترج والليموز والقلقاس وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الأطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب طعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها

﴿ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم﴾

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب وإذا رأى الانسان أحدهم قال له الله ربي ومحمد نبيي وأنا أمي مسكين وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يعرضوا لأحد منهم بسوء وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة وأكثر عمارتهم بالخشب وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار وأكثرهم يغتسل مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه

... لباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ويجعلون ... هم ثياب الوليان (بكسر الواو وسكون اللام وياء آخر الحروف) وهي ... م وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها وإذا لقي أحد

القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه وان كانت المرأة هي التي تأتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمي عند ذلك وسنذكره وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الارض توقيا من الرطوبات لان أرضهم ندية وكيفية ذلك ان ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون فى اسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (بفتح اللام) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما الى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر الى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الولنج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار فالماشي بها كانه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب أن تخرج اليه الكنادر وهى القوارب الصغار واحدها كندرة (بضم الكاف والدال) وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكرنبة وهي جوز النارجيل الاخضر فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته الى داره كانه بعض أقربائه ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه

وتزوده اذا سافر وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شئ من الاحسان وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوى ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالى وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشتري وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي من القطن ويحملون منها أواني النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال أعطي الرطوبة فلم ينكسر وصرف أهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه فى حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثنى عشر ألفا منه الكتي (بضم الكاف وتشديد التاء المثناة) ويسمون المائة ألف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء الموحدة وبينهما سين مهمل) ويباع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم وهذا الودع أيضا هو صرف السودان في بلادهم رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي

﴿ذكر نسائها﴾

نساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى

جهة واحدة ولا يلبسن أكثر من الافوطة واحدة تسترها من السرة الى أسفل وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الاسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك فكنت لا تدخل الى منهن امرأة في خصومة الا مستترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لي جوار كسوتهن لباس أهل دهلي يغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذا لم يتعودنه وحليهن الأساور تجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل أساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل (بباء موحدة وألف وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدرد (بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب أفعالهن انهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها وعلى مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر بناتهم فتجد في دار الانسان الغني منهن العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الاواني يحسب عليها قيمته واذا أرادت الخروج من دار الى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج اليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمي صداقا انما تقع الشهادة ويعطي صداق مثلها واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فاذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت ان أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك

﴿ ذكر السبب في اسلام أهل هذه الجزائر ﴾
﴿ وذكر العفاريت من الجن التي تضر بها في كل شهر ﴾

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفارا وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم اذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وادخلوها الى بدخانة وهي بيت الاصنام وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر اليه منه ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطي بنته ثم انه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه فأتى ترجمان فأخبره ان العجوز كانت القرعة عليها وليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها أبو البركات أنا أتوجه عوضا من بنتك بالليل وكان سناطا لا لحية له فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه الى بدخانة وهو متوضئ وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربي يتلو فمضوا به الى ملكهم وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم وضم النون وواو وراء وألف وزاى وهاء) وأعلموه بخبره فعجب منه وعرض المغربي عليه الاسلام ورغبه فيه فقال أقم عندنا الى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر الى بدخانة ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الاصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه

وهم الى هذا المهدي يعظمون المغاربة بسببه وبنى مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل اذ كان اسلامه بسببهم فسمي على ذلك حتى الآن وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شأني اذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الاولاد وعلى رؤسهم المصاحف والنساء يضربون (يضربن في الطسوت وأواني النحاس فعجبت من فعلهم وقلت ما شأنكم فقالوا ألا تنظر الى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوء سرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرة في الشهر فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا

﴿ ذكر سلطانة هذه الجزائر ﴾

ومن عجائبها ان سلطانتها امرأة وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي وكان الملك لجدها ثم لابيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه وغلب عليه وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمي على كلكي ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور انه يختلف الي حرم أهل دولته وخواصه بالليل فخلعوه لذلك ونفوه الى اقليم هلدتني وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقي من بيت الملك الا اخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الامر وقدم ولده محمدا للخطابة عوضا منه ولكن الاوامر انما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الاوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في الكاغد الا المصاحف وكتب العلم ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على

العالمين وجعلها رحمة لكافة المسلمين الا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم اذا قدم الغريب عليهم ومضى الى المشور وهم يسمونه الدار فلابد له أن يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمي باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمي بالثاني وعسكرها نحو ألف انسان من الغرباء وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم الى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر في كل شهر فاذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة وأعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتي أيضاً الى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون

﴿ ذكر أرباب الخطط وسيرهم ﴾

وهم يسمون الوزير الا كبر النائب عن السلطانة كلكي (بفتح الكاف الاولى واللام) ويسمون القاضي فنديارقالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف وألف وراء وقاف وألف ولام مضموم) واحكامهم كلها راجعة الى القاضي وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره ممتثل كأمر السلطان وأشد ويجلس على بساط في الدار وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هنديجري (وضبط ذلك بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفاملداري (بفتح الفاء والميم والدال المهمل) ويسمون صاحب الاشغال مافاكلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) ويسمون الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلوة وفتح النون وألف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) ويسمون قائد البحر مانايك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر انما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لامتعة التجار ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا بأساري الروم

﴿ ذكر وصولي الى هذه الجزائر وتنقل حالي بها ﴾

ولما وصلت اليها نزلت منها بجزيرة كنلوس وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها وأضافني بها الفقيه علي وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحوض فأضافني وقال لي ان دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فانهم لا قاضي عندهم وكان غرضي أن أسافر منها الى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم الى الصين وكان قدومي عليها في مركب الناخودة عمر الهنوري وهو من الحجاج الفضلاء ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها الى المهل بهدية للسلطانة وزوجها فاردت السفر معه فقال لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فابيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد الينا بعد أربعة أيام وقد لقي شدائد فاعتذر لي وعزم علي في السفر معه بأصحابي فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنبيت باخري ووصلنا بعد أربعة أيام الى اقليم التيم وكان الكردوى يسمى بها هلالا فسلم علي وأضافني وجاء الي ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عليهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فاخبرت انهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فاكرمنا وأضافنا وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمدي وفي اليوم العاشر وصلنا الي جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها وأرسينا بمرساها وعادتهم أن لا ينزل أحد عن المرسى الا باذنهم فأذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه الى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل وقالوا لا بد من الدخول الى الوزير وكنت أوصيت الناخودة أن يقول اذا سئل عني لا أعرفه خوفا من امساكهم اياي ولم أعلم ان بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبري واني كنت قاضيا بدهلي فلما وصلنا الى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي وسلمت على الوزير وجاء الناخودة ابراهيم بعشرة أثواب نخدم لجهة

السلطانة ورمي بثوب منها ثم خدم للوزير ورمي بثوب آخر كذلك ورمي بجميعها وسئل عني فقال لا أعرفه ثم أخرجوا الينا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث الينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الارز وتدور بها صحاف فيها اللحم والخليع والدجاج والسمن والسمك ولما كان بالغد مضيت مع الناخودة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير الي صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الارز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القرباني (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وألف ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر وأتوا بمائة ألف ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني فعرفوا خدام الوزير بأمري فزاد اغتباطا بي وبعث عني عند استهلال رمضان فوجدت الامراء والوزراء وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فأجلسني الوزير الى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملداري والوزير عمر دهري ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاوية وهو يهضم الطعام وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها فردها أبوها الداره وأعطاني دارها وهي من أجمل الدور واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فأذن لي في ذلك وبعث الي خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لانها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والابازير فبعثت ذلك كله الى دار الوزير سليمان مانايك فطبخ لي بها فأحسن في طبخه وزاد فيه وبعث الفرش وأواني النحاس وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لي وأنا أحضر أيضا فشكرته وانصرفت الى داري فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس في قبة خشب مرتفعة وكان كل من يأتي من الامراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو

نحوها فأخذها الفقراء وقدم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤنها بالاقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء الى ان خمدت

﴿ ذكر بعض احسان الوزير الى ﴾

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لي الوزير هذا البستان لك وسأعمر لك فيه دارا لسكناك فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خديمه يقول لك الوزير ان أعجبتك هذه هي لك والا بعثت لك جارية مرهتية وكانت الجواري المرهتيات تعجبني فقلت له انما أريد المرهتية فبعثها لي وكان اسمها قل استان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتني وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه ثم بعث الي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير الى بعد العشاء الاخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته فألقى أحد الغلامين بين يديه بقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر وحلي فأعطاني ذلك وقال لي لو بعثته لك مع الجارية لقالت هو مالي جئت به من دار مولاي والآن هو مالك فأعطها اياها فدعوت له وشكرته وكان أهلا للشكر رحمه الله

﴿ ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك ﴾

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث الي ان أتزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين استأذنه في ذلك فعاد الي الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته اذا انقضت عدتها فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لانه مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة ان يحم فقوى عزمي على الرحلة عنها فبعت بعض الحلي بالودع واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة فلما ذهبت لوداع الوزير خرج الي القاضي فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما اعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلي اشتريت به الودع فشأنكم واياه فعاد الي فقال يقول انما أعطيناك

الذهب ولم نعطك الودع فقلت له أنا أبيعه وآتيكم بالذهب فبعث الى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير ان لا يفعلوا وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه ثم بعث الى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت في نفسي أنا تحت حكمهم وان لم أقم مختاراً أقمت مضطراً فالاقامة باختياري أولى وقلت لرسوله نعم أنا أقيم معه فعاد اليه ففرح بذلك واستدعاني فلما دخلت اليه قام الي وعانقني وقال نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا فاعتذرت له فقبل عذري وقلت له ان أردتم مقامي فأنا أشترط عليكم شروطا فقال نقبلها فاشترط فقلت له أنا لا أستطيع المشي على قدمي ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك الا الوزير ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون مني حتى شكوت له فضربت الدنقرة وبرح في الناس ان لا يتبعني أحد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد فقال لي الوزير ان أردت أن تركب الدولة والا فعندنا حصان ورمكة فاختر أيهما شئت فاخترت الرمكة فأتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة فقلت له على ان تبعث أنت من يعينه على ذلك فقال نعم فبعثت حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج علياً فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقرية وأقاموا ست عشر ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد وقدم على صاحبي أبو محمد بعد سنة وقد زار القدم وزارها مرة ثانية معي

﴿ ذكر العيد الذي شاهدته معهم ﴾

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الي بكسوة وخرجنا الى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتاني الودع يمنة ويسرة وكل من له على طريقه دار من الامراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من

النارجيل وأشجار الفوفل والموز ومد من شجر الى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الاخضر ويقف صاحب الدار عند بابها فاذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضاً والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والابواق والانفار والاطبال بين يديه والعساكر امامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتي بمحفة فركب فيها الوزير وخدم له الامراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لان ذلك لا يفعله الا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والامراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي ثم أتي بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم وهو ببلاد المليبار كثير فاخذ الوزير بسردينة وجعل يأكلها وقال لي كل منه فانه ليس ببلادنا فقلت كيف أكله وهو غير مطبوخ فقال انه مطبوخ فقلت أنا أعرف به فانه ببلادي كبير

﴿ ذكر تزوجي وولايتي القضاء ﴾

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فأجاب الى ذلك وأحضر التنبول على العادة والصندل وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعى فلم يأت ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت فقال لي الوزير سرا أن بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك ان تتزوج بربيبة السلطان زوجة أبيها وهي التي ولده متزوج بنتها فقلت له نعم فاستدعي القاضي والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الي بعد أيام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها انها كانت اذا تزوجت عليها تطيبني وتبخر أثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها أكرهني الوزير على

القضاء وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على أربابها فقلت له انما لك أجرة تتفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيئاً فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك وأتي الى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق وأخرجت النساء عنهم ثم اشتددت في اقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة الى الازقة والاسواق اثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته وألزمت الائمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله وكتبت الى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت ان أكسو النساء فلم أقدر على ذلك

﴿ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين الى السويد وما وقع بيني وبينه﴾

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته وأحببتها حبا شديدا ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعثت له التحف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وأنزله في دار جيدة فكنت أزوره بها واتفق ان اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس الا هو وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى اخوال زوجتي ربيبته أولاد الوزير جمال الدين السنجري فان أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله وان مالهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجلس الحكم وكانت عادتي اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغد مكتوبة فعندما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعي والا عاقبته فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقدها لي وأضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه وبلغني عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم أن يوصلوا السبابة الى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤس الاشهاد انه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم

للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت أيضاً زوجة اخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها وهي أحبهن الى فلما صاهرت من ذكرتها بنى الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا منى لاجل ضعفهم وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة

﴿ ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك ﴾

واتفق في بعض الايام ان عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير وأعلمته انه عند سرية من سرارى السلطان يزنى بها فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوهما فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت الى المشور وجلست في موضع جلوسي ولم أتكلم في شيء من أمرها فخرج الي بعض الخواص فقال يقول لك الوزير ألك حاجة فقلت لا وكان قصده ان أتكلم في شأن السرية والغلام اذ كانت عادتى ان لا تقطع قضية الا حكمت فيها فلما وقع التغير والوحشة قصرت في ذلك فانصرفت الي داري بعد ذلك وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الوزراء فقال لى الوزير يقول لك انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغى ان يكون الحكم فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس أو حضرت السرية والغلام فأمرت بضربهما للخلوة وأطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى داري فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه في شأن تسريح الغلام فقلت لهم أتشفعون في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه وأنتم بالامس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفي عنقه حبل فذهبوا الى الوزير

فاعلموه فقام وقصد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئته
وكانت عادتي ان أخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على انى
قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه فكلمني الوزير فصعدت وجلست بموضع أقابله
فيه وجاوبته أغلظ جواب واذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون
انى سلطان وها أنا ذا طلبته لاغضب عليه فغضب على وانما كان اعتزازي عليهم بسبب
سلطان الهند لانهم تحققوا امكانتي عنده وان كانوا على بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن فلما
دخل الي داره بعث الى القاضى المعزول وكان جريء اللسان فقال لي ان مولانا يقول
لك كيف هتكت حرمته على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت أخدم له حين
كان قلبي طيبا عليه فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هي السلام وقد سلمت
فبعثه الى ثانية فقال انما غرضك السفر عنا فاعط صدقات النساء وديون الناس وانصرف
اذا شئت فخدمت له على هذا القول وذهبت الى داري فخلصت مما على من الدين وكان
قد أعطاني في تلك الايام فرش دار وجهازها من أوانى نحاس وسواها وكان يعطيني كل
ما أطلبه ويحبني ويكرمني ولكنه غير خاطره وخوف مني فلما عرف انى قد خلصت الدين
وعزمت على السفر ندم على ماقاله وتلكأ فى الاذن لي في السفر فحلفت بالايمان المغلظة
ان لابد من سفري ونقلت ما عندي الي مسجد على البحر وطلقت احدى الزوجات
وكانت احداهن حاملا فجعلت لها أجلا تسعة أشهر ان عدت فيها والا فامرها بيدها
وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لاسلمها لابيها بجزيرة ملوك
وزوجتي الاولي التي بنتها أخت السلطانة وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن
قائد البحر على ان أمضى الى بلاد المعبر وكان ملكها سلفي فاتي منها بالعساكر لترجع الجزائر
الى حكمه وانوب انا عنه فيها وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب فاذا
رأوها ثاروا في البر ولم أكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ماوقع من التغير وكان الوزير
خائفا مني يقول للناس لابد لهذا ان يأخذ الوزارة اما في حياتي أو بعد موتي ويكثر السؤال
عن حالي ويقول سمعت ان ملك الهند بعث اليه الاموال ليثور بها على وكان يخاف من

سفرى لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر فبعث الى أن أقيم حتى يجهز لي مركبا فأبيت وشكت أخت السلطانة اليها بسفر أمهامى فارادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها ان جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر فان كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك والا فرده وكان حليا له خطر فرددته اليهم وأتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم لولا أني حلفت لعدت فقالوا تذهب الى بعض الجزائر ليبر قسمك وتعود فقلت لهم نعم ارضاء لهم فلما كانت الليلة التي سافرت فيها أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكي حتي قطرت دموعه على قدمي وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا ان يثور عليه أصهاري وأصحابي ثم سافرت ووصلت الى جزيرة الوزير على فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة وأحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لانها أم زوجة ولده وطلقت التي كنت ضربت لها الاجل وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا في تلك الجزائر من اقليم الى أقليم

﴿ ذكر النساء ذوات الثدى الواحد ﴾

وفى بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدى واحد في صدرها ولها بنتان احداهما كذلها ذات ثدي واحد والاخرى ذات ثديين الا ان أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن ووصلنا الي جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها الا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة واولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به الى حيث أراد من الجزائر وفى جزيرته ايضا شجيرات موز ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا الينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل ووددت ان لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها الى ان يأتيني اليقين ثم وصلت الى جزيرة ملوك حيث المركب الذي للناخوذة ابراهيم وهو الذى عزمت على السفر فيه الى المعبر فجاء الى ومعه أصحابه وأضافوني ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لي ان أعطي بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة وهي الودع وعشرين قدحا من الاطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم وأقمت بهذه

الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين وهي من أحسن الجزائر خضرة نضرة ورأيت من عجائبها ان الغصن يقتطع من شجرها ويركز في الارض أو الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة وخاف أهل هذه الجزيرة من التوخودة ابراهيم ان ينهبهم عند سفره فارادوا امساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا الى المهل ولم ندخلها وكتبت الى الوزير معلما بذلك فكتب ان لا سبيل لاخذ السلاح وعدنا الي ملوك وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة واربعين وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله وكانت السلطانة حاملا منه فولدت اثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحو تسعة أيام وفي التاسع منها خرجنا الي جزيرة سيلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا في السماء كانه عمود دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار الى بلاده آمنين انما هذا مرسى في بلاد السلطان ايرى شكروتي وهو لعتاة المفسدين وله مراكب تقطع في البحر نخفنا ان ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح نخفنا الغرق فقلت للناخودة أنزلني الى الساحل وانا آخذ لك الامان من هذا السلطان ففعل ذلك وأنزلني بالساحل فأتانا الكفار فقالوا ما أنتم فاخبرتهم اني سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذي في المركب هدية له فذهبوا الي سلطانهم فاعلموه بذلك فاستدعاني فذهبت له الى مدينة بطالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها) وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وابراج خشب وجميع سواحلها مملوءة باعواد القرفة تأتي بها السيول فتجمع بالساحل كأنها الروابي ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن الا انهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة وبها أيضاً من خشب البقم كثير ومن العود الهندي المعروف بالكلخي الا انه ليس كالقماري والقاقلي وسنذكره

﴿ ذكر سلطان سيلان ﴾

واسمه أيري شكروتي (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوي في البحر رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت الي هنالك وكانت بالمرسي ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا انما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا الى اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الي وأجلسني الى جانبه وكلمني بأحسن كلام وقال ينزل أصحابك على الامان ويكونون في ضيافتي الى أن يسافروا فان سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة ثم أمر بانزالي فأقمت عنده ثلاثة أيام في اكرام عظيم متزايد في كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لي هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها فقلت له نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التي لابن السواملي فقال سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه فقلت له رأيت ما هو دونها فأعجبه ذلك وقال هي لك وقال لي لا تستحي واطلب مني ما شئت فقلت له ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة الا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال هذا هين نبعث معك من يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا الى المعبر واذا عدت أنا بعثتني في مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لي لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك فأخبرت السلطان بذلك فقال يقيم في ضيافتي حتى تعود فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد أما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على وادجزناه في معدية مصنوعة من الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والتنوين

وألف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء) مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا أهلها ضيافة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها أحياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم نر بهذه المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا وحملنا الى بندر سلاوات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل واللام والواو والف وتاء معلوة) بلدة صغيرة وسافرنا منها في اوعار كثيرة المياه وبها الفيلة الكثيرة الا انها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبي عبدالله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق الي زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ أبي عبدالله ماذكرنا في السفر الاول من قتل الفيلة لاصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم وهم الى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد ذلك الى مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الاولى وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء) وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت لان الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش (بشينين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل الى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الادلاء أولاده وغلمانه وسبب قطعه انه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة ذبح كذلها أو جعل في جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله وأعطوه مجبي بعض الاسواق

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) وعنده الفيل الابيض

لم أر في الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة واتفق له ان قام عليه أهل دولته وسملوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى

﴿ ذكر الياقوت ﴾

والياقوت العجيب البهرمان انما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارا بيضاء مشعبة وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تتفلق عن أحجار الياقوت فمنه الاحمر ومنه الاصفر ومنه الازرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف) وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت الى مائة فنم (بفتح الفاء والنون) فهو للسلطان يعطي ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة ورأيت عند السلطان ايرى شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود فجعلت أعجب منها فقال ان عندنا ما هو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم أسطا محمود اللوري (بضم اللام) وكان من الصالحين واحتفر تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاي ونون وهاء) وبوزنه هي القرود

﴿ ذكر القرود ﴾

والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا وهي سود الالوان لها أذناب طوال ولذكورها لحي كما هي للآدميين وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق الاشجار ويتوكأ على عصى ويكون

عن يمينه ويساره أربعة من القرود ولهـا عصى بأيديها وانه اذا جاس القرد المقـدم تقف القرود الاربعة على رأسه وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتأتي القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الاربعة فتنصرف القرود كلها ثم يأتي كل قرد منها بموزة أوليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الاربعة وأخبرني بعض الجوكية انه رأى القرود الاربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب بعض القرود بالعصي ثم تنتف وبره بعد ضربه وذكر لي الثقات انه اذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لاتستطيع الدفاع عن نفسها جامعها وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخـل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه ثم كان رحيلنا الى خور الخيزران ومن هذا الخور أخرج أبو عبـد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين أعطاهما السلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه في السفر الاول ثم رحلنا الى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة ثم رحلنا الى مغارة بابا طاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا الى مغارة السبيك (بفتح السين المهـمل وكسر البـاء الموحدة وياء مد وكاف) وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك

﴿ ذكر العلق الطيار ﴾

وبهـذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسـمونه الزلو (بضم الزاي واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التي تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليـه فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معـد لذلك ويذكران بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فنزف دمه ومات وكان اسمه بابا خوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى) وهنالك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا الى السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر وثم مغارة الاصفهاني وعين ماء وقلعة غـير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهنالك مغارة النـارنج ومغارة السلطان وعنـدها دروازة الجبل أي بابه

﴿ ذكر جبل سرنديب ﴾

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله وفيه كثير من الاشجار التي لا يسقط لها ورق والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفي الجبل طريقان الى القدم أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضي عليه فهو عندهم كمن لم يزر واما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفي أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضاً للاسكندر وعين ماء ونحت الاولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهي عشر سلاسل ثنتان في أسفل الجبل حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هي سلسلة الشهادة لان الانسان اذا وصل اليها ونظر الى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر سبعة أميال وهي في موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه أيضا ملآ بالحوت ولا يصطاده أحد وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين الي أعلى الجبل حيث القدم

﴿ ذكر القدم ﴾

واثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتي عاد موضعها منخفضا وطولها أحد عشر شبرا واتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصي البلاد وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزاور من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى

الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها الاخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما فنزلنا بمغارة شيم وهو شيث ابن آدم عليهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبركاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دل دينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح) وهنالك كان يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل فى هذا الطريق درخت روان ودرخت هي (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو وألف ونون) وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهم أكاذيب في شأنها من جملتها ان من أكل من أوراقها عاد له الشباب ان كان شيخا وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة فيها نحو الالف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود يغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجابيها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك والصنم من ذهب على قدر الآدمي وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما

تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا الى مدينة قالى (بالقاف وكسر اللام) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور و بها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه ورحلنا الى مدينة كلنبو (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا الى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم في انتظارى فسافرنا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا الى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ثم دخلنا بحراً قصيراً فتجلس المركب ورأينا الموت عياناً ورمي الناس بما معهم وتوادعوا وقطعنا صاري المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البر فرسخان فاردت ان أنزل في المعدية وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي فقالا أتنزل وتتركنا فآثرتهما على نفسي وقلت انزلا أنتما والجارية التي أحبها فقالت الجارية اني أحسن السباحة فاتعلق بحبل من حبال المعدية وأعوم معهم فنزل رفيقاي وأحدهما محمد بن فرحان التوزري والآخر رجل مصرى والجارية معهم والاخرى تسبح وربط البحرية في المعدية حبالا وسبحوا بها وجعلت معهم ما عز علي من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا الى البر سالمين لان الريح كانت تساعدهم وأقمت بالمركب ونزل صاحبه الى البر على الدقة وشرع البحرية في عمل أربع من المادى فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت الى المؤخر وأقمت به حتي الصباح وحينئذ جاء الينا نفر من الكفار في قارب لهم ونزلنا معهم الى الساحل ببلاد المعبر فاعلمناهم انا من أصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا اليه بذلك وهو على مسيرة يومين في الغزو وكتبت أنا اليه أعلمه بما اتفق علي وأدخلنا أولئك الكفار الى غيضة عظيمة فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ يثمرها شجر المقل وفي داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل وهي تشبه السكر وأتوا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة

فرسان ورجال وجازوا بالدولة وبعشرة أفراس فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب واحدي الجاريتين وحملت الاخرى في الدولة ووصلنا الى حصن هركاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف وألف وتاء معلوة مضمومة وواو) وبتنا به وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والاصحاب ووصلنا في اليوم الثاني الي محلة السلطان

﴿ذكر سلطان بلاد المعبر﴾

هو غياث الدين الدامغاني وكان في أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبى الرجاء أحد خدام السلطان محمد ثم خدم الامير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى الملك وكان يدعي سراج الدين قبله فلما ولى تسمي غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أديجي (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فملك سنة ثم خرج الى غزو الكفار فاخذ لهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد الي بلاده وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم ان رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم غرب فمات من حينه فولوا اصهره قطب الدين ثم لم يحمدوا اسيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجا أختها بدهلى

﴿ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين﴾

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا وكان قاعدا في برج خشب وعادتهم بالهند كلها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف ولم يكن عندي خف فأعطاني بعض الكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فأمرلى بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين وأنزلني في جوار في ثلاثة من الاخبية وهم يسمونها الخيام وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك ان يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم

جتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة المهل وان يبعث الجيش اليها فأخذ في ذلك بالعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والامراء والعطايا لهم وفوض الي في عقد نكاحه مع أخت السلطانة وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر وقال لي يكون رجوعك بعد خمسة أيام فقال له قائد البحر خواجة سرلك لا يمكن السفر الى الجزائر الا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لى السلطان اما اذا كان الامر هكذا فامض الى فتن حتى تقضي هذه الحركة وتعود الى حضرتنا متى تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجواري والاصحاب

﴿ ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان ﴾

وكانت الارض التي نسلكها غيضة واحدة من الاشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن في الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك فاذا نزلت المحلة ركب الى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الاشجار من غدوة النهار الى الزوال ثم يؤتي بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ثم يعودون الى قطع الاشجار الى العشى وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ومعه امرأته وأولاده ويؤتي بهم الى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المثلوثة وآخره راء) ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ويصنعون خارج الكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا أتي أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا اوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء وخرجت الفرسان في اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالامس أربعة أقسام وأتي الي كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت الخشب التي كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشبات ويذبح الاولاد الصغار في حجورهن ويتركون

هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك وذلك أمر شنيع ماعلمته لاحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيته يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أتي بكافر معه امرأته وولده سنه سبع فأشار الى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن أوو بسرا ومعناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصري عنهم فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرت عنده يوما وقد أتي برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام فقال لي الى أين فقلت أصلي العصر ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه

﴿ ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الاسلام ﴾

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمي بلال ديو (بفتح الباء الموحدة ولام وألف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة ألف ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر ولم يبق لهم من الطعام الا قوت أربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك فوعدهم الى تمام أربعة عشر يوما فكتب الي السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا وقالوا نبيع أنفسنا من الله فان الكافر ان أخذ تلك المدينة انتقل الي حصارنا فالموت تحت السيوف أولي بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم وجعلوها في أعناق الخيل وهي علامة من يريد الموت وجعلوا ذوي النجدة والابطال منهم في المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد

السلحدار وركب السلطان في القلب ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي وقصدوا محلة الكافر عند القائلة وأهلها على غرة وخيلهم في المرعى فأغاروا عليها وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبية وقاتلوهم فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة وأراد سلطانها أن يركب وكان ابن ثمانين سنة فأدركه ناصر الدين ابن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده فأراد قتله ولم يعرفه فقال له أنا السلطان فأسره وحمله الى عمه فأكرمه في الظاهر حتى جبي منه الاموال والفيلة والخيل وكان يعده السراح فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن فعلق على سور مترة ورأيته بها معلقا * ولنعد الى كلامنا فنقول ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينة فتن (بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون) وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو ضموا اليها الاجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان الطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم ومعه سبع رباه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيراً لاحدهم غزالة تكون مع الاسد في موضع واحد فلا يعرض لها وأقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها برادة الحديد فأكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه وأهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر وأراد ان يعطيني قيمة الهدية فأبيت ثم ندمت لانه مات فلم آخذ شيئاً وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته وأقمت أنا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهي مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع وأول من اتخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين

أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتاذريعا فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه وان أبطأ موته فالى الرابع فكنت اذا خرجت لا أرى الا مريضا أو ميتا واشتريت بها جارية على انها صحيحة فماتت في يوم آخر ولقد جاءت الي في بعض الايام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتهما نفقة وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا واذا به قد توفي من حينه وكنت أري بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهن لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى فأقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج الى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه في يوم خميس فأمر بانزالي الي جانب القاضي فلما ضربت لي الاخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد في مرضه وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان

﴿ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافي عنه﴾

وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول الي المدينة خوف الفتنة ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده خارجا الى المحلة قد وجه عنه اذ ليس للسلطان ولد فطلبني في الرجوع معه فأبيت وأثر ذلك في قلبه وكان ناصر الدين هذا خديما بدهلي قبل ان يملك عمه فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء وأول من قام منشدا القاضي صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمي بالقاضي فأعطاه ألفي دينار دراهم وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة وبث الصدقات في الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق

الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره وأقاموا على ذلك أربعين يوماً ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة وأول مابدأ به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه الى وأنا بفتن ليتلقاني فتوفى سريعاً فولى الوزارة خواجه سرور قائد البحر وأمر أن يخاطب بخواجه جهان كما يخاطب الوزير بدهلى ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك مسعود زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء وأمر لي بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك فظننت انها القاضية وألهمني الله الى التمر الهندى وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته فأسهلني ثلاثة أيام وعافاني الله من مرضي فكرهت تلك المدينة وطلبت الاذن في السفر فقال لي السلطان كيف تسافر ولم يبق لايام السفر الى الجزائر غير شهر واحد أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم فأبيت وكتب لي الى فتن لاسافر في أي مركب أردت وعدت الى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الي اليمن فسافرت في أحدها ولقينا أربعة أجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت ووصلنا الي كولم وكان في بقية مرض فأقمت بها ثلاثة أشهر ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنورى فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور

﴿ ذكر سلب الكفار لنا ﴾

ولما وصلنا الي الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار في اثنى عشر مركبا حربية وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ماعندي مما كنت أدخره للشدائد وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان وأخذوا ثيابي

والزوادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا لي ساتراخلا السراويل وأخذوا ماكان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل فرجعت الى قالقوط فدخلت بعض المساجد فبعث الى أحد الفقهاء بثوب وبعث القاضي بعمامة وبعث بعض التجار بثوب آخر وتعرفت هنالك تزوج الوزير عبدالله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبأن زوجتي التي تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا فخطر لي السفر الي الجزائر وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبدالله ففتحت المصحف فخرج لي تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا فاستخرت الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الي جزائر ذيبة المهل ونزلت منها بكنلوس فاكرمني واليها عبدالعزيز المقدشاوي وأضافني وجهز لي كندرة ووصلت بعد ذلك الى هللي وهى الجزيرة التي تخرج السلطانة واخوتها اليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التنجر ويلعبون فى المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متي كانت بها ووجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وأمها التى كانت زوجتي فجاء الخطيب الى وأتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة الى الوزير عبدالله فاعلموه بقدومي فسأل عن حالي وعمن قدم معي وأخبر أني جئت برسم حمل ولدى وكان سنه نحو عامين وأتته امه تشكو من ذلك فقال لها أنا لا أمنعه من حمل ولده وصادرني في دخول الجزيرة وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالي وبعث الي بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم وجئت بثوبي حرير للرمى عند السلام فأخذوهما ولم يخرج الوزير الي ذلك اليوم وأتي الي بولدي فظهر لي ان اقامته معهم خير له فرددته اليهم وأقمت خمسة أيام وظهر لى ان تعجيل السفر أولي فطلبت الاذن فى ذلك فاستدعاني الوزير ودخلت عليه وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة وأجلسني الى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام وغسلت يدي معه فى الطست وذلك شئ لا يفعله مع أحد وأتوا بالتنبول وانصرفت وبعث الي بأثواب وبساتى من الودع وأحسن في أفعاله وأجمل وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة ثم وصلنا الي بلاد بنجالة

(وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح) وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة معناه جهنم ملآى بالنعم رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلي عشرون رطلا مغربية وسمعتهم يقولون أن ذلك غلاء عندهم وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندي بدهلي انه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم وانه كان يشتري الأرز في قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فاذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية وهي عشرة قناطير ورأيت البقرة تباع بها للحلاب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ورطل السكر باربعة دراهم وهو رطل دهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن باربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع واشترى بعض أصحابي غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان (وضبط اسمها بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الاعظم ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج اليه الهنود ونهر الجون ويصبان في البحر ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي

﴿ذكر سلطان بنجالة﴾

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل

بحب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولي ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر وسمي لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وانه ترك الملك لولده وعاد الى بنجالة فأقام بها الى أن توفي وولي ابنه شمس الدين الى ان توفي فولي ابنه شهاب الدين الى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على ان يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتله وولى على هذه البلاد صهر اله فقتله العسكر واستولى على ما لكها على شاه وهو اذذاك ببلاد الكنوتى فلما رأى فخر الدين ان الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد الكنوتي في البحر لقوته فيه واذا عادت الايام التي لا مطر فيها أغار على شاة على بنجالة في البر لقوته فيه

﴿ حكاية ﴾

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين الى أن جعل أحدهم نائباعنه في الملك بسدكاوان وكان يسمى شيدا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف) وخرج الى قتال عدو له فخالف عليه شيدا وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولد السلطان فخر الدين ولم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فكر عائدا الى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه الى مدينة سنركاوان وهي منيعة فبعث السلطان بالعساكر الى حصاره فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شيدا وبعثوه الى عسكر السلطان فكتبوا اليه بأمره فأمرهم أن يبعثوا اليه رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لانه مخالف على ملك الهند تخوفت عاقبة ذلك وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو وهي (بفتح الكاف والميم وضم الراء) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة والغلام منهم يساوي

أصناف مايساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به وكان قصدي بالمسير الى هذه الجبال لقاء ولي من الاولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزي

﴿ذكر الشيخ جلال الدين﴾

وهذا الشيخ من كبار الاولياء وافراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرني رحمه الله انه ادرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة انه مات وهو ابن مائة وخمسين وانه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر الا بعد مواصلة عشر وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طوالا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

﴿كرامة له﴾

أخبرني بعض أصحابه انه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم اني أسافر عنكم غدا ان شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا اله الا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله

(كرامة له أيضا)

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه فاخبروني ان الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ولم يكن عنده علم بشئ من أمري وانما كوشف به وسرت معهم الى الشيخ فوصلت الى زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ولما دخلت عليه قام الي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فاخبرته فقال لي أنت مسافر العرب فقال له من

حضر من أصحابه والعجم ياسيدنا فقال والعجم فاكرموه فاحتملوني الى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام

﴿ حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له ﴾

ولما كان يوم دخولي الى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتني وقلت في نفسي ليت الشيخ أعطانيها فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة فأخبرني الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وانما لبسها عند قدومي وانه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لاخينا برهان الدين الصاغرجي وهي له وبرسمه كانت فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة اني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية علي فبينا أنا في بعض الطرق اذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان فسألني عن سلاطين الاسلام فاجبته ونظر الي الفرجية فاستحسنها فقال لي الوزير جردها فلم يمكني خلاف ذلك فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس بجهز ونفقة وتغير خاطري لذلك ثم تذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك ولما كان في السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي فقال لي لم تقلبها وانت تعرفها فقلت له نعم هي التي أخذها لي سلطان الخنسا فقال لي هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي وكتب الي ان الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ وأعلمته بأول الحكاية فقال لي أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله هو يتصرف في الكون وقد انتقل الي رحمة الله ثم قال لي بلغني انه كان يصلي

الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لانه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما ودعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حبنق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف) وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذى ينزل من جبال كامرو ويسمى النهر الازرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتى وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة كما هى على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف مايزدرعون ووظائف سوى ذلك وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى والبساتين فكانا نمشي في سوق من الاسواق وفيه من المراكب مالا يحصى كثرة وفى كل مركب منها طبل فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لايؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطي الزاد لمن لازاد له منهم واذا وصل الفقير الى مدينة أعطي نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا الى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهمل والنون وسكون الراء) وهى المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ اليها ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر الى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كافواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لايرجعون الي دين الهنود ولا الى غيره وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الارض على شاطئ البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورنا الا ان أفواههم كافواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون الا ان الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه ويستتر نساؤهم باوراق الشجر ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة أخبرونا انهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وانهم لايزنون واذا زنا أحد منهم فحد الرجل ان يصلب حتى

يموت أو يؤتي صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو وحد المرأة ان يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت ويرمون بها في البحر ولاجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل اليهم الى ان كان من المقيمين عندهم وانما يبايعون الناس ويشاورونهم على الساحل ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لانه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لانهن يطمحن الى الرجال الحسان والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم تشتري منهم بالاثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه الا من ساكنهم وأكثر التردد اليهم ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك

(ذكر سلطانهم)

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعز وقد جعل الوبر الى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفي يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة فبعثنا اليه هدية من الفافل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبة المهل وأثوابا بنجالية وهم لا يلبسونها انما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك (حكاية) واتفق في ليلة من ليالي اقامتنا بمرساهم ان غلاما لصاحب المركب ممن تردد الى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم الى موضع شبه الغار على الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء في جمع من أصحابه الى الغار فوجدهما به فحملا الى سلطانهم فأمر بالغلام فقطعت انثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان الى الساحل فاعتذر عما جرى وقال انا لا نجد بدا من امضاء احكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المصلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين

يوماوصلناالى جزيرةالجاوة (بالجيم) وهي التي ينسب اليهااللبان الجاوي رأيناهاعلى مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارهاالنارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجون والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلهاوشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك والكثير من أفاويه الطيب التي بهاانما هو ببلاد الكفار منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولماوصلنا المرسي خرج اليناأهلهافي مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك وعادتهم ان يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل انسان على قدره وصعد الينا أيضانائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنافي النزول الى البر فنزلنا الى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بهادور يسمونهاالسرحي (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد أربعة أميال ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر الى السلطان فعرفه بقدومي فأمر الامير دولسة بلقائي والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الاصبهاني وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه فركبت وركب أصحابي ودخلنا الى حضرة السلطان وهي مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليهاسور خشب وأبراج خشب

﴿ ذكر سلطان الجاوة ﴾

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد الغزو ومتواضع يأتي الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح

(ذكر دخولنا الى داره واحسانه الينا)

ولما قصدنا الى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة عن جانبي الطريق وهي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا

نائب السلطان وهو يسمي عمدة الملك فقام الينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة وقعد ناممه وكتب بطاقة الى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فأتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد الفتيان بقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هي السبنية فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي وأدخلني الي دويرة يسمونها فردخانة على وزن زردخانة (الاان أولها فاء) وهي موضع راحته بالنهار فان العادة ان يأتي السلطان الي المشور بعد الصبح ولا ينصرف الا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والامراء الكبار وأخرج من البقشة ثلاث فوط احداها من خالص الحرير والاخرى حرير وقطن والاخري حرير وكتان وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الاجناس تسمي الوسطانيات وأخرج ثلاثة أثواب من الارماك أحدها أبيض وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم وثوبا من كل جنس وأخذ أصحابي ما بقى منها ثم جاؤا بالطعام أكثره الارز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف فأخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا الي بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المحملات (بالميم والحاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ وفي البيت أسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الامير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقي الامير دولسة عندي وكانت بيني وبينه معرفة لانه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي فقلت له متى تكون رؤية السلطان فقال لي ان العادة عندنا ان لا يسلم القادم على السلطان الا بعد ثلاث ليذهب عنه تعب السفر ويثوب اليه ذهنه فأقمنا ثلاثة أيام يأتي الينا الطعام ثلاث مرات في اليوم وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الامير دولسة فقال لي يكون سلامك علي السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة فأتيت المسجد وصليت

به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء)
ثم دخلت الى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني
وسلمت عليه وأجلسني عن يساره وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري فأجبته وعاد
الى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي ولم يزل كذلك الى صلاة العصر فلما صلاها دخل
بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشيا
ثم لبس ثياب الملك وهي الاقبية من الحرير والقطن

(ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه)

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه والعادة عندهم انه اذا ركب السلطان
الفيل ركب من معه الخيل واذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب
ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه الى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل
السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والامراء والكتاب وأرباب الدولة
ووجوه العسكر صفوفا فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزراؤه أربعة فسلموا
عليه وانصرفوا الى موضع وقوفهم ثم صف الامراء فسلموا ومضوا الى مواقفهم
وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء
ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك ووقف السلطان على فيله ازاء قبة
الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله
مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة ووقف بين يديه خواص
الحجاب ثم أتي أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتي بخيل مجللة بالحرير لها
خلاخيل ذهب وارسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها
وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل السلطان الى داره
وانصرف الناس الى منازلهم

(ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك)

وكان له ابن أخ متزوج بينته فولاه بعض البلاد وكان الفتي يتعشق بنتا لبعض الامراء ويريد

تزوجها والسادة هنالك انه اذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد ان يستأمر السلطان في شأنها ويبعث السلطان من النساء من تنظر اليها فان أعجبته صفتها تزوجها والا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاء والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر اليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا اليها ثم ان السلطان خرج الى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه الى سمطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا اليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الاموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوة ولهذا بنى عمه السور على سمطرة وكانت اقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوما ثم طلبت منه السفر اذ كان أوانه ولا يتهيأ السفر الى الصين في كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاه الله خيرا وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة الى الجنك وسافرنا بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ثم وصلنا الى مل جاوة (بضم الميم) وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقاقلة وقمارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة الا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وانما معظم ذلك بمل جاوة ولنذكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه

﴿ ذكر اللبان ﴾

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار

﴿ ذكر الكافور ﴾

وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا الا ان الانابيب منها أطول وأغلظ ويكون

الكافور في داخل الانابيب فاذا كثرت القصبة وجد في داخل الانبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه انه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان والا لم يتكون شيء منه والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم بالحردالة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار

﴿ ذكر العود الهندي ﴾

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك والمتملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لاهل الجاوة بالأثواب ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

﴿ ذكر القرنفل ﴾

وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوزبوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا الى مرسى قاقلة فوجدنا به جملة من الجنوك معدة للسرقة ولمن يستعصي عليهم من الجنوك فان لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك الى مدينة قاقلة وهي بقافين آخرهما مضموم ولامها مفتوح وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الاحمال من العود الهندي يوقدونه في بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا اذا تباعوا فيما بينهم وأما

للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جداً عليها يركبون ويحملون وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه الى داره ويحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

﴿ ذكر سلطان مل جاوة ﴾

وهو كافر رأيته خارج قصره جالس على قبة ليس بينه وبين الارض بساط ومعه أرباب دولته والعساكر يمرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك الا عند السلطان وانما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون فعرف شأني فاستدعاني فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا الا لفظ السلام فرحب بي وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الارض فقال هكذا عادته يقعد على الارض تواضعا وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب اكرامك فجلست وسألني عن السلطان فأوجز في سؤاله وقال لي تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك

(ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه)

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالارض فعجبت من شأنه وقال لي السلطان أيفعل أحد هذا عندكم فقلت له ما رأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا وأمر به فرفع وأحرق وخرج لاحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأجري الرزق الواسع على أولاده وأهله واخوانه وعظموا الاجل فعله وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس ان الكلام الذي تكلم به كان تقريراً لمحبته في السلطان وانه يقتل نفسه في حبه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه وجده نفسه في حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الي بضيافة ثلاثة أيام وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمرة زعموا انها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه

ولا موج ولا حركة مع اتساعه ولاجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كاذ كرناه تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصوارى يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوها ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر وفى المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس فتجذف احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الاخرى وهم يتغنون عند ذلك باصواتهم الحسان وأكثر مايقولون لعلى لعلى وأقنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما الى أربعين وهي أنهي مايكون من التيسير عليهم ثم وصلنا الى بلاد طوالسي وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكها هو المسمي بطوالسى وهي بلاد عريضة وملكها يضاهي ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتي يصالحوه علي شيء وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وكاف مفتوح وراء مكسور) وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما أرسينا بالمرسي جاءت عساكرهم ونزل الناخوذة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه فاخبروه ان أباه ولاه بلدا غيرهم وولي بنته بتلك المدينة (واسمها أردجا بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

(ذكر هذه الملكة)

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسي كيلوكري استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب والكواني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل وهو مقدم الرجال وسباه سالار وهو مقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخوذة مني ان أحضر معهم فابيت لانهم كفار لايجوز أكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقي أحد منكم لم يحضر فقال لها الناخوذة لم يبق الا رجل واحد بخشى وهو القاضي بلسانهم

وبخشي (بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت ادعوه فجاء جنادرتها وأصحاب الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيتها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بأيديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل أخبرني الناخودة انها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وانه عطر الرائحة حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية حسن مسن بخشي مسن (خوشميسن بخشميسن) معناه كيف حالك كيف أنت وأجلستني على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربي فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور (كتور) معناه الدواة والكاغد فأتي بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ماهذا فقلت لها تضري (تنكري) نام وتضري (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون وألف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش) ومعناه جيد ثم سألتني من أي البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلاد الفلفل فقلت نعم فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها فاجبتها فقالت لا بد ان أغزوها وآخذها لنفسي فاني يعجبني كثرة مالها وعساكرها فقلت لها افعلي وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الارز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبانات وهي ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر وأخبرني الناخودة ان هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وانها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الابطال وأخبرني انها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتي وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله

فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير فلما عادت الى أبيها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها وأخبرني ان أبناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج الا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من أقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حيات معنى ذلك ماء الحياة ويسمى أيضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر الى أن ينتهي الى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري بل يفضله والاعناب والاجاص وكنت أظن ان الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الاجاص الذي بالصين وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله وأحسن منه والقمح بها كثير جدا ولم أر قمحا أطيب منه وكذلك العدس والحمص

﴿ ذكر الفخار الصيني ﴾

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منها الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا وأرخص ثمنا ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار

(ذكر دجاج الصين)

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناها في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتف ريشها فيبقى بضعة حمراء وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لي صاحبه ان ببلاد الصين ما هو أعظم منه فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك

(ذكر بعض من أحوال أهل الصين)

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تتري من ذرية تنكيز خان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم وهم أهل رفاهية وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الي كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه الستي (بفتح السين المهمل وكسر التاء المثلوة) وهو بمعنى الكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

(ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون)

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت (بباء موحدة وألف ولام مكسورة وشين معجم مسكن وتاء معلوة) وهي بمعنى الدينار عندنا واذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الامراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد

﴿ ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم ﴾

وجميع أهل الصين والخطا انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتي الفيلة بالاحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم واذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك الى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه

(ذكر ما خصوا به من احكام الصناعات)

وأهل الصين أعظم الامم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فاطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في كاغد قد الصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطي شيأ من شبهه

وذكر لي ان السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا الي القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالهم في ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزي هذا مثل ما حكاه اهل التاريخ من قضية سابور ذي الاكتاف ملك الفرس حين دخل الى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الاواني فنظر اليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرني ان كسري معنا في هذا المجلس فكان الامر على ما قاله وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب

(ذكر عادتهم في تقييد ما في المراكب)

وعادة اهل الصين اذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضا وقابلوا ما كتبوه باشخاص الناس فان فقدوا أحدا ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه والا اخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفسير الجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين اللهم الا انه كان بالهند ما يقرب منه وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرماً ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم

(ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد)

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين أو في الفندق فان احب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وانفق عليه منه بالمعروف فاذا أراد السفر بحث عن ماله فان وجد شيء منه قد

ضاع اغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وان اراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه فان أراد التسري اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وانفق عليهما والجواري رخيصات الاثمان الا ان اهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غير انهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه وكذلك ان أراد التزوج تزوج وأما انفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له اليه ويقولون لا نريد ان يسمع في بلاد المسلمين انهم يخسرون أموالهم في بلادنا فانها أرض فساد وحسن فائت

(ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق)

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الاموال الطائلة فلا يخاف عليه وترتيب ذلك ان لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه وكتب بها تفسيرا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه ان الجميع قد وصلوا اليه وان لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والاوز وأما الغنم فهي قليلة عندهم * ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه اسم وضع عليها وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الاعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان

والارض ودارة في وسطها كمثل ماهي بلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفي يوم وصولي اليها رأيت بها الامير الذي توجه الى الهند رسولا بالهدية ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك فسلم علي وعرف صاحب الديوان بي فانزلني في منزل حسن وجاء الي قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الي كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي اسحق الكازروني ولما اعرف صاحب الديوان اخباري كتب الى القان وهو ملكهم الاعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني الى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونه صين كلان لأشاهد تلك البلاد وهي في عمالته بخلال مايعود جواب القان فأجاب الى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية الا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المركب والركاب في المقدم والمؤخر ويظللون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب وسافرنا في هذا النهر سبعة سبعة وعشرين يوما وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشتري بها مانحتاج اليه ونصلي الظهر ثم ننزل بالعشي الى أخرى هكذا الى أن وصلنا الى مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضا وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليه

الساكنون بها وبين الباب الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الابواب كلها وفي داخلها المارستان للمرضي والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الاطباء والخدام وذكر لي ان الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الايتام والارامل ممن لا حال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما يليها من القري والبساتين وقفا عليها وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الاكابر ذو الاموال الطائلة وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالعشاريات الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لي يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم اذا ظفروا بهم ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأي السد ولا من رأى من رآه

(حكاية عجيبة)

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وانه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت الي الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لي لقد رأيت عجبا أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الاصنام واعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبلت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج الينا وكأنه ظهر منه الندم على

ما تكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمتم عشر سنين لم تروه فان عادته اذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب انه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعلمت القاضي وشيخ الاسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الاديان والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو وأخبروني انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والامراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطي لكل أحد على قدره وليس في الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر وانه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب بأحسن الذكر ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية وحدثوني عنه بأمور كثيرة وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه بالغار فأخذ بيدي فخيل لي اني في قصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هنالك وتخيلت اني أخذت تفاحة لآكلها فاذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً فلم أعد اليه وأهل تلك البلاد يعتقدون انه مسلم لكن لم يره أحد يصلي وأما الصيام فهو صائم أبداً وقال لي القاضي ذكرت له الصلاة في بعض الايام فقال لي أتدري أنت ما أصنع ان صلاتي غير صلاتك وأخباره كلها غريبة وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعاً الى مدينة الزيتون وبعد وصولي اليها بأيام جاء أمر القان بوصولي الى حضرته على البر والكرامة ان شئت في النهر والا ففي البر فاخترت السفر في النهر فجهزوا لي مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الامير معنا أصحابه ووجه لنا الامير والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة وسرنا في الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح

الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق وعند وصولنا خرج الينا القاضي وشيخ الاسلام والتجار ومعهم الاعلام والطبول والابواق والانفار وأهل الطرب وأتوا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا لم يركب معنا غير القاضي والشيخ وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها ويسمون البصوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون وألف ونون) ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والامير الحاكم على البلد ويسكن داخل السور الثالث المسلمون وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهو أعظم المدن الاربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة ولكل انسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه (حكاية)

وبينا أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني اذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتي فعجبت من اسمه ودخل الي فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي اني أعرفه فأطلت النظر اليه فقال أراك تنظر الي نظر من يعرفني فقلت له من أي البلاد أنت فقال من سبتة فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام علي وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لي نعم دخلت حضرة دهلي فلما قال لي ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشري قال نعم وكان وصل الى دهلي مع خاله أبي قاسم المرسي وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وطلب منه الاقامة عنده فأبى وكان قصده في بلاد الصين فعظم شأنه بها واكتسب الاموال الطائلة أخبرني ان له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري واهدى الي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت اخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيا بعد ما بينهما وكانت اقامتي بقنجنفو خمسة

عشر يوما وسافرت منها و بلاد الصين علي ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فاقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج الا لضرورة وكنت اذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري ان سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتي وصلت الي مدينة بيوم قطلو (وهي بباء موحدة مفتوحة وباء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين الا أربعة من الدور وأهلها من جهة الفقيه المذكور ونزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى الى ان وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها الى مدينة الخنسا واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهي على ماذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل أحد له بستانه وداره وهي منقسمة الى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والاطبال والانفار والابواق وخرج أميرها فى موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ويحدق بالجميع سور واحد فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواه انهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الاسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار اولاد عثمان ابن عفان المصري وكان أحد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت

بالنسبة اليه واورث عقبه به الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه أبوهم من الايثار على الفقراء والاعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية اوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت اقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون فى أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة وركبوا معي يوما فدخلنا الى المدينة الرابعة وهي دار الامارة وبها سكنى الامير الكبير قرطي ولما دخلنا من بابها ذهب عني أصحابي ولقيني الوزير وذهب بي الى دار الامير الكبير قرطي فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الامارة فى وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب أخبرني الامير قرطي ان عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم أجمعون عبيد القان وفى أرجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج الى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الامير مائة مائة فان نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم انه اذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين اما ان يقيم فى الخدمة غير مقيد واما ان يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها واذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الاشغال وأنفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الاحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد

(ذكر الامير الكبير قرطي)

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير

أمراء الصين اضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوي (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة وأتي بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الامير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده وأقمنا في ضيافته ثلاثة ايام وبعث ولده معنا الى الخليج فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الامير في أخري ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصينى وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الامير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو (رجز)

تادل بمحنت داديم * دربحر فكرا فتاديم

جن (جون) درنماز استاديم * قوي بمحراب اندري (اندريم)

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون وعدنا بالعشى الى دار الامير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب

﴿حكاية المشعوذ﴾

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الامير أرنا من عجائبك فاخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير في يده الا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد في الهواء الى أن غاب عن أبصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فاخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير الى أن غاب أيضاً ثم رمى بيد الصبي الى الارض ثم رمى برجله ثم بيده الاخرى ثم برجله الاخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الارض بين يدى الامير وكلمه بالصينى وأمر له الامير بشئ ثم انه أخذ أعضاء الصبي فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دوا أذهب عني ما وجدت وكان القاضي أفخر الدين الى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود

ولا نزول ولا قطع عضو وانما ذلك شعوذة وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقا يسمونها الدست وهي من القصب وقد ألصقت قطعة أبدع الصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الاطباق عشرة واحدا في جوف آخر لطو رقتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا ومن عجائبها ان تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواهما ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان الى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون ويدعون دودكاران (درودكران) والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجال وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الاعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهز لنا الامير قرطي مركبا بما يحتاج اليه من زاد وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر عمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم لانها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة انما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الانبار الى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لاجل الضيافة حتى وصلنا الى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجم وألف ونون مسكن وباء معقودة وألف ولام مكسور وقاف) وتسمى أيضا خانقو (بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الاعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا ولما وصلنا

اليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب الى أمراء البحر بخبرنا فاذنوا لنا في دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا الى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها انما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي وهو الذي بعث اليه ملك الهند بار بعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضي بها دينه وأبي ان يسير اليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان

﴿ ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان ﴾

والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك ملك الاقطار كمثل مايسمى كل من ملك بلاد اللور بأتابك واسمه باشاى (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الارض مملكة أعظم من مملكته

﴿ ذكر قصره ﴾

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الاول منها يجلس به الكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرددارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت انهم كانوا فيما تقدم ألف رجل والباب الثاني يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنون والزاى) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم) وهم أصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدى الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمي ديوان

الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الامراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من إقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الاعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاث سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين

﴿ ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله ﴾

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائباً عنها إذ ذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس وأميرهم يسمي أمير طومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفا زائدا الي ذلك وكانت الرجالة خمسمائة ألف ولما خرج خالف عليه أكثر الامراء واتفقوا على خلعه لانه كان قد غير أحكام اليساق وهي الاحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذى خرب بلاد الاسلام فمضوا الى ابن عمه القائم وكتبوا الى القان ان يخلع نفسه وتكون مدينة الخنسا اقطاعا له فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد أيام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والابواق والانفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الارض وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم أواني شراب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتي صار كالتل العظيم ثم جاؤا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتي وقفت

و نصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد ان أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعين ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الاخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون اليه من طعام وسواه وهذه الافعال لا أذكر ان أمة تفعلها سواهم في هذا العصر فاما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الامم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان ان الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم انه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم وفديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار أن تكون حضرته مدينة قراقرم (وضبطها بفتح القاف الاولى والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية) لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر ثم خالفت عليه الامراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن

﴿ ذكر رجوعي الى الصين ثم الى الهند ﴾

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار على الشيخ برهان الدين وسواه ان أعود الى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معي الى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر الى الخنسا ثم الى قنجنفو ثم الى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر الى الهند وفي جملتها جنك الملك الظاهر صاحب

الجاوة وأهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي وصادفنا الريح انطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع الى الصين فلم يمكن ذلك وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن

(ذكر الرخ)

ولما كان في اليوم الثالث والاربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا الى صوبه فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا فلجأ الناس الى التضرع والاخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ونذر التجار التصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ما شأنكم فقالوا ان الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وان رآنا أهلكنا وبيننا اذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث لي جاريتين وغلامين وأنزلني على العادة وحضرت اعراس ولده مع بنت أخيه

(ذكر اعراس ولد الملك الظاهر)

وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن الا في الاعراس خاصة

وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة والتاج على رأس العروس المذكور وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والامراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤسهم الشواشي المرصعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر الى العروس فقامت اليه وقبلت يده وجلس الى جانبها والخواتين يروحن عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذه الزوج بيده وجعل منه في فمها ثم أخذت هي بيدها وجعلت في فمه ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها في فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هي كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وجري له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت في بعض الجنوك وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وردني وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما الي الى كولم فنزلت بها في جوار القزويني قاضي المسلمين وذلك في رمضان وحضرت بها صلاة العيد في مسجدها الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله الى الصبح ثم يذكرن الى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كولم الى قالقوط وأقمنا بها أياما وأردت العودة الي دهلي ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ونزلت بدار خطيبها عيسي بن طاطا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

ووجدت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذي كان ملكا بها حين وصولي اليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر التركي الاصل وأنزلني هذا السلطان وأكرمني ثم ركبت البحر فوصلت الى مسقط (بفتح الميم) وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ثم سافرنا الى مرسي القريات (وضبطها بضم

القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وتاء مثناة) ثم سافرنا الى مرسى شبة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم الى مرسى كلبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب ثم الى قلهات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهي محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا الى هرمز وأقنا بها ثلاثاً وسافرنا في البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا الى كارزي (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاي) وأقنا بها ثلاثاً ثم سافرنا الى جمكان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون) ثم سافرنا منها الى ميمن (وضبط اسمها بفتح الميمين وبينهما ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون) ثم سافرنا الى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها) ثم الى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا اسحق على ملكه الا انه كان غائباً عنها ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت الى ماين ثم الى يزدخاص ثم الى كليل ثم الى كشك زر ثم الى أصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزا ثم الى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهي قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وأبي بكرة وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت البناني ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا الى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزرناه ثم توجهنا الى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ثم الى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان واتفق في بعض تلك الايام ان وليها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم الى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الامير فاصابت ذلك الوالي علة مات منها سريعاً فزاد ذلك في فتنة الرافضة وقالوا انما أصابه ذلك لاجل منعه الدابة فلم تمنع بعد ثم سافرت الى صرصر ثم الى مدينة بغداد ووصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين ولقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء جبر الله صدع

الاسلام في ذلك

﴿ذكر سلطانها﴾

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي اليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبي سعيد رحمه الله ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج تزوجته دلشاد بنت دمشق خواجة بن الامير الجوبان حسبما كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان السلطان حسن غائباً عن بغداد في هذه المدة متوجها لقتال السلطان أتابك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت الى مدينة الأنبار ثم الى هيت ثم الى الحديثة ثم الى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة كأن الماشي في سوق من الاسواق وقد ذكرنا انا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت الى مدينة الرحبة وهي التي تنسب الي مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا منها الي السخنة وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى وانما سميت السخنة لحرارة مائها وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد ثم سافرنا الى تدمر مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النابغة (بسيط) (يبنون تدمر بالصفاح والعمد) ثم سافرنا منها الى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لي حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند انها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ الى جده للام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارا ذهبا هنديا فحين وصولي الى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم الا السؤال عن ولدي فدخلت المسجد فوفق لي نور الدين السخاوي امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفني فعرفته بنفسي وسألته عن الولد فقال مات منذ ثنتي عشرة سنة وأخبرني ان فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية فسرت اليه لأسأله عن والدي وأهلي فوجدته شيخا كبيرا فسلمت عليه وانتسبت له فأخبرني ان والدي توفي منذ خمس عشرة سنة وان الوالدة بقيد الحياة وأقمت بدمشق الشام بقية السنة

والغلاء شديد والخبز قد انتهى الى قيمة سبع أواقي بدرهم نقرة وأوقيتهم أربع أواقي مغربية وكان قاضي قضاة المالكية اذ ذاك جمال الدين المسلاتي وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوي وقدم معه دمشق فعرف بها ثم ولي القضاء وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين بن السبكي وأمير دمشق ملك الامراء أرغون شاه

(حكاية)

ومات في تلك الايام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للمساكين فكان المتولي لانفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدوا أيديهم الى خبز الخبازين وبلغ ذلك الامير أرغون شاه فاخرج زبانيته فكانوا حيثما لقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تأخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة وركب من الغد وأحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم برآء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا الى حمص وحماه وحلب وذكر لي انه لم يعش بعد ذلك الا قليلا وقتل ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماه ثم المعرة ثم سرمين ثم الى حلب وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رغطي (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة)

(حكاية)

واتفق في تلك الايام ان فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن في جبل خارج مدينة عينتاب والناس يقصدونه وهم يتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لا زوجة له قال في بعض كلامه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضي ورفع أمره الى ملك الامراء وأتي به وبتلميذه الموافق له على قوله فافتى القضاة الاربعة وهم شهاب الدين المالكي وناصر الدين العديم الحنفي وتقي الدين بن الصائغ الشافعي وعز الدين الدمشقي الحنبلي بقتلهما معا فقتلا وفي أوائل شهر ربيع الاول عام تسعة وأربعين بلغنا الخبر في حلب ان الوباء وقع بغزة وانه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الالف في يوم واحد فسافرت الى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولي اليها نحو ثلثمائة انسان ثم سافرت الى دمشق ووصلتها

يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة الى مسجد الاقدام حسبما ذكرناه في السفر الاول فخفف الله الوباء عنهم فانتهي عدد الموتي عندهم الى ألفين وأربعمائة في اليوم ثم سافرت الى عجلون ثم الي بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة ألف درهم في الشهر

(حكاية)

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعاني فيمن دعاه اليها فسألته عن سببها فاخبرني انه نذر أيام الوباء انه ان ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلي فيه علي ميت صنع الدعوة ثم قال لي ولما كان بالامس لم أصل على ميت فصنعت الدعوة التي نذرت ووجدت من كنت أعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الي جوار الله تعالي رحمهم الله فلم يبق منهم الا القليل مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الاقصي ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى فاضافني ولم ألق بالشام ومصر من وصل الي قدم آدم عليه السلام سواه ثم سافرت عن القدس ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادى فوصلنا الى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام ثم سرنا الي غزة فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها في الوباء وأخبرنا قاضيها ان العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع وان عدد الموتي بها انتهي الي ألف ومائة في اليوم ثم سافرنا في البر فوصلت الى دمياط ولقيت بها قطب الدين النقشواني وهو صائم الدهر ورافقني منها الي فارسكور وسمنود ثم الي أبي صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها

(حكاية)

وبينما نحن بتلك الزاوية اذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام فأبى وقال انما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه فمضي اليه فوجده ميتا فصلينا عليه ودفناه رحمة الله عليه ثم سافرت الى المحلة الكبيرة ثم الي نحرارية ثم الي

إبيار ثم الى دمنهور ثم الي الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد ان بلغ عدد الموتى الي ألف وثمانين في اليوم ثم سافرت الى القاهرة وبلغني ان عدد الموتي أيام الوباء انتهي فيها الي أحد وعشرين ألفا في اليوم ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالي

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون وبعد ذلك خلع عن الملك وولي أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة قد توجه الي مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي لسفرهم في شهر رجب وأخبرت ان الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها الى عيذاب وركبت منها البحر فوصلت الى جدة ثم سافرت منها الي مكة شرفها الله تعالى وكرمها فوصلتها فى الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين ونزلت في جوار امام المالكية الصالح الولي الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفي وشهاب الدين الطبري وأبا محمد اليافعي ونجم الدين الاصفوني والحرازى وحججت في تلك السنة ثم سافرت مع الركب الشامي الي طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم المطيب زاده الله طيبا وتشريفا وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ولقيت من الاشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة الي العلا وتبوك ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم الى غزة ثم الي منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم الي القاهرة وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالي قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفي ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية وأفاض الاحسان على

الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوفت النفوس الى المثول ببابه وأملت لثم ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع ما شقني من تذكار الاوطان والحنين الي الاهل والخلان والمحبة الى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان (طويل)

بلاد بها نيطت على تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابها

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة وذلك في صفر سنة خمسين وسرت حتي نزلت بجربة وسافر المركب المذكور الي تونس فاستولي العدو عليه ثم سافرت في مركب صغير الى قابس فنزلت في ضيافة الاخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي أميري جربة وقابس وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركبت في مركب الي سفاقس ثم توجهت في البحر الى بليانة ومنها سرت في البر مع العرب فوصلت بعد مشقات الى مدينة تونس والعرب محاصرون لها

(ذكر سلطانها)

وكانت تونس في ايالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين علم الاعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الأجواد القانت الأواب الخاشع العادل أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذي سارت الامثال بجوده وشاع في الاقطار أثر كرمه وفضله ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدي آثار الجهاد ومعيدها ناصر الايمان الشديد السطوة في ذات الرحمان العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبي يوسف ابن عبد الحق رضي الله عنهم أجمعين وأبقى الملك في عقبهم الي يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي لما بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية فأنزلني بداره وتوجه معي الي المشور فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه وأمرني بالقعود فقعدت وسألني عن الحجاز

الشريفة وسلطان مصر فأجبته وسألني عن ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالاسكندرية وما لقي من إذايتهم انتصاراً منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه وكان في مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السطي والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ ومن أهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد الرفيع وأبو عبد الله بن هرون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمرو عثمان بن عبد الواحد التنالفتي وأبو حسون زيان ابن أمريون العلوي وأبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري والحاج أبو الحسن النميسي فسألني عن ملك الهند فأجبته عما سأل ولم أزل أتردد الى مجلسه الكريم أيام اقامتي بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما ولقيت بتونس اذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الابلي وكان في فراش المرض وباحثني عن كثير من أمور رحلتي ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا الى جزيرة سردانية من جزور الروم ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح الا باذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه أسواق كثيرة ونذرت لله تعالى ان خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين لاننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسرونا ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر الى مدينة تنس ثم الى مازونة ثم الى مستغانم ثم الي تلمسان فقصدت العباد وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع به ثم خرجت عنها على طريق ندرومة وسلكت طريق أخندقان وبت بزاوية الشيخ ابراهيم ثم سافرنا منها فبينما نحن بتمرباذغان اذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله ووصلت الى مدينة تازي وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم الامام الاكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان وصل الله علوه وكبت

عدوه فأ نستني هيبته هيبة سلطان العراق وحسنه حسن ملك الهند وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبو زيان بن ودرار فسألني عن الديار المصرية إذ كان قد وصل اليها فأجبته عما سأل وغمرني من احسان مولانا أيده الله تعالى بما أعجزني شكره والله ولي مكافأته وألقيت عصي التسيار ببلاده الشريفة بعد ان تحققت بفضل الانصاف انها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسرة والمياه والاقوات غير متعذرة وقل إقليم يجمع ذلك كله ولقد أحسن من قال (مجتث)

الغرب أحسن أرض * ولي دليل عليه

البدر يرقب منه * والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة واذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح فضل بلاد المغرب فأقول ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ثمان عشرة أوقية بدرهمين وهما ثلث النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الاوقات والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ولأن أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلا وهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك وأعلى أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن والقلقاس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك وأما الخضر فهي أقل الاشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام وأما العنب فاذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة الا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنا فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة

ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية واذا رخص ثمنه يبيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواقى بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهي درهم من دراهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من ارطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فاذا تأملت ذلك كله تبين لك ان بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا الى شرفها وفضلا الى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذى مد ظلال الأمن في اقطارها وأطلع شمس العدل فى أرجائها وأفاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم

﴿ ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله ﴾

أما عدله فأشهر من أن يسطر في كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة الى العصر ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة فان كانت متظلمة عجل انصافها أو طالبة احسان وقع اسعافها ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شيء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فان ملك الهند عين بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم الكبار التى لا يعفو عن جرائمهم الا من وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزى من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله انى منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين الى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة

وخمسين لم أشاهد أحدا أمر بقتله الا من قتله الشرع فى حد من حدود دا حسن أخلاقه أو حرابة هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف وما ومودياته ذلك فيما تقدم من الأعصار ولا فيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما له من المكارم المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بنى عبد الوادي وغيرهم ولقد وصل خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا والا فلا قال ابن جزى لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الأعادي ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الاسد فانه لما خرج الاسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال وفرت أمامه الفرسان والرجال برز اليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خربها صريعا لليدين وللفم وأما هزائم الاعادى فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم واقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال وأما مولانا أيده الله فانه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه انه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الاعداء وانهزموا أمامه فكان من العجائب فرار الامم أمام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وماهو الاثمرة ما يعتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه وأما اشتغاله بالعلم فهاهو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وفروع مذهب مالك رضى الله عنه وكتب المتصوفة وفي كل علم منها له القدح المعلى يجلو مشكلاته بنور فهمه ويلقى نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الائمة المهتدين والخلفا الراشدين ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي خاصة وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة حتى رأيت ملازمة

مولانا أيده الله في الصلوات كلها في الجماعة ولقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء قال ابن جزي لو ان عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل الى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم مع اشتغاله بأمور الامة وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك ونظره بنفسه في شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسئلة علم في أي علم كان إلا جلا مشكلها وباحث في دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه مافاتهم من مغلقاتها ثم سما أيده الله الى العلم الشريف التصوفي ففهم اشارات القوم وتخلق بأخلاقهم وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعته وشفقته على رعيته ورفقه في أمره كله واعطي الادب حظا جزيلا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا وأعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما الى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبهما بخط يده الذي يخجل الروض حسنا وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ولا رام إدراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى وأحاط علما بمحصولها لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لاطعام الطعام للوارد والصادر فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المستترين من أهل البيوت قال ابن جزي اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات امورا لم تخطر في الاوهام ولا تهدت اليها السلاطين فمنها اجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضا ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الاصناف في عيد الاضحى ومنها التصدق بما يجتمع في مجابي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان اكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه

ومنها اطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لاقامة رسمه ومنها اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده وتعيين الاوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الاطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم الى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر كافي الله أياديه وشكر نعمه وأما رفعه للمظالم عن الرعية فنها الرتب التي كانت تؤخذ بالطرقات أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مجبي عظيم فلم يلتفت اليه وما عند الله خير وأبقى وأما كفه أيدي الظلام فأمر مشهور وقد سمعته أيده الله يقول لعماله لا تظلموا الرعية ويؤكد عليهم في ذلك الوصية قال ابن جزي ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته الا رفعه التضييف الذي كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا لكفى ذلك أثرا في العدل ظاهرا ونورا في الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق مالا يحيط به الحصر وقد صدر في أيام تضييف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ماهو اللائق باحسانه والمعهود من رأفته وشمل الامر بذلك جميع الاقطار وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام مافيه زجر الظلمة وردع المعتدين وأما فعله في معاونة اهل الاندلس على الجهاد ومحافظته على امداد الثغور بالاموال والاقوات والسلاح وفته في عضد العدو باعداد العدد واظهار القوة فذلك أمر شهير لم يغب علمه عن اهل المغرب والمشرق ولا سبق اليه أحد من الملوك قال ابن جزي حسب المتشوف الى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد القطر للمسلمين ودفاع القوم الكافرين مافعله في فداء مدينة طرابلس افريقية فانها لما استولى العدو عليها ومد يد العدوان اليها ورأى أيده الله ان بعث الجيوش الى نصرتها لا يتأتى لبعد الاقطار كتب الى خدامه ببلاد افريقية ان يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذي استرجعها من أيدي

الكفار بهذا النزر اليسير وأمر للحين ببعث ذلك العدد الى افريقية وعادت المدينة الى الاسلام على يديه ولم يخطر في الاوهام ان أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزراً يسيراً حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل في الملوك أمثالها وعز عليهم منالها ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا في زمان الصلح والمهادنة اعداداً لايام الغزاة وأخذاً بالحزم في قطع اطماع الكفار وأكد ذلك بتوجهه أيده الله بنفسه الى جبال جاناتة في العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته اعمال الجهاد مترجياً ثواب الله تعالى وموقناً بحسن الجزاء (رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلي وهو الذي امتاز بالحسن واتقان البناء واشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبري بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها في المعمور اتساعاً وحسناً وابداعاً وكثرة ماء وحسن وضع ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها وعمارة الزاوية العظمي على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضاً في عجب وضعها وبديع صنعها وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر وهذه أبدع منها وأشد إحكاماً واتقاناً والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافئ فضائله المنيفة ويديم للاسلام والمسلمين أيامه وينصر ألويته المظفرة واعلامه ولنعد الى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم وعمني فضل احسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت الى بلدى طنجة وزرتها وتوجهت الى مدينة سبتة فأقمت بها أشهراً وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله فأردت ان يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة في شطي لاهل أصيلا فوصلت الى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك إثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه انه يستولى على ما بقى من بلاد الأندلس للمسلمين فاخذه الله من

حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفا منه واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيي بن السراج الرندي وقاضيه عيسى البربري وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضي الله عنه وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به الى نهاية العمر قال ابن جزي جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجي في حلوق عبدة الاصنام حسنة مولانا أبي الحسن رضي الله عنه المنسوبة اليه وقربته التي قدمها نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الاجناد والثغر الذى افتر عن نصر الايمان واذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق وجبل الفتح لان مبدأه كان منه وبقايا السور الذي بناه ومن معه باقية الى الآن تسمي بسور العرب شاهدتها أيام اقامتي به عند حصار الجزيرة أعادها الله ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا وبعث الى حصاره ولده الامير الجليل أبا مالك وأيده بالاموال الطائلة والعساكر الجرارة وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبني به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المأثرة العظمي بأعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة ولم يكن به دار صنعة وبنى السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة الى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بها بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص ولما كان في الاشهر الاخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرة توكله في أموره على الله وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية وذلك ان عامل الجبل الخائن الذى ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده المملوئة

عن الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق وجمح في الغدر و الشقاق و تعاطى ماليس من رجاله وعمي عن مبدأ حاله السيئ وما آله وتوهم الناس ان ذلك مبدأ فتنة تنفق على اطفائها كرائم الاموال ويستمد لاتقائها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذا الفتنة فلم تكن الأيام يسيرة وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقى المخالف وقاموا بالواجب من الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق وأتي بهما مصفدين الى الحضرة العلية فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين واراح الله من شرهما ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس مالم يكن في حساب أهلها وبعث الى جبل الفتح ولده الاسعد المبارك الارشد أبابكر المدعو من السماة السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم وبذل لهم جزيل الاحسان وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور فمثل فيه أشكال اسواره وابراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وما ذلك الا لتشوقه أيده الله الى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه واعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه ويحقق مايؤمله في فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الاديب البليغ المفاق أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي البلنسي رحمه الله في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن على التي أولها (بسيط)

لو جئت نار الهدي من جانب الطور * قبست ماشئت من علم ومن نور

وفيها يقول في وصف الجبل وهو من البديع الذي لم يسبق اليه بعد وصفه السفن وجوازها

حتى رمت جبل الفتحين من جبل * معظم القدر فى الاجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس * له من الغيم جيب غير مزرور
تمسي النجوم على تكليل مفرقه * فى الجو حائمة مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها * بكل فضل على فوديه مجرور
وادرد من ثناياه بما أخذت * منه معاجم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها * وساقها سوق حادى العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في * عجيب أمريه من ماض ومنظور
قدواصل الصمت والاطراق مفتكرا * بادى السكينة مغفر الاسارير
كأنه مكمد مما تعبده * خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الارض راجفة * أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن على قال ابن جزى ولنعد الى كلام الشيخ أبي عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح الى مدينة رندة وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا وكان قائدها اذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرى وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيي بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضي الاديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى وأضافني بمنزله ولقيت بها أيضاً خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا اسحق ابراهيم المعروف بالشندرخ المتوفي بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفار وسواه وأقمت بها خمسة أيام ثم سافرت منها الى مدينة مربلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة ومربلة بليدة حسنة خصبة ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين الى مالقة فأردت التوجه في صحبتهم ثم ان الله تعالى عصمني بفضله فتوجهوا قبلى فأسروا في الطريق كما سنذكره وخرجت في أثرهم فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت في حوز سهيل مررت بفرس ميت في بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالارض فرابني ذلك وكان أمامي برج الناظور فقلت في نفسي لو ظهر ههنا عدو لانذر به صاحب البرج ثم تقدمت الى دار

هنالك فوجدت عليه فرساً مقتولا فبينا أنا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفي وكنت قد تقدمت أصحابي فعدت اليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمني ان أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها الى البر ولم يكن الناظور بالبرج فربهم الفرسان الخارجون من مربلة وكانوا اثني عشر فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالارض وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصلني منه الى مالقة فبت عنده بحصن الرابط المنسوبة الى سهيل والاجفان المذكورة مرساة عليه وركب معي بالغد فوصلنا الي مدينة مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزى والى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقي في قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حييت يا تينها * فالفلك من أجلك ياتيها
نهى طبيبي عنك في علة * ما لطبيبي عن حياتي نها

وذيلها قاضي الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله في قصد المجانسة (سريع)

وحمص لا تنس لها تينها * واذكر مع التين زياتينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له في الحسن فيه أشجار النارنج البديعة ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولى الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي قاعدا بالجامع الاعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم فداء الاساري الذين تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم وأخبرته بما اتفق لي بعدهم فعجب من ذلك وبعث الي بالضيافة رحمه الله وأضافني أيضاً خطيبها أبو عبد الله الساحلي المعروف بالمعمم ثم سافرت

منها الى مدينة بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلا وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين كمثل مابمالقة ثم سافرنا منها الى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على ضفة واديها وبينها وبين البلد ميل أو نحوه وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء ثم سافرت منها الى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لامثل لها بسواها قال ابن جزى لولا خشيت ان أنسب الي العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لامعنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي نزيل غرناطة حيث يقول (طويل)

رعى الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يجير طريداً
تبرم منها صاحبي عند مارأى * مسارحها بالثلج عدن جليداً
هي الثغر صان الله من أهلت به * وما خير ثغر لايكون بروداً

﴿ رجع ذكر سلطانها ﴾

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي اليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ولم ألقه بسبب مرض كان به وبعثت الي والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقت بها ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسيني السبتي ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البياني ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب ابو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب ومنهم قاضي الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي البلفيقي قدم عليها من المرية في تلك الايام فوقع الاجتماع به في بستان الفقيه أبي القاسم محمد بن الفقيه الكاتب الجليل أبي

عبدالله بن عاصم وأقمنا هنالك يومين وليلة قال ابن جزى كنت معهم في ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبدالله باخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الاعلام الذين لقيهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي وهذا الفتى أمره عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يامن اختار فؤادى منزلا * بابه العين التى ترمقه

فتح الباب سهادى بعدكم * فابعثوا طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا على عمر بن الشيخ الصالح الولي أبي عبدالله محمد بن المحروق وأقمت أياما بزاويته التي بخارج غرناطة وأكرمنى أشد الاكرام وتوجهت معه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة البيرة الخربة ولقيت أيضا ابن أخيه الفقيه أبا الحسن على بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المتسببين من الفقراء وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى والحاج أحمد التبريزي والحاج ابراهيم القونوي والحاج حسين الخراساني والحاجان على ورشيد الهنديان وسواهم ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى بلش ثم الى مالقة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن كثير المياه والاشجار والفواكه ثم سافرت منه الى رندة ثم الى قرية بنى رياح فأنزلنى شيخنا أبو الحسن على سليمان الرياحي وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الاعيان يطعم الصادر والوارد وأضافنى ضيافة حسنة ثم سافرت الى جبل الفتح وركبت البحر فى الجفن الذى جزت فيه أولا وهو لاهل أصيلا فوصلت الى سبتة وكان قائدها اذذاك الشيخ أبو مهدى عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه أبو محمد الزجندرى. ثم سافرت منها الى اصيلا

وأقمت بها شهورا ثم سافرت منها الى مدينة سلا ثم سافرت من سلا فوصلت الى مدينة مراكش وهي من اجمل المدن فسيحة الارجاء متسعة الاقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الاعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فما شبهته الا ببغداد الا ان أسواق بغداد أحسن وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة وهي من بناء الامام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزي في مراكش يقول قاضيها التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي (بسيط)

لله مراكش الغراء من بلد * وحبذا أهلها السادات من سكن
ان حلها نازح الاوطان مغترب * أسلوه بالانس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها * ينشا التحاسد بين العين والاذن

﴿رجع﴾ ثم سافرنا من مراكش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا الى مدينة سلا ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف ايرارمنه لا نظير له في البلاد ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشرى وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا شد ما تباعدا فأكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما الى تغازى (وضبط اسمها بفتح التاء المثناة والغين المعجم وألف وزاى مفتوح) أيضاً وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود

الجمال ولا شجر بها انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلي المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما انتهى الى أربعين مثقالا وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به وقريه تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر وأقنا بها عشرة أيام في جهد لان ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها الا في النادر ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر ولقد وجدنا في بعض الايام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فترويناه منه وغسلنا ثيابنا والكمأة بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها وكنا في تلك الايام نتقدم امام القافلة فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدي منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فأشرت على ابن خاله بأن يكتري من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فأبي وانتدب في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجرة لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ولقد لقينا قافلة في طريقنا فاخبرونا ان بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفي يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا الى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء) وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملؤنها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ومن هنالك يبعث التكشيف

﴿ ذكر التكشيف ﴾

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم الى ايوالاتن بكتب الناس الى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب الي من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتي يضل عن قصده فيهلك اذ لا طريق يظهر بها ولا أثر انما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت الي سواه والدليل هنالك من كثر ترددهو كان له قلب ذكي ورأيت من العجائب ان الدليل الذى كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف الناس بالطريق واكترينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي آمنة من السراق والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتي يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولد أكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك ومن العجائب ان هذه البقر اذا قتلت وجد في كروشها الماء ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذي فيه والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة

(حكاية)

وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان ومن عادته ان يقبض على الحيات ويعبث بها وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي فلما كان ذات يوم أدخل يده في جحر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فاخذها بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فكويت يده وزاد ألمه عشي النهار فنحر جملا وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الاصل وأخبرنا أهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل الينا الذين استقبلونا

بالمساء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدناه وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم باحمال الماء للبيع ثم وصلنا الى مدينة أيوالاتن في غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا (بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحدة) ومعناه النائب ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا الي الفربا وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له ان يكترى لي دارا ففعل ذلك ثم ان مشرف ايوالاتن ويسمى منشاجو (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم وألف وجيم مضموم وواو) استدعي من جاء في القافلة الي ضيافته فأبيت من حضور ذلك فعزم الاصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ثم أتي بالضيافة وهي جريش انلى مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا الاسود فقالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم فايقنت حينئذ ان لاخير يرتجي منهم واردت ان أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لي ان اتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت اقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوما وأكرمني أهلها وأضافوني منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيي وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب اهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهي اعظم شأنا من الرجال

(ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن)

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب

أحدهم الى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل الا أبناء أخته دون بنيه وذلك شي مارأيته في الدنيا الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت احداهن ذلك لمنعها اهلها والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

(حكاية)

دخلت يوما على القاضي بايوالاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت واردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع انها صاحبتي فعجبت من شأنهما فانه من الفقهاء الحجاج وأخبرت انه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له

(حكاية نحوها)

دخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها فقال هو صاحبها فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد اليه بعدها واستدعاني مرات فلم أجبه ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوما للمجد اكتريت دليلا من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من أصحابي وتلك الطريق كثيرة الاشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الاشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها

ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزي ببلاد الاندلس شجرتين من شجر القسطل في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب أحداهما بسند وادي آش والاخرى ببشارة غرناطة (رجع) وفى أشجار هذه الغابة التى بين ايو الاتن ومالى مايشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي والغرتى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان اذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ماتسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا واذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع والمسافر بهذه البلاد لايحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر مايعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنلى واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشترى منهن ما أحب من ذلك الا أن الأرز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه وبعد مسيرة عشرة أيام من أيو الاتن وصلنا الى قرية زاغري (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراتة (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والرا

وألف وتاء مثناة وتاء تأنيث) ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسمون صغنغو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الاول والنون وضم الغين الثاني وواو) والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة) ومن هذه القرية يجلب انلى الى ايو الاتن ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو) والنيل يخدر منها الى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء) ثم الى زاغة (بفتح الزاى والغين المعجم) ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي وأهل زاغة قدماء في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم يخدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرهما ثم الى بلدة مولى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهي آخر عمالة مالى ثم الي يوفي واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو وقاء مكسورة) وهى من أكبر بلاد السودان وسلطانها من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها ثم يخدر منها الي بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهى أكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعي ابن كنز الدين أسلم على أيام الملك الناصر ثم يخدر الي جنادل وهى آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان من صعيد مصر ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير ولقد نزلت يوما الى النيل لقضاء حاجة فاذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني و بين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه وذكرت ذلك لبعض الناس فقال انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح فحال بينك وبينه ثم سرنا من كارسخو فوصلنا الى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة أميال من مالي وعادتهم ان يمنع الناس من دخولها الا بالاذن وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتروا لي دارا فلما وصلت الى النهر

المذكور جزت في المدية ولم يمنعني أحد فوصلت الى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت الى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لي دارا ازاء داره فتوجهت اليها وجاءصهره الفقيه المقري عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه الى من الغد وشمس الدين (بن) النقويش وعلى الزودى المراكشى وهو من الطلبة ولقيت القاضى بمالي عبد الرحمن جاءني وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق بعث الى بقرة في ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال وواو وغين معجم) وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث الي بثور وبعث الي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني وقرعة من الغرتي وبعث الي ابن الفقيه الأرز والفوني وبعث الي شمس الدين بضيافة وقاموا بحقي أتم قيام شكر الله حسن أفعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره وأكلنا بعد عشرة ايام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القافي (بقاف وألف وفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فاصبحنا جميعا مرضى وكنا ستة فمات أحدنا وذهبت انا الصلاة الصبح فغشى على فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فاتى بشيء يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء) وهو عروق نبات وخلطه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين

(ذكر سلطان مالى)

وهو السلطان منسي سليمان ومنسي (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء واتفق اني أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ثم انه صنع طعاما برسم غداء مولانا أبي الحسن رضي الله الله عنه واستدعي الامراء والفقهاء والقاضى والخطيب وحضرت معهم فأتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسى سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسي سليمان وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فأجابهم

بلسانهم فقالوا الي يقول لك السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

(ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها)

ولما انصرفت بعث الي الضيافة فوجهت الى دار القاضي وبعث القاضي بها مع رجاله الى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي وقرعة فيها لبن رائب فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير

(ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه الي)

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل الي فيهما شيء من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت خلال ذلك أتردد الى المشور وأسلم عليه واقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس في أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له اني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولي ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين فقال اني لم أرك ولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فأمر لي عند ذلك بدار انزل بها ونفقة تجري علي ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا وأحسن الي عند سفري بمائة مثقال ذهبا

(ذكر جلوسه بقبته)

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب أو هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس أخرج من شباك احدي الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو

ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القسي وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون انهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتي الفرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة في المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشي لهم في تصنيعها صنعة بديعة وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفي رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور في شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسا وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

﴿ ذكر جلوسه بالمشور ﴾

ويجلس أيضا في بعض الايام بالمشور وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (بفتح الباء المعقودة الاولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد

أصحاب السلاح ويمشي مشيار ويداو يكثر التأني وربما وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتي بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس فى الشارع تحت الاشجار

(ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له وغير ذلك من أحوالهم)

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسي سليمان كي فاذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالرا كع يسمع كلامه واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لا تعمي أعينهم واذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤسهم وأنصتوا الكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم أن ينزع أحدهم في وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل اذا رمى فاذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزى وأخبرني الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله انه لما قدم الحاج موسي الونجراتي رسولا عن منسي سليمان الي مولانا أبي الحسن رضي الله عنه كان اذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده

(ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه)

وحضرت بمالي عيد الاضحى والفطر فخرج الناس الي المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان

لا يلبسون الطيلسان الا في العيد ما عدى القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الايام وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها وأصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البنبي وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغاء الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف الحمر وفي رؤسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغاء بالسيف لعبا بديعا وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيأتي بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ويذكر له ما فيها على رؤس الناس وتقوم الفرارية فينزعون في قسيهم شكرا للسلطان وبالغد يعطي كل واحد منهم لدوغاء عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغاء مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

﴿ ذكر الأضحوكة في انشاد الشعراء للسلطان ﴾

واذا كان يوم العيد وأتم دوغاء لعبه جاء الشعراء ويسمون الجلا (بضم الجيم) واحدهم

جالي وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق وجعل لها رأس من الخشب لها منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم وذكر لي ان شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان ان هذا البنبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا وفلان وكان من أفعاله كذا فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي ويضع رأسه في حجر السلطان ثم يصعد الى أعلى البنبي فيضع رأسه على كتف السلطان الايمن ثم على كتفه الايسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل وأخبرت ان هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه (حكاية)

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لي أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف فقال ان الفقيه أخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فأجابته جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها فصدقه القاضي والسلطان وقال عند ذلك للامراء اني برىء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤسهم وتبرؤا من الظلم *(حكاية)*

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بابي حفص فقال يا أهل المسجد أشهدكم ان منسي سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج اليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من أخذ لك شيئاً فقال منشا جوا يوالاتن يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال وأراد ان يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد أيام وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه فأخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله *(حكاية)*

واتفق في أيام اقامتي بمالي ان السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام في ذلك وأنكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يتربن رؤسهن ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتربن على العادة فشكت بنجو الى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضي عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لايرى وجهها وأكثر الامراء الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاسا وانها أذنبت ذنباً كبيراً ثم أتي بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبرني واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم ان يستجيروا هنالك بالمسجد وان لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسي مغا منسى موسي وكان كريما فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذي اعطي لابي اسحق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال واخبرني بعض الثقات انه أعطي لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد وكان جده سارق جاطة أسلم على يدي جد مدرك هذا

(حكاية)

وأخبرني الفقيه مدرك هذا ان رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن الى السلطان منسي موسي في صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبي غير معتبر

ثم اتفق ان جاء اليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وأدناه منه حتى جلس معه على البني ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها فاعطه سبعين مثقالا فاعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما وأمر ان لا ينقطع عنه وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولده ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن ببلاد السودان

﴿ ذكر ما استحسنته من افعال السودان وما استقبحته منها ﴾

فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي ما فعل هذا أقتل ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي انما قيد حتى يحفظ القرآن ومن مساوى افعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فان عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعرى بناته

ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تأدباً ومنها ماذكرته من الاضحوكة في انشاد الشعراء ومنها ان كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير

﴿ ذكر سفري عن مالي ﴾

وكان دخولي اليها في الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين ورافقني تاجر يعرف بابي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لي جمل أركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوي أحدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل لايجاز الا في المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به الا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

﴿ ذكر الخيل التي تكون بالنيل ﴾

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشر دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقلت لابي بكر بن يعقوب ماهذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعى في البر وهي أغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب ورؤسها كرؤس الخيل وأرجلها كارجل الفيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو وهي تعوم في الماء وترفع رؤسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ولهم حيلة في صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحا مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمي فربا مغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع السلطان منسي موسى لما حج

(حكاية)

أخبرني فربا مغا ان منسي موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان

يكنى بابي العباس ويعرف بالدكالي فأحسن اليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدي جواريه ماضاع له شيء وانما دفنها بيده في ذلك الموضع وأشارت له الى الموضع فاخرجها الامير وأتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضي ونفاه الى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم فأقام عندهم أربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضج بزعمهم

(حكاية)

قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أمير لهم وعادتهم ان يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون فى ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين وأخبرت ان عادتهم متي ماوفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكر لى عنهم انهم يقولون ان أطيب مافي لحوم الآدميات الكف والثدي ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج فوصلنا الى بلدة قرى منساوقري (بضم القاف وكسر الراء) ومات لي بها الجمل الذى كنت أركبه فاخبرني راعيه بذلك فخرجت لأنظر اليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجيف فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتى ليشتريا لي جملا بزاغرى وهى على مسيرة يومين وأقام معي بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظر نابعيمة فاقمت ستة أيام أضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

(حكاية)

فى أيام اقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن انسانا يقول لي يا محمد بن بطوطة لاتقرأ سورة يس في كل يوم فمن يومئذ ماتركت قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر

ثم رحلت الي بلدة ميمة (بكسر الميم الاول وفتح الثاني) فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمي فرباموسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤسهم وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

(حكاية)

كان السلطان منسى موسي لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج الي مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضاً وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فاقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه أبو اسحق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس فى ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده اني أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضي أجله ووصل الولد الى مالي واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقري فنشتري مانحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلي الزجاج ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطي أحد النزع في قوسه ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسما واحتجت بهذه البلدة الي شئ من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له فاخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه يافقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الي شئ من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ مافيه سرا ويكلم الامير في ذلك بلسانه فقرأه جهرا وفهمه الامير فاخذ بيدي وادخلني الى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي

والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتى بمشروب لهم يسمو الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو) وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم ان شربوا الماء خالصا أضر بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فاخذته وأردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي فبينما نحن في ذلك اذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنتا له قد توفيت فقال انى لا أحب البكاء فتعال نمشي الي البحر يعني النيل وله على ساحله ديار فأتي بالفرس فقال لي اركب فقلت لا أركبه وأنت ماش فمشينا جميعاً ووصلنا الى دياره على النيل وأتي بالطعام فأكلنا وودعته وانصرفت ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذى أعطانيه باق عندي الي الآن ثم سرت الي مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوص العناني الذى لا نظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالي واقمت بها نحو شهر وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفاً مزاحا فاضلا وتوفى بها بعد خروجي عنه وأضافني بها الحاج محمد الوجدى التازى وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالى امام مسجد البيضان ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة) ومعناه الذئب بلسان السودان وكان لى جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فاخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي فأبي أن يرفع من ذلك شيأ كما فعل غيره وعطش غلامي يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به ثم وصلنا الى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال ألف وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل الا في خفارتهم والمرأة عندهم

في ذلك أعظم شأناً من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن ونساؤهم أتم النساء جمالاً وأبدعهن صوراً مع البياض الباصع والسمن ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن أراد التزوج منهن سكن بهن في أقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايولاتن وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا في السير الى أن وصلنا الى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده) ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي واضافني قاضيها أبو ابراهيم اسحق الجاناتي وهو من الافاضل وأضافني جعفر بن محمد المسوفي وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهب وهي كثيرة العقاب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم ولقد لدغت يوماً وأنا بها ولد الشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لاهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر يجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وايولاتن ولا يبيعون المعلمات منهن الا نادراً وبالثمن الكثير

(حكاية)

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعث الى القاضي أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم ان صاحبها ندم ورغب في الاقالة فقلت له ان دللتني على سواها أقلتك فدلني على خادم لعلي اغيول وهو المغربي التادلي الذى أبي أن يرفع شيئاً من اسبابي حين وقعت ناقتي وأبي أن يسقي غلامي الماء حين عطش فاشتريتها منه وكانت خيراً من الاولى وأقلت صاحبي الاول ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ورغب

في الاقالة وألح في ذلك فأبيت الا أن أجازيه بسوء فعله فكاد أن يجن أو يهلك أسفا ثم أقلته بعد

(ذكر معدن النحاس)

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الارض ويأتون به الى البلد فيسبكونه في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بأغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر بلاد من الكفار والى زغاي والى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة ويحمل النحاس أيضاً منها الى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها

(ذكر سلطان تكدا)

وفي أيام اقامتي بها توجه القاضي أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي الى سلطان تكدا وهو بربري يسمي ازار (بكسر الهمزة وزاي وألف وراء) وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركرى وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت أن القاه فاكتريت دليلا وتوجهت اليه واعلمه المذكورون بقدومي فجاء الى راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد أخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا اليه وصافحناه وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وأنزلني بيت من بيوت الياناطين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوى في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوار نا بيت أمه وأخته فجاءتا الينا وسلمتا علينا وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو وأما لطعام فلا

دونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام وفي كل يوم ما يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء وأحسن الي بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت الى تكدا

(ذكر وصول الامر الكريم الي)

لما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا لي بالوصول الى حضرته العلية فقبلته ممتثله على الفور واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالاثواب وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا وفي الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركرى وهي أرض كثيرة الاعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات الي بلادهم ودخلنا منها الي برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما في برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فاذا غسل به الثوب الابيض اسود لونه وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا الى بلادهم في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل واذا وجد سراقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر وسرنا في بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الي بلاد برابر لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور

وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن اهله يفضلونه على تمر سلجماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقتاتون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه لا يطير اذ ذاك لاجل البرد وأقمنا ببودا أياما ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أوسط ذي القعدة الى مدينة سلجماسة وخرجت منها في ثاني ذي الحجة وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فاس حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك وأقمت في كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

﴿ قال ابن جزي ﴾

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا بعد طول جولانه الا لما تحقق ان مولانا أيده الله أعظم ملوكها شانا وأعمهم فضائل وأكثرهم احسانا وأشدهم بالواردين [illegible] ن ينتمي الى طلب العلم حماية فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى لأن [illegible] رحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة [illegible] انها النعمة لا يقدر قدرها ولا يوفي شكرها والله تعالى يرزقنا الاعانة

المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين اللهم وكافضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين وخصصته بالحلم والعقل الرصين فدملكه أسباب التأييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك في عقبه الى يوم الدين وأره قرة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا ونبينا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين والحمد لله رب العالمين

يقول راجي عفو رب البريه عبد الجواد خلف المصحح بالمطبعة الخيريه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ نحمدك يامن منك كل خير ونحله ومنك السلامة في كل اقامة و(رحله) ونصلي ونسلم على من أسفر قناع الشريعة الغراء أى أسفار المبعوث بعجائب الآيات وغرائب الاخبار سيدنا محمد وصحبه وآله ومن اقتفى أثره في أقواله وأفعاله ﴿ وبعد ﴾ فقد تم طبع هذا الكتاب المشتمل مع صغر حجمه على العجب العجاب المسمى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) للامام أبى عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة رحمه الله ومن رحيه المختوم سقاه فارواه بالمطبعة الخيرية العامره بمصر المعزية القاهره لمالكها ومديرها المتوكل على العزيز الوهاب حضرة السيد (عمر حسين الخشاب) وذلك فى شهر صفر سنة ١٣٢٣ من هجرة ذى الجاه العظيم والنور الاتم سيدنا محمد الذى افتتح الله به الوجود وبه عقد النبوة

ختم

﴿ فهرست الجزء الثاني من كتاب رحلة ابن بطوطه ﴾

تمت فهرست الجزء الثاني

*